

# الإدباب

نقد الخطاب  
الامازيغي



AL ADAB 2005

العدد ٥ / ٤ / آذار (مارس) - نيسان (أبريل) - أيار (مايو) ٢٠٠٥ - السنة ٥٣

Al-Adab vol. 53 # 3-4-5/2005

www.adabmag.com

الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٤) - عندما يلتهم الإعلان الصحافة وحقوق القراء . قصائد وقصص

## تداعيات اغتيال الرئيس الحريري

INDEPENDENCE 05



This is not your victory George Bush

Democracy stirs in the  
Middle East

الحقيقة  
THE TRUTH



لا للتدخل  
الاجنبي



ج. لطف  
الخلع

# موت مدير مسرح ذاكرة الأغنية السياسية

عبيدو باشا



هذا النص تاريخ للنشاط الغنائي - الموسيقي الشامل في زمن الحرب، مركراً على دلالات الأغنية السياسية وعلاقتها بالثقافة. وهو يتوجه إلى شريحة واسعة من القراء، ويشكل شهادة حية من قبل كاتب عاش وعان وشارك وكان على علاقة بمن، وما، يحكي عنه. لذلك يتمتع النص بقدر كبير من الحوية والعفوية والمتعة. إن هذا السجل هو المحاولة الأولى من نوعها لنقد الأغنية السياسية وتعميق تجربتها.

## لَتَسْقُطَ «إِمَّا... وَإِمَّا»

نعم يا سادة. نحن نثوق مثل كل اللبنانيين إلى التخلص من هيمنة المخابرات السورية.

ولكن...

كيف هيمنت هذه المخابرات على حياتنا وهواننا؟ ألم نساعدنا نحن في شتى المجالات؟

إذن، علينا أن نتخلص من أنفسنا أيضاً، أعني من أنفسنا القديرة التي تهلّل للفاتح (كما قال جبران خليل جبران في حديقة النبي، لا جبران التويني في النهار) ثم نودّعه بصيحات الاستنكار، لتهلّل لغافج جديد، وهكذا إلى ما لا نهاية.

تريدون التخلص من الهيمنة السورية؟

إذن، أرمو كل الطبقة السياسية الحالية - وبعضها في المعارضة اليوم - في سلة المهملات.

ولكن...

هذا أيضاً لن يكفي! فنحن لا نريد أن نتخلص من السوري (كما يقول المنصريون) لنُحلّ مكانه وصاية أميركية - أوروبية بديلة، أو «التدابير» من أي نوع كان.

ونحن لا نريد أن يكون لمن التخلص من «السوري» رأس السيد حسن نصر الله (أنكون فعلاً أحراراً هنا، وقادة المقاومة - الذين أسهموا في تحرّرها في ٢٥ أيار ٢٠٠٠ - أسرى في عسقلان أو غوانتانامو... إلخ إذا «حقوا حالهم» والتحقوا بالركب «السيادي»؟)

ولا نريد أن «تصاقب» حريتنا الموعودة مع ضغوط أميركية - إسرائيلية - أوروبية على سورية. صحيح أننا لا نؤمن كثيراً بنظريات المؤامرة التي تُقرّ عفاً بها أنظمتنا لتأبّد استعبادنا، ولكننا لا نؤمن أيضاً بنظريات المصادفة، و«المصاقبة» التي يُتخلف بها المعارضون اللبنانيون بعد المعارضين المجرّبين والأكرانيين (وال...؟). ولا نريدها أصلاً، تلك الحرية الموعودة، على رؤوس الأسنة الاستعمارية والانتدابية التي كالحنا ضحاً عقوداً.

لسنا مغرّمين بلخود وكرامي وبزي والفرزلي وولام وهاب وسليمان فرنجية وجميل السيد ورستم غزالة وعدنان عضوم... ولكننا لم نكن، ولن نكون، مغرّمين بأمين الجميل وسمير جميعع وميشال عون وجبران تويني وسمير فرنجية ووليد عبيد ووليد بكّ! ولم نكن، ولن نكون، مغرّمين بلبنانيين على مقاس: حميد كرزاي الأفغاني، وإياد علاوي العراقي، وفلاديمير بوتين الروسي (تري، هل «صاقت» أن قرّر هذا الأخير زيارة إسرائيل قريباً بعد أن أحجم كلّ الزعماء السوفيات - والروس - عن ذلك منذ تأسيس الكيان الصهيوني؟).

إننا نريد الحرية والاستقلال والسيادة يا سادة، ونريدها بكلّ جوارحنا وحبّاً لأطفالنا ولشهادتنا. ولن يُجبرنا أحدٌ - بحجة الأولوية القومية والوطنية - على التخلي عن أحلام الكواكبي ورفيف خوري وفرج الله الخلو وكمال جبيلات. ولكن لن يُجبرنا أحدٌ، في المقابل، على أن نركّب «اللحظة الدولية المئوية» على حساب حزب الله وحماس، و«الجهاد»، بل وعلى حساب حرية حقيقية (للفرد والمجموع، وللقطر وللأمة، وللذكر كما للأُنثى) مجرد أن تكون مقبولين عند السيد الأبيض الذي يذوّب حرصاً علينا!

نريد الحرية لذاتها: حاضرتنا، مستقبل أولادنا. ولكننا نريدها، أيضاً، لكي نستطيع أن نُدبر معركتنا ضدّ الاستعمار و«السياسات الصهيونية» بكفاءة أكبر، وببني أصلب. فسلّطنا في مواجهة مغتصبينا شعباً والمجولان وفلسطين والعراق، وفي مواجهة الإملاءات الاقتصادية العالمية، سيكون أمضى حين نكون أكثر حرية. لكنّ حريتنا وحبنا لن تكفي - كما يروج الليبراليون الجُدُد - لتحقيق الاستقلال وتحرير الأرض وردّ العدوان على أرضنا وشعبنا وميائنا ومؤسّساتنا. بل هي لن تكفي وحدها لدخول عصر العولمة «الزاهر»، لأن شرط هذا الدخول أمة واحدة أو متعاقبة فيما بين أقطارها - وهو ما يتناوب على إفشاله كلّ من النظام الاستبدادي الفُظري العربي والحلف الاستعماري - الصهيوني.

لبنان ٥٠٠٠ ل.ل. - سوريا ١٠٠ ل.س. - مصر ٧ جنيهات - المغرب ٢٥ درهما - تونس ٢٠٠ مليم - الأردن ٢٥٠٠ فلس - البحرين ٢٠٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١٥٠٠ فلس.

# الفهرس



## الافتتاحية

١ لتشفق، أما... وأما!..... سماح إدريس

## ملف ١: قدايعات اغتيال الرئيس الحريري

٤ قدايعات اغتيال الرئيس الحريري..... ملف من إصدار: سماح إدريس

وياسين الحاج صالح

٥ ١١ سبتمبر الثاني: يوميات المعارك..... نزيه أبو عفش

١٣ عجزُ الطائفية وصلحقاتها، ودورُ القوى الوطنية والديموقراطية... سعد الله مرزعلي

١٧ قراءة في متغيرات العلاقة السورية - اللبنانية..... عماد هرماني

٢١ كيف نُظّم «زلزال الهول»، في الشرق العربي؟..... سعد محبو

٢٥ ندوة: مستقبل العلاقات السورية - اللبنانية..... المشاركون: حسين الصودات، ميشيل كيلو، عمر اميرالاي

أدار الحوار: ياسين الحاج صالح

٣٢ كي لا يكون الأتني أعظم!..... سماح إدريس

## ملف ٢: نقد الخطاب الأمازيغي

٥١ تقديم..... عبد الحق لبييض

٥٢ الأمازيغية: تصحيح المفاهيم والتأسيس لهوية موحدة..... رشيد الإدريسي

٦١ في الخطاب الأمازيغي: وجهة نظر نقدية..... محمد الولي

٦٦ ملاحظات حول تدريس الأمازيغية..... العربي بيلوش

٦٨ انساق الهوية المغربية: البنيات والوظائف..... جمال بند-جهان

## القصائد

٤٣ الوصية..... عامر الديك

٤٥ كل شيء جديد..... سامي مهدي

٤٨ قطارات المسارات التنبؤ..... عبد الجواد العوغير

## القصص

٧٨ عينو..... ناصر الرياض

٨٣ عمو صالح..... محمود سعيد

٨٩ جدنا الذي في القبو..... سمير طاهر

## سلسلة

١٠٥ الحركة الشعبية العربية: الواقع والمآل (١)..... أحمد بهاء الدين شعبان

## فصل من كتاب

٩٧ عندما يلتهم الإعلان المهنة وحقوق القراء..... كازم يحيى



## تداعيات اغتيال الرئيس الحريري

□ ملف من إعداد: سماح إدريس وياسين الحاج صالح

طوال ترؤسي تحرير هذه المجلة (١٤ عامًا) لم يحدّ أنْ أخرني الكتابُ أسابيع بطولها قبل تسليمي المقالات التي طلبتها منهم (بل إنْ بعضهم اعتذّر في اللحظات الأخيرة) - ومن هنا تأخّر هذا العدد عن الصدور. ذلك أنْ الحدثَ اللبناني - السوري جُلّ، بكلّ ما في الكلمة من معنى: والقنوات التلفزيونية تتقاذف المثقفين بين نشرية ونشرية، وبين حوار وحوار مضاد. وما هو الشعبُ اللبناني يُثّرل إلى الشوارع، فيُناجنا جميعًا، ولاسيما منْ كاد يُئاس من أنْ يجرّ ولو عشرة إلى اعتصام أو ندوة.

يُبدّ أنْ «الشعب» لا يُثّرل موجدًا، وإنْ التّحفّ العلمُ اللبنانيُ نفسه: فالسيادة في ساحة الشهداء غيرُها في رياض الصلح، وقُلّ الأمرُ عينه بالنسبة إلى الشعارات الأخرى كالحرية والاستقلال بل إنّها قد تختلف حتى ضمن المظاهرة الواحدة.

في هذه الأيام العاصفة صنّر هذا الملفُ. إنّه أشبه بالتقاط صورةٍ لقطار يسير بقلصى سرعته. وهو، لهذا السبب، يُحمّل ما يُحمّل من ثبات المبادئ. واضطراب المشاعر.

ببيروت

### المشاركون

(الفبائيًا)

• سعد الله مززعاني

• سعد محيو

• سماح إدريس

• عماد هرملاني

• عمر أميرالاي

• ميشيل كيلو

• نزيه أبو عفش

• ياسين الحاج صالح

## « ١١ سبتمبر الثاني»: يوميات العار

«السياسة هي فن المتاجرة بالعار»

الحقيقة؟  
THE TRUTH?

□ نزيه أبو عفش

طوال عقود ثلاثة ونحن نتحاشى قراءة الحقيقة وإعراب الوقائع. بَنَلْنَا كُلَّ مَا أَمْكَن (من الدم والبالغة) لَنُخْطَبِ وَدَّ «الرَّعَاء».. فحظينا بكراهية الشعب!

اهدأ كُلَّ مَا اسْتَطَعْنَا فَعَلْنَا

هَذَا كُلَّ مَا فَعَلْنَاهُ..

وها نحن الآن على أبواب الحقنة. ها نحن، مرةً أخرى وأخرى، واقعون في كمينِ المهاتمة كلنا - في كُلِّ مناسبة ومحنة - يتوجَّب علينا، نحن الشعبُ المغلوب، أن نُدْفَعَ ثَمَنَ أخطاءنا انظلمتنا ونسندُ فواتير الخيبات والألم وحُمَى الصبر. ثم: عودة إلى نقطة الصفر... بانتظار الحقنة التالية.

علينا أن نَسْأَلَ الآن (بالأحرى: نَنُكِّرُ ما سبق أن سألناه): ما الذي فعلناه - نحن أهل هذا البيت المُخْشَن - لنستحقَّ كُلَّ هذه المهاتمة؟! ما الذي فعلناه؟ ما الذي لم نفعله؟!

وإذ يقال الآن - في ما يخصُّ لبنانَ تحليداً -: «فَعَلْنَا ما كان يجب أن...» يقول صوتُ آخر: «هل فعلنا ما كان يجب الأ...» وأياً كانت نسيئةُ الصواب في مزاعم «الواجب» أو ادعاءات «الإقتراف»، فإنه يُمكننا أن نَعترف الآن، اعترافاً مَرَّ يَتَكَلَّمُ وَيُدْفَعُ الضريبة، بأنَّ المسافة بين خِيَلِ المستنجدِ به وإنكسار مَنْ يُطْرَدُ غَيْرَ مُشْكِرٍ على شهادته هي بالضبط المسافة بين الكرامة والمذلة. هل ثمة مَنْ يتحمَّلُ المسؤولية ويدفعُ الثمن؟!

فَعَلْنَا ما كان يجب أن.../سيقولون.

ونقول: نحن لسنا بَدَلًا عن الله لنقوم بحراسة مزارع الآخرين وبيوت الآخرين وأوطان الآخرين وجنود الآخرين (تحت أيّ ذريعة... حتى ذريعةِ الأخوة والشهادة وسواها من مشغقات الإنشاء الوطني).

أبدًا، نحن لسنا بَدَلًا عن الله (الأوَّلَى بالله أن يدير بأله على رعيته ويهتَمَّ بآل بيته). وهنا استعيد ما سبق أن قلَّته في مناسبة أخرى: إذا كانا قد هُزِمْنَا في معركة الحرب وازترينا في معركة السلام، فلماذا نَتَوَقَّعُ الآن أننا على أرض لبنان - الشقيق أو الشقي - قادرون على كسبِ معركة الحرب وغسلِ الأخطاء القاتلة لمعركة السلام؟!

من هنا - من داخل هذا البيت الذي يضيِّق ويُحِبُّ - يتوجَّبُ الإعدادُ للنصر... إذا كان ثمة نصرٌ موعودٌ ما. وهنا - داخل هذا البيت - يتوجَّبُ ترتيبُ المادَّةِ المُشْرَكةِ للغزو بنعمة السلام... إذا كان ثمة مَنْ يُرْغَبُ في التصديق علينا بهذه النعمة.

«أنجز» اغتيالَ الحريري، ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

«أنجزت» صياغةَ الزلزال، ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

لبنانيُّو الاستقلال الثاني يصْخَرُونَ: «برأ يا سوريا برأ...» وسوريُّو البلاغة الوطنية يقولون: «جئنا حماةً ومُجسدين». ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

الظلمة أصابت الجميع، وهستيريا «القويعة» تَلَدُّ بعقول الجميع، وخندقُ الحماية أوشك أن يتحول مقبرةً للجميع ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة. هنياً، وهيناً.

### ١ - الخاتمة

بعد شهر من الزلزال

نعم، نحن أيضاً كأننا نتمنى أن نَسْمَعَ كلمة «شكراً» من أفواه جيراننا اللبنانيين. لكن: على ماذا؟ ولقاء ماذا؟ ونحن أيضاً كأننا نتمنى أن نَوْعِ بالورود والأغاني بدل أن نُخْرِجَ، أمام عدسات الكون الشامات، مَرَّجُومين بصيحات الكراهية. لكن: لماذا؟ وعلى ماذا؟!

إذا كان من واجبتنا حقاً حماية لبنان، فمن واجبتنا قبل ذلك التطلع

إلى حماية سوريا

إن يتجنى لقيط الخطيئة ويندفع للثمن، ثم الإهانة أولاً، وأولاً أيضاً: ثم إخراج الشعب اللبناني من بيت العائلة الكبير بيت الصداقة الذي يتصدع.

المهانة التي قصفتنا بها الفضائيات الشامتة لم تسقط على رأس جيشنا فحسب (وهذا من بعض مهام أحياناً) بل على رؤوس الشعب كله... تحديداً.

نعم، كنا نتمنى أن نسمع كلمة «شكراً» على ماذا؟

لقد نحاشيتنا «زعلة» أمراء السياسة ومقاوليها، فحظينا بكرهية الشعب.

اعتقد (واسم الوحيد) أنه لم يبق أحد في لبنان إلا وصّب جام كراهيته على سوريا، وعلى شعبها أحياناً، حتى أولئك الذين قالوا - وفاءً أو استحياءً أو تسليماً -: «شكراً، سوريا...»

لكن، ثمة كثيرون (مئات الآلاف من شعب لبنان) قالوا: «شكراً لسوريا...» وقالوها من القلب. هؤلاء، بتصنيف علماء الأجناس اللبنانيين، كانوا مجرد «اغنام» والأغنام لا يُعتدّ بأصواتها في حسابات القضايا الكبرى.

فإذاً: هل ثمة من يتحمل المسؤولية ويندفع للثمن؟

بلى، ربما الشعب مرةً أخرى.

...

أكرّر: نحن لسنا بؤلاة عن الله... بل... وإسناً رسّله ومُسمّاه لتلقّى الصفعة ونذير الخذلان نحن بشر يتكلمون ويفضون ويؤجفهم جرح الكرامة إذاً، فلنسمع ونتوجّع:

«مواطنون لبنانيون يُخطّون تماثيل الزعيم السوري، إلخ...»

لم يسبق لي، طوال حياتي، أن عملت غارسوناً لدى النظام الحاكم في سوريا.. وإن يُحصل ذلك في ما بعد، لكتّني، مثل كثيرين من مواطني سوريا الذين تابعوا عملية الفتك على شاشات الفضائيات، كنت أشعر أنّ طعنات الفؤوس المانقة لم تكن تصيب الفئاس والحجر فحسب، بل ولحومنا أيضاً.. نحن الذين نتفرّج على تهشيم ما يُفترض أنه رموز كرامتنا الوطنية ذاتها.

أرى - أمام هذه المذبحة المعنوية - من الذي يستحق كراهيتنا أكثر: مرتزقة لبنان المنافقون الذين شيدوا التماثيل ليُثَمِّوا الجوائز والإكراميات، أم «مُنْتَبِهُ» النظام السوري الذين باركوا هذه الاحيالي النفاقية.. غاضبين النظر عما قد يبيح به العدد؟!

يا أمانة سوريا الحزينة: ما الذي فعلته سوريا لتستحق منكم كل هذه الإهانات؟!

نسال فحسب. نسال.. ولا نتنظر جواباً.

...

أيضاً وأيضاً: نحن لسنا بؤلاة عن الله.

وإذا كان من واجبتنا حقاً حماية لبنان، فمن واجبتنا قبل ذلك التطلع إلى حماية سوريا. وإذا كانت النيات الخيرة إزاء الشعب اللبناني هي ما نقفنا إلى التحصن في حديقة الجيران كل هذه السنوات، والتشبُّع المقترح بها وكأنها الامتداد الشرعي لحديقتنا الوطنية، فلنعتزف الآن:

لقد كان دخول جيشنا إلى لبنان مثلاً جدل كبير في أوساط الناس - مثقفين وبساطة ومواطني عاديين. وإذا سلّمنا الآن بضرورة ذلك الدخول أو التخلّص، فما من أحد الآن - الآن - أقصد الأساس - يستطيع التسليم بضرورة التشبُّع والبقاء.

كان علينا، حفاظاً على كرامة الجيش والشعب معاً، أن نُخرّج منذ ثلاث عشرة سنة (بل وأكثر...) من دون أن ننظر اللحظة التي يُرغم فيها كل مواطن على دفع ضريبة المهانة والإذلال. نستطيع أن نغفهم ضراوة صراخ اللبنانيين في ساحة تيسريهم: «براً.. برأ.. برأ...» إنهم لا يُقدِّسون جيشنا ورجال استخباراته فحسب، بل يُقدِّسون «السوري» دونما استثناء.

ما كان يجب أن نحمله تحول فجأة محميةً والحزب - في نظر أهل البيت - تصول غارياً، وهكذا توجب أن نُخرّج صاغرين.

نعم، لقد خرجنا صاغرين، بعد أن فوّتنا على أنفسنا فرصة الخروج اللائق، تحفّ بنا مواكب الوفاء والشكر. وإلا فبأي صيغة أخرى يُمكن إعراب ما حدثت ويحدث: الجنود - ابتازوا وإخواننا وأصدقاء قنوتنا - ينسحبون على ظهور شاحناتهم المريضة، والناس - تحت وطأة الإحساس بالبؤلة - تتشقق قلوبهم وادمغفهم أمام شاشات التلفزيون التي تُقصِّصهم بالحفاظ دونما شفقة أو تقهّم أو نامة غفران.

رايات شامخة وقلوب متسكة، تلك كانت الصورة. ونريد تفسيراً.

نريد ما يضمن الكرامة ويوقف نزيف الجرح. بل وأكثر: نريد من أحدرما



الرسالة التي حملها دويُّ الاغتيال الدراماتيكي وصلني: حان الآن موعدُ تسديد الاستحقاقات الأخيرة. حان موعدُ تنفيذ الحكم بإعدام سوريا.

لكن: مَنْ قَتَلَ رفيقَ الحريري؟!

المطالون بالثأر هبوا جميعاً، واتفق من مائة وأتساع مظلة الحماية الدولية. ليؤكِّدوا: «ما بُعثَ نكاحاً.. معروفة...» وكانت الأسسُ والأصابعُ كلها تشير إلى «المعروفة» سوريا.

في تلك اللحظة اكتشفَ الجميعُ أنَّ لهم عدواً ينبغي تاديبه وسحقه. وفي مثل تلك اللحظة - لحظة سعارِ الثأر - سيكون بوسع الجميع أن يُثبتوا أنَّ مَنْ صَلَبَ يسوع المسيح، وقطع رأسَ يوحنا المعمدان، وقَتَلَ سبارتاكوس، وأحرقَ مراكبَ فينيقيا.. هي سوريا طبعاً.

- لكنَّ لماذا أنتم والتفون إلى هذه الدرجة من أنَّ سوريا هي مَنْ «فعلتها»؟!

- لأننا نرغب، بل ومن مصلحتنا، «أن نكون واتقين» من أنَّ مَنْ فعلها هي سوريا.

حسناً، ربما تكون سوريا قد فعلتها، لكن: ربما آخرون أيضاً، وربما كاتبُ هذه السطور نفسه! ومع ذلك: «أشتقوا سوريا» صاح الجميع وعقبتْ الانشودة.

.....

قبل الفتي سنة من الآن كان اللبنانيون (أهلُ فينيقيا الممتدة من جونبة إلى الروشة، بالمعايير الجغرافية لمسيحتنا مار مارون السوري) حاضرين أثناء محاكمة يسوع الناصري، وحين سلَّهم بيلاطس: «مَنْ تريدون أن يُصلَّب؟ باراباس أم المسيح؟» صرخوا جميعاً، وبم واحد، وقلب واحد، وخنجر واحد:

«أصلبوا سوريا».



### حربُ الإعلام

فجأةً يكتشف اللبنانيون أنَّ لديهم أعلاماً (أعلاماً لبنانيةً بحق) تصلح للتسلح بها على مشارف ميدان الحرب، وفعلًا تبدأ الحربُ: حربُ حمراء مدويةٌ، وهتافاتُ حمراء مدويةٌ مملَّحةٌ بالكراهية وشهوة الدم:

«أصلبوا سوريا».

لعلهم على حقٍّ، بل لنعترف: لا أحد منهم يعني أن يكونوا على حقٍّ.

.....

### مساء الأربيعاء ٩ آذار وفق التقويم الدمشقي

تعود ناديا من مسيرة «أبناء» عشيرتها، منهكةً، متوترةً وراضيةً، متشقةً علَّها «السوري» المضَّمُّ بماء يسوع المسيح وسبارتاكوس ويوحنا المعمدان وأمرأ فينيقيا الأواثل (العَلَم الذي كانت، حتى ذلك الحين، ناسيةً شكله واللوانه وعدد نجومه). تُسند علَّها - رمحَ نغمتها الذابِلِ الحزين - خلف الباب، وتتهدَّ كثرٌ يقول: «أثبت للوطن ما يستحق من ضرائب محبته» هذه المرة لم أجد الحماسَ الكافي للسخرية منها ومن وطنيتها الباذخة، أنا الذي كنتُ أقول على الدوام لمن يتفاخرون بأعلام بلادناهم: إنَّ خلف كلِّ علم هويةٌ وحضٌ، ونابٌ وحشٌ، ومصرعٌ وحشٌ.

: العَلَم صورةٌ تجرِّبُ الإنسان.. وصورةٌ انصطاطه ويأسه أيضاً.

الآن - في شهوة ناديا للاحتماء بعَلَمها - أفهَم حينئذٍ الإنسان للعودة إلى الفوقية: إنها حيلته الأولى للاحتماء، في كهف الوحش.

إنَّ شعب سوريا أوثى وأحقُّ بمكرمة هذا المعروف (معروف العدالة والحرية والكرامة والثقة بالمستقبل والتأكيد على القيمة الإنسانية للمواطن وفكرته النبيلة عن مفهوم الوطن...). وبالتالي: إنَّ مَنْ يحتاج إلى حماية ورعاية ودعم النظام السياسي السوري هو شعبُ سوريا قبل الجميع. إنَّ لقمةَ حياةٍ كريمة، وجرةً حريةً مضمونةً وكريمة، وفُرصَ عيشٍ متكافئةً وكريمة، والنهوضَ بدولةٍ قانونٍ يُدعِم ويحاسب ويُحشي، وإعادة الاعتبار إلى جامعات (أي) اهتراؤا) قادرةً على مواكبة العصر الإنساني والارتقاء بقديم الثقافة والعقل، ومناهج تعليم (أي) أمميةٍ مفتحةٍ، تنتقل من تكتيكات محو الأمية إلى استراتيجيات إعادة تنسيب الإنسان إلى الزمن، وحرية تعبيرٍ مكفولة، ومؤسسات إعلامية مفتحةٌ مؤهلةٌ للانتقال من حظيرة البلاغة إلى فضاء العقل المغامر والشجاع، و... إلخ، إلخ، إلخ: أي أخوه: ذلك ما يحتاجه شعبُ سوريا، وذلك ما ينتظره ويُجوِّع إليه. أمّا شعب لبنان - أو سواء - فبإمكانه أن يتدبَّر أمر نفسه

أما نحن.. فمرةً أخرى: لسنا بدلاء عن الله. بل ربما نحن مَنْ هم الآن في حاجة إلى رافته.

هل فات الأوان؟

أمل أن لا. ثمة متسَّع من الوقت للتصالح مع الحياة، متسَّع من الوقت؛ ربما، ولكن التاريخ لا يحبُّ إطالة الانتظار.

### II - ١٤ شباط ٢٠٠٥: «أُنَجِّسُ» اغتيالَ رفيق الحريري

أعترف أنني لم أكن، في أي يوم مضى، مغرمًا بالرجل، ولكن مغزى

تماماً كما لو أنها عائدة من الحرب: تُسند رمحها في الزاوية وتتهدّد منتشبةً بمدقّ نصرها الفقير. لعلّها ارادت أن تقول: نحن أيضاً لدينا أعلامٌ تُصَلِّح للحروب والمطالبة بالثأر. لسنا أيتاماً ولا أبناء جوارٍ لدينا، مثلهم، أعلامٌ ومعاينات وضوضاءٌ عفاند: ومثلهم أيضاً.. لا تُقدّصنا صلالةٌ للمعالي وزهو طالب الثأر. فإذاً:

يحيا العلمُ / الخندقُ / الكهفُ  
/ الجنونُ / نداءُ الموت..  
يحيا الموت.

«بدأت حربُ الأعلام، قلتُ في داخل نفسي، وتذكّرتُ، دونما خفينة، أعلامَ جيراننا «الآخرين»، هناك في ما صار يُدعى - نكابةً بشهداء عرويتهم - ساحةِ الحرية - حرية لبنان. وردّت في أدن قلبي القسوة السعيدة المظفّرة لصديقي پول شاول: الآن اكتشفنا كم هو جميل علم لبنان!

حقاً، كم هو جميل العلم... كلُّ علمٍ، لكنّ، أيضاً: كم هي مريعةُ فكرته والحاجةُ إليه! كم هو مريعُ ارتدادُ الإنسان إلى ثقافة الحديد، وضوضاءِ العظيمة، وصرخةِ العماء الأولى: صرخة هابيل وقاتله.

العلمُ الذي كان دلالةً الفخضاء والرجابة.. صار علامةً القفص والانفلاق وثأرية نداء العقل: إنه الإيعازُ الأبلغ لإطلاق رسامة الحرب الأولى: ثم يأتي بعده البوق والبساطُ والتشديد. بعدن يجي دور السيّافين والقناصة وحفّاري قبور الموتى. حينئذٍ - حينئذٍ دائماً وتماماً - يغدو بمقدور الإنسان، أيّاً كان إليه أو عقيدته - أن يبرّر لنفسه شهوة الوحش إلى الدم... كلُّ دمٍ وائي دم.

ما الذي فعله العمال السوريون، وباعة الخضار السوريون... ليستحقوا كل هذا القدر من الكراهية والجنون وشهوة الانتقام؟

نعم، كم هو جميل علم لبنان! لكنّ ما أجمله لو كان حقاً «علمًا».

كيف فات صديقنا پول أن ذلك الـ «كَمْ» هو جميل، لم يكن علمًا واحدًا لجماعة واحدة وشهوة حرية واحدة وإرادة حياة كريمة واحدة. العلمُ الذي «كَمْ» هو جميل، لم يكن حتى ليُصنّف عن وجوده وأصوله حامليه، بل كان - في غالب الأحيان - يُخفي ما أتبعه فقيسو الوطن الجميل من مذابح.

ليس الهوية.. بل القناع: ذلك هو الجميل في العلم الذي «ما أجمله» ذلك هو الجميل - اللقيح - في كلِّ علمٍ يُنهض على بُخضاء العقيدة وسعار الدم. وفي أعلام بلادنا (في أعلام البلدان كلّها يا صديقي) ما أوفر الدم، وما أندر الرفاة! ما أعظمُ صيحة الموت، وما أروعُ شهقة الحياة!!

صديقي وأخي پول، لا تزعلْ، هل كنتُ ستقول الكلمات نفسمها، عن العلم نفسه، لو أنّك شافتهُ أولاً في تظاهرة «ثلاثاء الأغنام»!

ثم، صديقي وأخي پول (سامحني واصفغ عن مرارتي): إنَّ الصبيحة «الموحّدة»، التي اشتعلتُ وما تزال تشتعل خلف العلم - القناع - لو، لوحد، لم تكن أبداً صيحةً محبة للوطن وناس الوطن، بل كانت - أعرف وتُعرف - صيحة كراهية «الأخر».. كلِّ الآخر. وسامحني أيضاً وأيضاً.

وأخيراً، صديقي وأخي پول، لا تزعلْ، ذات يوم غير بعيد، ستمري على كلّ شرفةٍ بيتير علمًا، وفي كلّ غرفة نوم خندقاٌ وحاجزٌ ميليشياي، وتحت كلّ وسادةٍ خندجراً وكتابٌ صلاة. ذات يوم أظنك رابته ونراه: ذات يوم «أتى وياي» ونشتمُ دغسنته، منذ الآن، خلف باب المعبّد.

#### يوم آخر في شباط/يوم الغفران

بعضٌ من اصداقنا شعراء لبنان - أهل القلب - يتصدّون، مشكورين حقاً، برسالة محبة موجهة إلى بضعة عشر نفرًا من اصداقناهم المثقفين السوريين «الحبّابين والأبرياء».. فاتهم أن مَن يستحق كلمة الحب هو «شعبُ سوريا» الذي يُعدّ عشرين مليونًا من البشر.. البشر الحبّابين الحقيقيين. وإذا كان شمة مَن يستحق أن تُسبّ عليه لعنات كرايهمم بالفعل، فإنّ عليهم في هذه الحال أن يتوجّهوا بمعكوس هذه الرسالة إلى عشرين أو ثلاثين «موظفًا» من الكبار - الصغار - الذين يُكفّضهم مثلما يُكفّضهم، وإذا كان عليهم أن يتوجّهوا بالاعتذار عن فائض الكراهية الذي صبّ على رؤوسنا وضمائرنا، فلعلّ من الأجدر والأجدي أن يعتذروا للعمالّ وعابري السبيل السوريين (الأبرياء، حقًا وصيقلًا، والبشر حقًا وصيقلًا) الذين اغتيلوا (أمّ يجب أن أقول: قُتلوا؟) برصاصٍ وسكاكينٍ اتطرفت وسعارٍ العنصرية وجنونٍ محبة الأوطان (ما أتبع هذه الكلمة).

لأصداقنا هؤلاء، نقول (والحبة محفوظة بطبيعة الحال):

أعفونا من فائض مغفرتكم، أعفونا من الصان والصفغ وإنشاء الواجب. لسنا نحن، الآن، مَن يحتاج إلى التحية والتطمينات وتأكيد أواصر الؤد. وفقرًا ذلك لجامعين إخواننا وأبنائنا عموثنا وأصداقنا الذين بُدّوا في الشوارع وتحت بقلانيات النوم وعلى مداخل وسفالات الأبنية حيث يُعملون ويعيشون ويُظلمون.

## عصر «الكلايش».. وعنصرية الصمت

تَلَمْ ريمون جبارة يَصْدَحُ في وجوه السوريين.. «أولاً كلاكيشكم وثقوا».

حسناً، ها هُم يَلْمُونُ كلاكيشهم.. ويَقُولُون..

لكنّ.. لا يَقُلْ لي أحدٌ منكم - إخوتنا هناك - إن ريمون جبارة كان يتحدث بلسان نفسه فحسب، ويتوجّه بندياته الفولكلورية إلى رجالات الجيش السوري واستخباراته فحسب. كان صراحةً ويملأ الغم والقلم والقلب، يُقصد «السوري».

في هذا النداء «الوطني جذاً» تتجلى أبلغ الصيحات العنصرية وأشدها دمويةً وسفاهةً وسعاراً عقل. وحين نقول «العنصرية» لا أقصد فقط من فُتِلَ عاملاً أو أُحْرِقَ خيمةً أو ذُبَحَ حارسٌ مزروعة (إذ، هنا، يُمكن تَفَهُّمُ الانتفاخ العاطفي الأحقق غير القابل للسيطرة والكبح)، بل أقصد عنصريةً الضمير والعقل.

العنصرية، في هذا السياق، كائنةً بصورةٍ أعمق وأشمل وأحطّ لدى شريحة الثقافة والفنانين ونجوم الصحافة (الديموقراطية طبعاً) الذين صمّتوا، أو باركوا، أو في أحسن الأحوال اكتفواً بالهمس من وراء الستار: «لا يا شباب، حرام، فنون عمال مساكين ومقاطيع، ويستاهلون منا شوية عطف».

أقلُّ من ذلك؟!

عيب يا أصناف الثقافة

نعم، لم يكنوا يصرخون ضد النظام السوري (الذي أخلى المواقف وانتهزها...) بل، في كثير من الأحيان أو ربما في كلّها، كانوا يُقصدون «السوري»/«العراق السوري»

مازلنا نتذكّر الحرب الطاحنة التي شنها متفقو لبنان الحضارة على انونيس، الفلاح القليل الأصل. يومها، لم تكن الحرب الشاملة ضد «السوري» قد بدأت. وكان الجميع في لبنان - نقاداً وشعراءً ورسّالاً منديّات - يتفاخرون أمام الكون كلّهُ بأنّ انونيس شاعرٌ لبناني، وفجأة.. كسر الرجل قال ما قاله حول بيروت/بيروت المتعددة/بيروت المتباينة الوجوه/بيروت لك «أكثر من مدينة واحدة»... ما اعتبره الجميع إهانةً لبيروت الحاضرة وهجاءً لها! علماً بأنّ الرجل - بما عُرف عنه من عقلانية وتفتح وعدم اللّوالب والوجدانيات والمفاهيم للخلقة - لم يوفّر مدينةً عربيةً من هجائه المريب. والمصنّف في غالب الأحيان.

فجأةً تنبّه الجميع، وهب الجميع، وانتفض الجميع لدفع الإهانة. وفجأةً اكتشفوا أنّ الرجل مجرد سوري، غلّوي، عنصري، عاقي، عديمّ الوفاء، متنكّر لخبر لبنان وبلده، لبنان الذي صنّعه، لبنان الذي أوّاه وزعاه وأطعمه وكساه ومثّنه وعلمه الكتابة - بجديّة الذر - وأطلقه في فضاء العالم.

بالله عليكم: ما هي العنصرية، إذًا، يا إخوتنا في الثقافة والأحلام والأبجدية (لا!) والعقل ووحدة ضمير الإنسان؟

ماتوا.. ولم يَخْرُج صوتٌ من فم أحدٍ مع ذلك، ثَقُوا أيها الأصدقاء: إنَّ أيّاً منكم، أنتم أبناء لبنان العظيم الذي أحببنا ونحبّه، أو واجهتهُ - هنا في سوريا كلّها - إيساءً صغيرةً واحدة، بكلمةٍ أو هفوةٍ لسانٍ أو غمرةٍ عين، فلفسوف يجد إلى جانبه عشرين مليوناً من البشر (لا بضعةٍ عشرين من المثقفين فحسب) مستعدين، دفاعاً عن كرامته وكرامتهم، لانتلاق قلب مَنْ يسيء إليه، بأسمائهم!

ثم، ما الذي فعله العمال السوريون، وباعة الخضار السوريين، وعشاق جنة لبنان السوريين، والمتسكعون السوريين.. ليستحقوا كلّ هذا القُتر من الكراهية والجنون وشهوة الانتقام التي اوصَلَتْهم إلى الموت تحت أبصار المثقفين وضمايرهم؟! وثقوا مرةً أخرى: إننا، نحن مثقفي سوريا المنفوخين ببلاغة الشعارات وبخان الشفائر، نَستحي حقاً وهيناً من مواجهة جاسوسٍ إسرائيليٍّ يمثل هذه القطاعة والدموية وعصى الثار

أما أنا، بلسان ضميمري وقلبي، فأقول: إنَّ أيّاً من هؤلاء العمال، فعالة الشرق والأحلام والريغ، يستحقّ (لو كنتُ رئيس دولته) أن يُعاد إلى مسقط رأسه - لا مثبوحاً كالبضاعة النالفة في الصناديق الخلفية للشاحنات - بل ملفوفاً بعلم بلاده الوطني، ومحمولاً على منابر الألف الأكف والقلوب، تماثلاً كما يُليق برئيس وزراء دولة السويد... على أقل تقدير.

لكنّ، ما الذي يوسعنا علمه، إذا كنّا - عملاً ومثقفين وعشاق حياة - منكوّين على الدوام بشعوب تنسى.. وسادة شعوب يُصنّفون؟!

أيها الأثرياء السوريون، احملوا  
أموالكم وودائعكم المصرفية..  
وارحلوا

أيها الكتاب السوريون، من أنوبس  
إلى غادة السمان إلى ضيوف  
صحافة لبنان الحرّ، السامع  
الكريم، احملوا أفلانكم وجفارتكم  
ورائحة رعيانكم، وارحلوا  
ولترحل أيضاً عظام يوسف الخال  
ودماء كمال خير بك

ولترحل أشلاء وغصّات ودماء  
الجنود السوريين الذين ماتوا دفاعاً  
عن العلم الجميل وتراثه المثخن

وليرحل - إذا شاء، وقبل أن يحين  
موعدُ طرده - صديقنا محمد علي  
الأناسي ضيف النهار المحبوب  
والمكرم (وصدقني يا أخي علي، أنت  
لست ضيفاً على قائمة الحب، أنت  
فقط مستثنى، إلى حين، من قائمة  
الازدياد، وغداً سيكتشفون «السوري»  
الصغير المتكبر خلف ثيابه).

لكن، فقط لتبقى المطربات والراقصات  
(بشرط أن يُنقن اللغة الفينيقية  
حصرًا)، لعل «شارع زيتونة» جديدًا  
سيكون بحاجة إلى خدماتهن النبيلة في  
ميدان السياحة وتوطيد أواصر الأخوة  
مع أشقاننا «عربان» النفط البجليين.



- أنا ذاهب إلى بيروت  
صرخت نائبا لن تذهب سينجوتك  
قبل أن تجتاز طلعة «شعورا»

- لاطمني، قلتُ لها. سأقول لهم: أنا  
شاعر معروف، معارض لحزب البعث  
وللنظام الحاكم في سوريا. أعرف في  
لبنان وزراء، ونوابًا، وشعراء،  
ومفكرين، ورؤساء تحرير صحف،  
وقادة أحزاب، وزعماء طوائف  
محترمين، و.....

تحت راية من سيتوحد لبنان؟ اتحت راية «البيك» الاشتراكي، أم  
تحت راية لبنان «الديموقراطي» الذي يمشر به جزارو الأمس؟

- لن تذهب، قالت. ربما يكون أحد معارك متعاطفًا مع السوريين، أو على خلافهما مع  
جماعة المعارضة.

- سأقول لهم: أنا صديق زياد الرحباني.

صنعتُ قليلًا.. ثم

- لذلك لن تذهب شيت حاجر البربارة سينجوتك قبل أن يُطرحوا السؤال الأول  
لعلها على حق. طبعًا لن أذهب



منذ خمسين سنة ولنا أحفاد عن ظهر قلب (ما الطف هذا التعبير!) أسماء قرى وبلدات لبنان  
شُترا، مينارة، أنطلياس، راشيا، عنفت، القليعات، مرجعين، دير القمر، وادي شعور (التحتا  
أو القوقا) إلخ.

كان جدّي السوري، ابنُ مرمريتا، «معمرجيًا»، يعني، معلمُ عمار ما من قرية في لبنان إلا  
ووني فيها بيتًا أو بيوتًا، ورزغ بين جدرانها صدقات (لم يكن يقول «بكرا رايحين غ  
لبنان...» بل: «رايحين فيلكي»)

حتى الآن لم أرَ أيًا من المواقع التي عمل فيها جدّي وتركته على حجارة وعتبات بيوتها  
بسمات قلبه وأصابعه وعينيه وعاطفته. (اشتقت لاسم جدّي: المعلم أبو سليمان).

عاش جدّي مئة وثلاث سنين، وغادر الحياة قبل خمس - ست سنوات لا أكثر.

الآن أقول في نفسي: الحمد لله. لو قُدر لجدّي أن يعيش في مثل هذه الأيام، فلربما قتله -  
مثل خاله المسيح - في الثالثة والثلاثين.

### لبنان الواحد، لبنان الأمل

انتصت إلى هتافات «الحرية» في ساحة الحرية، فلا يبقى في اندي غير الضوضاء وصايل  
التوغات وأصداء الكراهية.

الكل يتحدث عن لبنان السيد، الحرّ، المستقلّ، الموحد: لبنان الأمل.

في بلاد يُمكن مباراة زجل أن تهدد سلامها الأهلي، من أين سيجاء بهذا لبنان المعجز؟  
وكيف سيثق على صناعاته؟

تحت راية من سيتوحد لبنان؟

اتحت راية «البيك» التقمّي الاشتراكي؟ (بالله عليك، يا عسي كارل ماركس، أعرب لنا هذه  
الأحجية: «البيك الاشتراكي»!)

أم تحت راية لبنان «الديموقراطي» الذي يمشر به جزارو الأمس المتكبرون خلف اعلامهم،  
والمثقة أعناقهم بدماء آلاف القتلى من أشقاء البيت الواحد؟

أم لبنان «الحضارة» الذي يتنادى إلى بعثه أباطرة الملبشيات والحوارج الطيارة والنبح  
على الهوية

الجميع يدعي صلة الرُّحم الجميع يُطلب حق إضافة الدم إلى رصيدها  
ولم لا فالدم، مثله مثل المال، رصيد قابل للاستثمار  
الم أقل لك؟  
للسياسة فن المتاجرة بالعلم

### الدخول/الخروج (الغزو/الجماع)

لعل أحداً سيلمّع (لنقضي الأمر) إلى أن كانت هذه اليوميات سقط أخيراً في مصيدة  
النظام السوري

لهؤلاء أقول تنكروا حين دخل الجيش السوري إلى لبنان – مستنجداً به من اللبنانيين  
أنفسهم الذين يتبارزون الآن في شتميته – كنّا نحن مثقفي سوريا وكثابها، من أوائل  
المعارضين لذلك «الدخول» الذي نُلغع جميعاً شمه الآن.. ومضاعفاً (نُلغع الكرامة بعد أن  
نُلغع الدم). ولعل أصدقائنا، هناك تحت قطعة السماء، يتذكرون البيان الذي أصدرناه مؤمناً  
باسماننا الصريحة، أيام كان التنسُّس وحده – لا القول والفعل – كافياً لإنزال العقوبة،  
مطالين فيه بعدم التورّط في ما يروؤ لي الآن أن أسميه «مستنقع» لبنان الأبى الموحّد  
الحضاري. ولعلهم يتذكرون (أمّا نحن فنسينا) أن بعضاً ممن وقّعوا سندوا ضريبة ذلك  
البيان – الموقف – من لفظة حياتهم ولفظة أمنهم ولفظة كرامتهم الإنسانية.

أما وإنّ ما حصل قد حصل (ويا لأفداحة ما ترتّب عليه)، فلن من حقنا نحن أيضاً، الآن، أن  
نطالب مقاماً يطالبون – بمعرفة الحقيقة. لكم – هناك – حقيقةً التي تُعشرون مطالبين  
بكشف أسرارها وبخفاياها، ولنا أيضاً – هنا – حقيقةً الأخرى التي نطالب بكشفها وتبرير  
دواعيها (لا يُذكرنا أحد بعدُ بقداسة التراب الموحّد!).

نريد أن يجيبنا أحد، لماذا يُخرّج جيشنا الآن بهذه الصورة للجمعة؟

هل كانت إهانة المواطنين المستضعفين (وبعضهم أصدقاء، نعرفهم) جزءاً من مهمتنا في لبنان؟

هل كان الابتزاز، بشئى صورته، جزءاً من هذه المهمة؟

هل التناول على البشر كان جزءاً من المهمة؟

هل الإساءة إلى صورة الجندي – حارس الحياة والكرامة والأمن – كانت جزءاً من المهمة؟

هل كان العبث بالموازين – لمصلحة هذا أو ذاك، وبضد مصلحة هذا أو ذاك – جزءاً من المهمة؟  
هل كانت التجاوزات والانتهاكات وال«مخزّات» كما يستيها اللبنانيون، التي تحوّل سبباً  
تُذف في وجه كل مواطن سوري يزيّر لبنان ويتمشّى في شوارعهم ويروح عن نفسه في  
كازينوهات ومقاهيه... جزءاً من تلك المهمة؟

هل.. وهل.. وهل...؟ وفي الغم ماءٌ كثير وحصى كثير.

نعم نحن أيضاً، هنا، نرغب في معرفة الحقيقة: حقيقة الأسباب الغامضة – الصريحة –  
التي جعلت كلمة «سوري» هناك تعادل الشتمية حقيقة الإهانات كلها، والتجاوزات كلها،  
والاستهزاءات كلها، والإيذاءات كلها، وإساءات التقدير كلها، والأخطاء – بل الخطايا العينة  
– كلها وكلها وكلها..

ثمّة جرح، جرح كرامة عميق ومزمن، ونريد لهذا الجرح أن يلتئم.

الحقيقة؟

نعم. بل وأكثر: للحاسبة، وبغ عن آلام الضمير وتصنّعات العقل والقلب.

أمّ لبنان قداسة «النظرة» حفيد  
المسيح المظوم على الحبة، الذي  
تستطيع فتوى صغيرة منه أن تُقيم  
قيامة الوطن وركاب سفينته؟

أمّ لبنان الطوائف والعصبيات،  
والأصنام المحنطين، ومحتكري غنائم  
السياسة بنعمة التوريث العائلي؟

(هم يستهجنون التوريث السوري؟)

أمّ هو لبنان الكرامية.. كرامية  
السوري؟

نعم، على هذا متفقون. لكنّ الكرامية  
وحدها – لسوريا أو سواها – لا  
تكني لصناعة دولة وتأسيس مستقبل  
وبناء حياة.

أمّ لعلّه فقط «لبنان» يا قطعة سما..  
فيما الجميع – وهم يتفكرون بالسماء  
– يُحتقرون الأرض وما عليها وما  
تحتها؟

مع ذلك: «لبنان» يا قطعة سما..

لكنّ سماوات الله واسعة وكثيرة وزرقاء  
كلها. ولكل حصّة الكافية من السماء  
لإطلاق الأناشيد والأعلام والرماس

♦ ♦ ♦

: «المستقبل مفتوح للجميع، والوطن  
بيت الجميع.../الجميع الذين هم:  
«نحن».

لعلّ ذلك ما يعنيه فقيه السياسة الذي  
يشغى بحق الجميع على شاشنة  
التلفزيون؟

ثمّة من يسأل: حتى لو عاد إيليسيس  
العظيم إلى الحياة، كيف يمكن قسمّة  
«الجميع» على اثنين؟

مع ذلك: إنه الأمل..

♦ ♦ ♦

شهراً.. وأكثر. وبم رفيق الحريري  
يُصعد ويصعد في يورصة مقاولي  
السياسة وصيادي الفجائع!

تعالوا! إذا - نقول لأولياء أمورنا في هذا البيت - لنحاول معاً تضميد جرح الكرامة هذا ويؤثروا إن أي زعيم وطني يساعدها على تضميد هذا الجرح الخبيث - بالمصارحة الحقيقية والتكاشف المخلص - سيفوزون الآن وغداً، بنسبة ٩٩/ من أصوات الناس وقلوبهم.



- ما أتمنى شي رفيع بلادكم أيها المواطنين؟  
- التراب الذي يُلغِصه الغرباء، والكرامة التي يلتمها رعاة البيت.  
- وبما؟ الناس؟  
- أمّا هذه فلا أتفقنا منها الكثيرين.. فما عادت تُقيّد إلا في إحصاء الهراتم، وتلطف مذاق القدم، وعمليات تجميل الأخطاء



عَلَمٌ «ناديا» لا يزال مركوباً في زاوية الصالة خَفَّتْ حماسة الاستعراض، والوضوح؛ تبحّرت.  
ملفوفٌ - عَلَمُها - ويعدّ عن الأنظار، كي لا تتأذى مشاعر جارتها «الليمانية الأصل» التي انكسرت هي الأرضي، منذ أكثر من شهر، حابسةً نَفْسَها خلف باب بيتها المقابل تماماً لباب جارتها «السورية»؛ أولاً، لتحمّاشي إنساناً يرميها برؤية وجوه الأعداء، وأولاً أيضاً؛ لتستمتّع، حتى آخر قطرة من الوقت، بجمال أعلام بلادها التي تملأ ونُصُوءَ جميع الشاشات. الصورة جليّة وموجعة:

ما كنّا نسمّيه شعباً واحداً في بلدين. تحولَ فجأة شعبين في عمارة واحدة. : مرحى لجميعكم.

ما كنّا نسمّيه شعباً واحداً في بلدين... تحولَ فجأة شعبين في عمارة واحدة!

جرحٌ غير قابلٍ للانتقام؟

بلى يتألّمه الكثير من الوقت، الكثير من الصداقة، الكثير من شجاعة الوجدان، والكثير من الأمل/لا فالأمل ممنوع.



على أننا متشابه في كثير ويتفق على كثير . املمتوا يا جميعكم. جبران تويني الديموقراطي يتحدث، من هناك، عن الغنم وعبقريّ محسركنا الفذّ عماد فوزي الشعبي، عميد الإنشاء الرث، يصدح - من هنا - مستهجيناً الحالة «القطيعية» لدى الآخرين نعم، هكذا نُخْرِج من مهرجان اللغو متعابدين بنقاط العار. صفرٌ في مادة الإنشاء. صفرٌ في مادة آداب التخاطب صفرٌ في موادّ الجغرافية والتاريخ وعلوم تطوّر المخلوقات. وصفرٌ كبيرٌ في الأمل مرحى لجميعكم.



هل قلتُ: «الأمل ممنوع»؟ بلى. ولكنني، إذ أستمع لأصوات ووجوه كثيرين من أصدقائنا - هناك - أستعيد بعضاً، أو كثيراً، من الثقة المفقودة بضمير الإنسان. على أصوات كهذه، وعلى أصوات أخرى كثيرة، مِرْآة من فيروصات الكراهية والجشع والكسل الروحي، يُمكن الإيمان ببعض الأمل.



غداً، نقول ناديا، سنقرع باب جارتها اللبنانية. غداً، ربّما، ينتهي جداد طالبي الثأر. غداً، ربّما، ينتهي عرس المتاجرين بالعار. وغداً، ربّما، تنتصر «صباح الخير» على شهوة السكين.

دمشق

نزيه أبو غش

شاعر سوري. آخر إصداراته. إنجيل الأعمى (دار الآداب)

# عجز الطائفية وملحقاتها، ودور القوى الوطنية والديموقراطية

□ سعد الله مززعاني

الحقيقة؟  
THE TRUTH?

ويشكل من الأشكال، كان هذا الفريق يعتد أن خسارة مباشرة أو غير مباشرة ما ستصيبه من تداعيات ذلك. وهكذا فإن ما هو في العادة والطبيعة انتصاراً وطنياً يصبح، في ظروف لبنان الخاصة، انتصاراً لفئة على فئة، في «صيفة لبنان» الفريدة للحكم، والتعايش، والعلاقات بين اللبنانيين، وبينهم وبين الخارج.

وفي الحاليتين المذكورتين، أي انعكاس الانتصار المذكور على دور القوة الداخلية الأساسية المساهمة في صنعه، وكذلك انعكاسه غير الطبيعي على فريق من اللبنانيين تعامل مع جندر ويطلق خلافاً لما هو معتاد: في كلتا الحاليتين، بدت «فرادة» الصيفة اللبنانية، وكذلك غرابتها وأمراضها على حد سواء!

♦ ♦ ♦

وعلى جبهة أخرى من جبهات الصراع، هي تحديد الجبهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية، وفي أواسط التسعينيات بشكل خاص، اهتم نزاع سياسي - اجتماعي - نقابي كبير. وقد كان موضوع النزاع هو السياسات العامة للدولة، وخصوصاً في المجال الاقتصادي - الاجتماعي، وانعكاساتها الخطيرة على أوضاع أوسع الفئات الاجتماعية، الشعبية والمتوسطة (والشباب خصوصاً)، إضافة إلى بعض الفئات العليا من البورجوازية الوطنية. وكانت كلمة «المشروع الإعماري» هي موضوع الشكوى، وارتفاع المديونية، وتدهور الأجر، وغلاء المعيشة... وما اقترن بذلك من النهب والاستمالة والمحاصصة والفساد والرشوة وتجاوز القوانين وتسخير القضاء... علاوة على أساليب الحصار والاستنزاف واستنزاف التقاسم الطائفي والفني لموارد الدولة وللإعلام بين أركان النظام... والمنع والقمع واستخدام الجيش والأجهزة ضد التحرك الشعبي والنقابي.

عاشت البلاد، نتيجة لهذا الصراع، مرحلة توتر شديد واستخدمت السلطة القمع، وصعد إلى إطلاق النار على المتظاهرين (في صيدا خصوصاً)، جرى توقيف للمئات وأُحيلوا إلى المحاكمة ولجأت السلطة إلى منع التجول وإعلان ما يشبه حالة الطوارئ. ومع ذلك ظلت قوى تقليدية، معارضة وقائمة، حذرة حيال المشاركة في هذا التحرك السياسي - الشعبي - النقابي، رغم أنه موجّه للاعتراض على سياسة خصوصاً ذلك أنها، إلى التزامها موقفاً طبقياً حذراً، قد رفضت أن يجرها أحد إلى خارج حلبتها المفصلة في النزاعات التي يتدخل فيها المحلي بالخارجي، والطائفي بالسياسي وكان الطرف، في نظرها، غير ناضج لكي تتخربط هي، على طريقها، في معركة لم تسلم بخسارتها النهائية لها، بانتظار تحرك الشروط والموازنين ومرة جديدة، أيضاً، بدا العامل الطائفي أقوى، في «تحديد»ه للعامل

قبل أقل من خمس سنوات كاد لبنان والعالم العربي، وحتى العالم، يضحّ بخبر الانسحاب الإسرائيلي من لبنان. حدث ذلك بقرار من حكومة إيهود باراك آنذاك، وبشكل سريع لم يعبأ لا بالطابع المؤلّ للانسحاب، ولا بالتخلي «العيب» عن العملاء، ولا بحجم الانتصار الذي حققه نظاماً لبنان وسوريا عمومًا والمقاومة الإسلامية خصوصاً

وكان بإمكان انتصار مدوّ بهذا الحجم أن يترك أعظم المفاعيل على الحياة السياسية اللبنانية الداخلية إلا أن تأثيره كان، بالعكس، شديد التواضع. وقد تمّ اختيار ذلك، سريعاً، في الانتخابات النيابية التي جرت بعد ذلك الانتصار بثلاثة أشهر (أيلول عام ٢٠٠٠). حينها لم يمتكّن حزب الله، الذي هو الصانع الأساسي المحلي لهذا الانتصار، سوى في كسب بضعة مقاعد إضافية في المجلس النيابي، من دون أن يؤثر ذلك، بشكل جديّ بالتركيد، في حجم تأثيره السياسي أو حتى الإداري والخدمي، في التوازنات الداخلية اللبنانية

وفي مشاهد ونكبات تلك الأيام أن جزءاً كبيراً من اللبنانيين كان ينظر بحذر وقلق إلى مجريات ونتاج ذلك الانتصار الوطني والقومي الفريد.

الاجتماعي. رغم تضرر فئات واسعة جداً التزمّت حول الصمت. أو اكتفت بالتعاطف السلمي. لتُبرز مرة جديدة خطورة الصيغة اللبنانية، وخطورة امراضها على حد سواء.



والواقع أنّه كان ينبغي انتظار عقر من الزمن لحصول بعض التحولات في طريقة الإدارة السورية للوضع اللبناني، ابتداءً من دعم وصول المعاد إميل لحود إلى سدة الرئاسة في لبنان، لكي يطرا تحولٌ أساسيٌّ على لوحة الاصطفافات في المشهد السياسي - الطائفي اللبناني موقد تجلّى هذا الأمرُ سريعاً، وفرد به المشاورات لتشكيل حكومة العهد الأولى، حيث اندلع نزاعٌ سرّويٌّ على الشكليات والصلاحيات والمصص والواقع. وشكّل ذلك إيذاناً مبكراً بمعركة كبيرة ستبُلّغ أوجها، لاحقاً، في الانتخابات النيابية (عام ٢٠٠٠)» (راجع تقرير المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي اللبناني، كانون الأول ٢٠٠٢).

وكان الطرف الأساسي في هذا الصراع معظم حلفاء الامس في عهد الرئيس إلياس الهراوي. وقد ضُمرت قاعدة الحكم نتيجة لذلك، واستمرت على هذا المنوال، إلى أن بلغت الذروة في الحلف الذي جُمع مؤخراً أطرافه، لقاءً البريستول، وخصوصاً بعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري في ١٤ شباط ٢٠٠٥.

ولم تغر من هذه الحقيقة بعضُ التبدلات الزتدية - في هذا الاتجاه أو نقيضه - لرئيس الحزب التقدمي الاشتراكي: إذ ظلّ الثابت هو تحالفه مع الرئيس الراحل رفيق الحريري أما علاقته بالرئيس إميل لحود فقد كانت مرحلية. ثم انقطعت نهائياً قبيل

ما حاولته إسرائيل وأميركا منذ الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠ هو نفسه ما يطالب به معارصو البريستول. ومن ضمنهم حلفاء سايغون لسوريا

التمتع لحدود في ايلول الماضي، ليصبح رأس حربة في التحالف الملن أو الضمني الذي جُمع ثلاثي «قوة شوهان» (برعاية البطريرك الماروني نصرالله صفيير) وه اللقاء الديمقراطي، برئاسة وليد جنبلاط نفسه وكثرة قرار بيروت برئاسة المرحوم رفيق الحريري.

اتى تبلور هذا التحالف الملن أو الضمني، إلى حدوث خلل متحاصر في التوازنات الداخلية السياسية - الطائفية، لغت مصلحة السلطة اللبنانية ولن تمكث السلطة اللحدية، وراعيها السلطة السورية، من تدارك ذلك موقفاً، عبر اللجوء إلى العامل الأمني ودور الأجهزة، إلا أنّ ذلك أصبح اصعب بكثير بعد التقاطع الأميركي - الفرنسي وصندوق القرار ١٥٥٩، بتزامن استفاد شكلياً من جملة اخطاء كبيرة وفادحة سورية ولبنانية، من بينها التمديد القسري للرئيس لحود ثلاث سنوات إضافية

وفي هذا المسار المستمر منذ حوالي ست سنوات، تباعدت قوى كانت مجتمعة، وتقاربت أخرى كانت متباعدة وجرى تبادلٌ للدوار وتغييرٌ للمواقف، ولكن ضمن جبهة الصراع التقليدي الذي عرفه لبنان، خصوصاً منذ الاستقلال، ودائماً بالتحالف مع «خارج ما عربي» أو إقليمي (الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢)، أو دولي (كما هو الامر الآن بالنسبة إلى الدور الأميركي الناشط لترتيب أمور المنطقة عموماً وفقاً للمصالح الأميركية - الإسرائيلية)

إن تحول الوضعين الداخلي والدولي لمصلحة قوى المعارضة التقليدية هو ما يُبجّع التطورات اللائحة والملاحقة منذ التمديد للرئيس إميل لحود في أوائل شهر ايلول لعام ٢٠٠٤، وحتى هذه اللحظة وفي مجرى هذه العملية المتراكمة عناصرها، كما أشرنا، منذ ست سنوات حتى الآن، تداخلت وتوحدت لشعارات أيضاً، في الجهر، بالنسبة إلى القوى التي جُمعت مؤخراً في لقاء البريستول، وبالنسبة إلى واشنطن، على الأقل بشأن مسألتين أساسيتين: الأولى، إحداث تبديل جوهري في السلطة اللبنانية لمصلحة قوى المعارضة، وتحت شعار «استعادة السيادة والاستقلال» والثانية إحداث تغيير جوهري في موقع لبنان في الصراع العربي - الإسرائيلي ويتداعى عن ذلك، بالضرورة، إلغاء دور «حزب الله» كحزب مقاوم ذي وظيفة محلية وإقليمية: ونزع سلاح المخيمات الفلسطينية، ضمن مشروع لتوطين قسم منهم في لبنان، وتهجير القسم الآخر إلى حيث وجَد المعنويون إلى ذلك سبيلاً

وهكذا أصبح ما حاولته إسرائيل ومعها الولايات المتحدة الأميركية وأجهزة الأمم المتحدة - من استخدام الانسحاب الإسرائيلي لعام ٢٠٠٠ من لبنان لإخراج لبنان من معادلة الصراع العربي - الإسرائيلي، وفقاً تحالفه مع سوريا، وتكتيك المقاومة المسلحة وإنهاء الدور العسكري لقوتها الأساسية (حزب الله) - هو نفسه ما يطالب به معارصو البريستول، ومن ضمنهم حلفاء سايغون لسوريا تعاونوا معها، ويشكّل ثابتاً لم يتركّب القدر ونصف العقر من الزمن وفي للشهد اللبناني الراهن، يزداد دور القوى «الأصيلة» على حساب القوى الطارئة في محرفة الاعتراض والخلاف مع سوريا وطفانها في لبنان. وفي المشهد نفسه، يزداد الدور الأميركي في الشعارات والتوجّه، بل وفي الإدارة المباشرة أيضاً، على غرار ما يمارسه نائب مساعد وزيرة الخارجية لشؤون الشرق الأوسط السيد دايفيد ساترفيلد.

وفي هذا السياق المتصاعد، خصوصاً منذ اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، تتّسع أكثر فلتكر معالم مشروع التغيير في لبنان وتغيير لبنان. ويُشرف الرئيس الأميركي بشكل يومي على هذه العملية ذات الأهمية الاستثنائية بالنسبة إلى الولايات المتحدة وشركائها في المنطقة عموماً، ولتدارك غرات غزوها للعراق بشكل خاص. ولقد رتّع الرئيس الأميركي متابة ومساهمة



إدارته النشيطة، في الشأن اللبناني، إلى مستوى الرسالة السياسية والأخلاقية الشاملة في المنطقة. يجب أن يكون واضحاً أن عقوداً من تبرير الطغيان والتقمص معه، باسم الاستقرار، قد أدت فقط إلى اضطرابات والمخس. ويجب أن يكون واضحاً أن تقدم الديمقراطية يؤدي إلى السلام، لأن الحكومات التي تحترم حقوق شعوبها تحترم أيضاً حقوق جيرانها... هذا ما قاله الرئيس بوش في إحدى خطبه الأخيرة: وقد نسي، كالعادة، ما يتعلق بإسرائيل: كما سنبينها وهو يصير على تطبيق القرار ١٥٥٩ الصادر منذ أقل من شهر، فيما القرار ٢٤٢ الذي يطلب إلى إسرائيل الانسحاب الفوري أيضاً قد صدر عام ١٩٦٧، أي قبل حوالي ٣٨ سنة!



ومع ذلك، هل سيحصل التغييرُ بشعارات «الحرية والسيادة والاستقلال» كما تريد معارضة «البريستول» وباستهدافات السيطرة على موقع وعلاقات لبنان كما تريد واشنطن؟

إذا كنّا في معركتي التحرير من إسرائيل، والاحتجاج على السياسات الاقتصادية والاجتماعية والإحصائية، قد لاحظنا عجزاً عن إحداث تغيير جوهري في الوضع اللبناني والسياسات اللبنانية، بسبب الافتقار إلى عناصر القدرة على اختراق التوازنات اللبنانية التقليدية في تدخلها مع العوامل الخارجية، فإنّه لهذا السبب أيضاً يُمْكِن اليوم، وبشكل مبدئي، توجُّع العكس.

ولكن قبل الإجابة على ذلك التساؤل (وفي حدود الاحتمالات على الأقل، دون إلغاء ما نكرتُنا من أرجحية التغيير لمصلحة الولايات المتحدة وحلفائها من القوى اللبنانية في لقاء

البريستول)، لا بدّ من ملاحظة عدد من الأمور. مِنْ بينها أن القوى المطالبة بـ «الحرية والسيادة والاستقلال» موزعة، أساساً، بين فريقين.

– فريق كان، إلى الأمل القريب، ركناً ثانياً من أركان السياسة السورية في لبنان غائباً، بشكل خاص، فريق الرئيس الراحل رفيق الحريري، وفريق الأستاذ وليد جنبلاط، إضافةً إلى بقايا فريق الرئيس السابق إلياس الهراوي، وشخصيات أخرى يتزايد عددها يوماً بعد يوم مع تدهور النفوذ السوري في لبنان نتيجة للضغوط الخارجية والداخلية.

– فريق تقليدي تنصّر من «سوية الطائف» لعام ١٩٨٩ بسبب فقدّه جزءاً أساسياً من امتيازاته كان يمارسها في صيغة ١٩٤٢، وهو من ذكرناه في مطلع النص، حين أشرنا إلى حفره وحلقه من معركة تحرير الجنوب عام ٢٠٠٠ ضدّ العدو الإسرائيلي.

والمفارقة أن الطرفين الأساسيين المذكورين أنفأ، وقد توجهّا على شعارات «السيادة والاستقلال والحرية»، قد شاركا أيضاً في تثبيت الوجود السوري في لبنان، أو في استعدائه، ومنذ العام ١٩٧٦ (دون إسقاط فقرات الصراع والتوتر)!

ومع ذلك، يجب عدم إهمال أهمية التغيير في لبنان فالتغيير حاجة داخلية ضرورية ومشروعة: تغيير يشمل العلاقات اللبنانية – السورية أساساً، كما يشمل أداء السلطة رزمها، على أقلّ تعميل.

بالنسبة إلى العلاقات اللبنانية – السورية، فإنّ ما تراكّم من سلبيات شملت معظم الميادين (باستثناء مسألة التحرير وبعض الإيجابيات التي يتصاقل أثرها إزاء تعاملات السلبيات) قد جفّ مطلبٌ خرج الدور السوري من لبنان، السياسي والعسكري والأمني، مطلباً شبة شامل ولم يُعمل «اصنقاء» سوريا في السلطة، وكذلك الممارسات المنسوبة إلى الأجهزة السورية، سوى مقاومة هذا المطلب.

وفي كلّ حال، فإنّ أمر الخروج السوري وتنظيمه، بما يتّوجّ عملية استعادة لبنان عافيته وسلطة القرار في شؤون كفاة، إنّما كان بنداً أساسياً بين البنود المحورية في «اتفاق الطائف». لكن الواقع أنّه يجري استغلال هذا المطلب الحقّ بغية إضعاف العوامل الإيجابية في العلاقات اللبنانية – السورية (وفي الدور السوري حتى في سوريا، والذي يمتدّ الاستهداف إليه الآن من قبل واشنطن، وبشكل صريح).

وتجانب هنا وجهات نظر القوى الوطنية اللبنانية، قوى التغيير الديمقراطي، عن قوى المعارضة الطائفية في أمرين أساسيين.

– أوّلها في تنكّر قوى المعارضة الطائفية للجانب الإصلاحي في «اتفاق الطائف» الذي يجري – شكلياً فقط – الاعتراف بضرورة تطبيقه.

– ثانيها، التحالف الاتحادي من قبل المعارضة الطائفية بالخطة الأميركية الضاغطة لتطبيق كامل القرار ١٥٥٩ الصادر عن مجلس الأمن في مطلع أيلول الماضي، وبما يؤدّي تدريجياً، ولكن سرياً، إلى تآزيم العلاقات اللبنانية – اللبنانية، واللبنانية – السورية، واللبنانية – الفلسطينية. إنّ نقل لبنان من موقع الاعتراض على الخطة الأميركية (ولر شكل محدود)، ومن موقع التعاون مع سوريا ضدّ العدو الإسرائيلي، هو إحدى ثمرات انتصار تحالف المعارضة الطائفية مع المشروع الأميركي في المنطقة.

أما المفارقة الإضافية في كلّ ذلك فهي في مبادرة عدد من الشخصيات والتيارات الصغيرة، ذات الماضي اليساري، إلى الاتحاد بالقوى التقليدية – الطائفية، بكل شعاراتها وتحالفاتها الداخلية والخارجية. وفروعها في ذلك هي خوض معركة «الاستقلال» ضدّ «المحتل» السوري، والوسائل لا تهمل... بل يذهب البعض إلى حدود التفتيش للموقف «التقني» الأميركي الذي «نجدد» موضوعاً، القوى الديمقراطية، في سعيه إلى نشر «الديمقراطية» في «الشرق الأوسط الكبير»، على غرار ما أعلن بوش في نصّه المذكور أنفأ وفي نصوص

ومواقف أخرى. أما سَتُّ العراق فيبقى منه، فقط الإعجابُ بمشاركة ٨ ملايين عراقي في معركة الانتفاضات. ولا يرى الديموقراطيون الجدد في هذه المشاركة أدنى أهمية لتصميم الشعب العراقي على خوض المعركة ضد المحتل بكل الوسائل، بما في ذلك التبنيَّة والاقتراع!

بكلام آخر، لقد هددت قوى الاعتراض الطائفي معركة التغيير، الملحة والضرورية، مستفيدة من الأخطاء الهائلة للإدارة السورية في لبنان والمسلطة التابعة لها من جهة، ومن نَهْش المبادرة لدى قوى التغيير الديموقراطي من جهة أخرى وسيقتصر التغيير الداخلي، فعلياً، على تبديل توازنات السلطة لصالح تحالف طائفي على حساب تحالف سلطوي قائم، فيما التغيير الأخطر هو ذلك الذي سيطاول موقع لبنان في لوحة الصراع، من أجل نقله من صفة إلى صفة أخرى، على ما كرر الاستاذ جوزيف سماحة في مقالته كاشفة ومحدرة في جريدة السفير اللبنانية

وهكذا فقد وَجَّدت القوى الوطنية الديموقراطية نفسها في موقع ثالث، مختلف عن الموقعين المتصارعين في السلطة وفي المعارضة التقليدية الطائفية. وهي قد حَزَّتْ من خسارة الإحسان السوري - السلطوي اللبناني في إدارة الظهور للاتفاقيات والتغيير الجزئي المطلوب، خصوصاً بعد التحرير عام ٢٠٠٠. وهي، كذلك، تُعَلُّ من أجل أن يكون الانسحاب السوري شاملاً ومُخاضاً عليه (وهنا تقع مسئولية كبرى على السلطتين السورية واللبنانية في عدم حدوث ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى عملية الانتقال والتحول بشكل سليم وديموقراطي.

كذلك فإنَّ القوى الوطنية والديموقراطية تُرْثِضُ جنوح المعارضة الطائفية، ومُخْلِقِها

القوى الديموقراطية حَزَّتْ من إدارة الظهور للاتفاقيات بين البلدين، ولكنها رفضت أيضاً جنوح المعارضة - ومُخلِقِها - اليساري نحو الارتقاء في احضان الوصاية الأميركية

«اليساري»، نحو الارتقاء في احضان الوصاية الأميركية، بكل ما يعنيه ذلك من تمكين المشروع الأميركي - الإسرائيلي من التعميد ومن اكتساب مواقع جديدة سيستخدمها، حُكْماً، من أجل توسُّع جديد

إنَّ فصل العامل الداخلي عن العامل الخارجي هو الحِطُّ للتعمُّد الذي تقع فيه المعارضة التقليدية وفصل «القومي» عن «الوطني»، وبشكل انتقائي(١)، هو الخطأ الذي أمنتَه القوى القومية!



في موازين قوى نُكْرَتْما انْفَاحاً راجحيتها وتغافلها في عاملها الداخلي (المعارضة التقليدية - الطائفية)، والخارجي (الدور الأميركي خصوصاً)، ليس من التوقُّع إطلاقاً أن تُصنِّد المعاداة التي حَكَّتْ الوصغ اللبناني في العقد ونصف العقد المنصرمين ومع ذلك، فإنَّ التعديل المتوقع سيكون بسيطاً: ومن موقعنا، نؤكِّد أنه سيكون تافهاً، لأنه لن يطاول سوى التوازن يُثَبِّثُ على النظام الطائفي - السياسي نفسه؛ وهذا هو الشكل الجديد - القديم من التعبير عن عجائب الصيغة اللبنانية وأمراضها!

ولأنَّ النظام السياسي اللبناني سيبقي هو إيَّاه، فليس من أمل في المحافظة على سيادة، ما إنَّ تستقرَّ في سوريا حتى تُلقفها على يد الوصي - المحتلِّ الأميركي!

ليس هذا فحسب، بل إنَّ السيادة كانت موضع انتقاص من الدويلات والإمارات الطائفية التي تشكِّلُ عنصراً مكملاً للنظام اللبناني؛ وهي بذلك تشكِّلُ العامل الأول للانتقاص الداخلي من السيادة، ومن ثمَّ للاعتداء، على هذه السيادة بفعل العامل الخارجي، عندما يستدعي الصراع والنزاع الطائفيان استدراج التدخل الخارجي لتعديل التوازن الطائفي أو لتهيئته.



هل تُكَلِّمُ القوى الوطنية الديموقراطية شيئاً حيال هذا الواقع الذي في تكراره، كملهاة عينية، يهدِّد دائماً، أو هو يتحوَّلُ غالباً، إلى مُسْأَفَةٍ بامحة التكاليف، وطنياً وقومياً؟

ربما تستطيع القوى الوطنية ذلك إذا هي بادرت، وإذا هي توخَّدت وبنيغي أن يكون التوجُّهُ باعتماد بديل ديموقراطي للنظام الطائفي اللبناني، واعتماد مشروع مواجهة لخطة السيطرة الأميركية - الصهيونية على لبنان. إنَّ مِنْ شأن ذلك، ووسائل وأدوات مناسبة، استنهاض العوامل الإيجابية والسلمية في الوضع اللبناني، وخصوصاً عامل المقاومة، الذي ارتدَّى صفةً وطنية في مرحلة، وصفةً إسلاميةً في مرحلة لاحقة. هذا إلى عوامل زيادة أخرى في مجال الإبداع السياسي والاجتماعي والفكري...

وهنا يُكَيِّنُ، بل يُثَبِّنُ، الجواب على سؤال طرحناه: إنَّ انتصار القوى التقليدية - الطائفية قد يصبح موقعاً، بل قد يصبح صعباً وحتى متعزَّزاً، إذا أخذت القوى الوطنية الديموقراطية، حالاً، زمام الفعل والمبادرة والمواجهة.

بيروت

سعدالله مززعاني

نائب الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني

## قراءة في متغيرات العلاقة السورية - اللبنانية: ضباب الإيديولوجيا وحسابات المصالح

□ عماد هرملاتي

صهوه الشعارات الإيديولوجية الكبيرة، ولتبعد باستمرار عن التطرق إلى وضوح المصالح التي حَمَلَت النظام السوري على اتخاذ قرار الدخول إلى لبنان وبرزت الأثمان الباهظة التي دفعها إلى البقاء فيه طوال العقود الثلاثة الماضية

فمنذ البداية بُزّ النظام السوري قرار إرسال قواته إلى لبنان بطروحات لم تكن تشير إلى ما هو أقل من التصدي لمؤامرات صهيونية وإمبريالية تُهْدَف إلى تزييق وحدة لبنان وتحويله إلى كانتونات طائفية تستغل بالحماية الإسرائيلية وتسفك مخططات إسرائيل ليست سيطرتها على المنطقة وفي مقابل ذلك عُدَّ معارضة الدخول السوري إلى لبنان، ومن بينهم بعض قوى المعارضة السورية ومعظم فصائل المقاومة الفلسطينية وعدَّ كِبَرٌ من قوى حركة اليسار العربي، إلى تأسيس خطابهم على طروحات لم تُنَلَّ - بمرورها - إلى ما دون مستوى الحديث عن مشاركة النظام السوري في مخطط أميركي يُهْدَف إلى ضرب حركة المقاومة الفلسطينية وإجهاض المشروع القومي التحرري الذي كانت تقويه الحركة الوطنية اللبنانية بالتحالف مع تلك الحركة وفي حالات الاستطراد كان يُشار إلى محاولة القضاء على نموذج الحالة الديمقراطية التي كان يمثلها لبنان عبر نظامه القائم على مركزي الليبرالية السياسية والحرية الإعلامية.

ولا شك في أنَّ التطورات اللاحقة التي شهدتها المنطقة أعطت النظام السوري فرصاً متتالية من أجل تعويم طروحاته. فقد وَجَّهَتْ تلك الطروحات سداً قوياً لها بعد توقيع اتفاقات كامب ديفيد بين النظام المصري وإسرائيل، ثم بعد الغزو الإسرائيلي للبنان وإشراق سورية على رعاية نشاطات حركة المقاومة الوطنية في البداية ثم فيما بعد المقاومة التي قادها حزب الله ضد الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان وإمام وهج النجاعات التي حققها النظام السوري في التصدي لمحاولات تعميم اتفاقات كامب ديفيد على الصعيد العربي خلال المرحلة الأولى التي أعقبت توقيع الاتفاقات (وقبل زوال الغزو الإسرائيلي للبنان)، ثم أمام وهج الانتصارات التي حققتها المقاومة اللبنانية بمساعدة سورية ضد الاحتلال الإسرائيلي وانتهت بتحرير جنوب لبنان دون تمكين إسرائيل من استدراج الحكم اللبناني إلى توقيع اتفاق سلام معها (وخصوصاً بعد نجاح حلفاء سورية في إسقاط مشروع اتفاق ١٧ أيار)، بدا كما لو أنَّ الاتهامات التي رفعتها بعض قوى اليسار السوري والعربي ضد الوجود العسكري السوري في لبنان لم تُعدَّ تجد الغطاء الإيديولوجي الذي يُمكن أن يسوّقها وهكذا كاد موضوع الوجود السوري في لبنان أن يتحول مع مرور الوقت إلى عنوان لواقع معيش لكنه منسي في ذاكرة الشارع العربي. وإذا كانت بعض القوى اللبنانية قد حاولت بين فترة وأخرى أن تعبر عن توتر قطاع لبناني واسع من استمرار الوجود العسكري السوري في

وراء مدارات الجدل المصاحب الذي يجتدم اليوم بين سورية ومؤيديها من جهة ومعارضيه داخل الساحة اللبنانية (وعلى المستوى الدولي) من جهة ثانية، حول حدود مسؤولية دمشق (التي يمكن نفيها بسهولة حسب ممثلين من وزن الدكتور سليم الحص والباحث عزمي بشارة) والكاظم باتريك سيول وغيرهم كثر) عن جريمة اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، شكَّكت جريمة الاغتيال نفسها وما تُبْعَث من تداعيات محلية وإقليمية ودولية حدثاً ضاعفاً فُرض فتح ملف الوجود العسكري السوري في لبنان بشكل لم يُستَقْ له مثيل

### جدل إيديولوجي

اثارت قضية الوجود السوري في لبنان منذ بداياتها الأولى التي تُرجع إلى عام ١٩٧٦ جدلاً متواصلًا بين قوى لبنانية وسورية وعربية وحتى إقليمية ودولية وَجَّهَتْ نفسها بين فترة وأخرى في موقع تقاطع أو تعارض مع الدور الذي انتدبت سورية نفسها للقيام به في لبنان. ولعلَّ للملاحظة النافذة التي تثير الاهتمام في هذا المجال هي أنَّ الجدل المذكور عُدَّ طوال الفترة الماضية إلى امتطاء

تفاصيل الحياة اللبنانية، فقد كان البروق العربي (الحكومي والمعارض) في التعامل مع تلك التشكيكات يقدّم دليلاً آخر على حقيقة تغلب ضباييات الإيديولوجيا وتضمينها على معطيات الواقع الحيّ والامية المعيشة في الفكر السياسي العربي

#### مقاربة سياسية

بالانتقال من فضاء الإيديولوجيا إلى مقاربات الواقع ولغة السياسة، يُمكن القول بأنّ دخول القوات السورية إلى لبنان جاء، في سياق الانتفاضة التي حُفَّتْها سورية بعد عام ١٩٧٠، وخصوصاً إثر مشاركتها في حرب عام ١٩٧٣، على صعيد تكريس دورها الإقليمي كطرف فاعل في توجيه مسار الأحداث الكبرى في الشرق الأوسط بعد عقود طويلة أعقبت مرحلة الاستقلال السياسي لدول المنطقة وشكّلت سورية خلالها موقع الغنيمة التي تتصارع القوى الإقليمية الكبرى (مصر، العراق، السعودية) على الفوز بها أو الهيمنة عليها. وإذا صحّ ما كتبه باتريك سيل مرةً بأنّ أحد الإنجازات الكبرى للرئيس الراحل حافظ الأسد يتمثل في نجاحه بإخراج سورية من موقع اللعبة والانتقال بها إلى موقع اللاعب في الشرق الأوسط، فلا شكّ في أنّ قرار دخول القوات السورية إلى لبنان عام ١٩٧٦ كان يمثل إحدى البوابات الرئيسية التي اتاحت للرئيس الأسد الأب تحقيق تلك النقلة ورغم المتاعب التي واجهها الرئيس حافظ الأسد نتيجة لقراره إرسال القوات السورية إلى لبنان، فإنّه يُمكن الجزم أنّ بأنّ حزمة المكاسب السياسية والاستراتيجية التي حقّقها النظام من جراء وجود قواته في لبنان كانت جديرةً بقبول تحمل التبعات المترتبة على كل تلك المتاعب.

تضافرت جملة المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية لتخلق واقعا جديدا أدى إلى وضع السياسة السورية في مواجهة معركة متعددة الجبهات

وتتسع قائمتها للمكاسب التي تُمكن الإشارة إليها في هذا الغام لتُشمل في البداية - وبشيء من المفارقة - حالة الاستقرار الداخلي التي حققها النظام نفسه خلال عهد الرئيس الراحل وقد تمّ ذلك عبر استخدامه المفرط للقبضة الأمنية التي أحكمت ضبطاً إيقاعات الحياة السياسية السورية داخل البلاد، وامتدت هيمنتها إلى الساحة اللبنانية التي وقّرت طوال مرحلة ما بعد الاستقلال عمراً ومستقراً للكثير من القوى والشخصيات السياسية السورية المعارضة التي كانت تجد في لبنان ملاذاً آمناً ومركزاً مريحاً لإدارة خطتها الهادفة إلى الولوج إلى السلطة في دمشق. ورغم حلة الانتقادات الواسعة التي واجهتها القيادة السورية داخل سورية وعلى امتداد الشارع العربي ومن جانب حلفائها الدوليين (وعلى رأسهم آنذاك القيادة السوفيتية) بسبب إرسال قواتها إلى لبنان، فإنّه يُمكن التقدير بأنّ القيادة السورية ما لبثت أن لست أهمية القرار الذي اتخذته بهذا الشأن إبان المواجهة المسلحة التي خاضتها جماعة الإخوان المسلمين ضد النظام السوري في أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات. ذلك أنّه لم يكن من الصعب التقدير بأنّ موازن المواجهة مع الإخوان كانت مستغفيرة كثيراً لو أتبع لجموعاتهم المسلحة أن تستفيد من منافذ البوابة اللبنانية في إدارة نشاطاتها

أما المحور المركزي الذي تجلّت فيه المكاسب السورية من جراء الوجود العسكري السوري في لبنان فيُمكن رصدّه على خط تطوّرات قضية الصراع العربي - الإسرائيلي، والتي شكّلت قاعدة تأسيسٍ للدور الفاعل الذي لعبته سورية على المستوى الإقليمي خلال عهد الرئيس الراحل. فلقد نجحت سورية من خلال مشاركتها إلى جانب مصر في حرب أكتوبر في أن تُضخّن نفسها حضوراً مؤثراً في توجيه حركة الأحداث، لتجّه نحو خلق حالة استقطاب حادة داخل العالم العربي تبلورت ملامحها بعد قيام السادات بزيارته الشهيرة إلى إسرائيل وتوقيع مع الحكومة الإسرائيلية اتفاقات كامب ديفيد. وفي مواجهة ظروف تلك المرحلة نجحت دمشق في قلب اتجاه السحمر الذي أراذ وزير الخارجية الأميركي آنذاك هنري كيسنجر تطويقها به عبر استئراجها إلى الشرق في المستنقع اللبناني، واستطاعت أن توظف وجوبها في لبنان وإسلاكها - عبر هذه البوابة - بالورقة الفلسطينية في المعركة الظافرة التي قادت ضد خطوة السادات وانتهت بتجديد عضوية مصر في الجامعة العربية، لتصبح الساحة خاليةً أمام دمشق لتقرّر لنفسها دوراً إقليمياً فاق حجمها الواقعي بكثير وطوال فترة العشرين الأخيرين من القرن الماضي أصبحت دمشق إحدى العواصم الرئيسية التي تتحكم بتحديد وجهة الحدث السياسي على مستوى المنطقة، وهو ما تبدّى في الاهتمام «معركة تحرير الكويت» عام ١٩٩١، ثم في الدور المحوري الذي لعبته سورية في إطلاق مسيرة العملية السلمية عبر مؤتمر مدريد، وبعد ذلك في تأثيرها القوي على توجهات الحركة النقاضية وضبط تداعياتها على الصعيد العربي.

#### قراءة في المتغيرات

لا شكّ في أنّ أول تلك للتغيرات هو التحول في تركيبة السلطة السورية بعد وفاة الرئيس حافظ الأسد وانتقال الرئاسة إلى نجله الرئيس بشار الأسد. إذ يبدو من الثابت اليوم أنّ

غياب الأسد الأب أحدث هزة قوية في بنية النظام السوري بعد ثلاثة عقود مضامها في الحكم وخصّص خلالها جميع خيوط عملية صنع القرار السياسي داخل جدران مكتبه الشخصي. وفي هذا المجال يُمكن القول بأنّ تجريرة الأسد الأب المبدعة في الحكم أدت إلى وضع خليفته أمام مهمّات بالغة الصعوبة؛ ذلك أنّه لم يكن من السهل على الرئيس الجديد، الذي ينتمي إلى جيل مختلف وثقافة مغايرة، متابعة نهج والده في شخصنة عملية صنع القرار السياسي وجصرها في يد الرئيس، في حين لم يُشرك الرئيس الراحل في حين لم يُشرك الرئيس الراحل وراءه تقاليد عمل مؤسسية يُمكن الاستئناس إليها في إيجاب البقية بديلاً لعملية صنع القرار. وهكذا فقد أدّى غياب الشخصية الكاريزمية التي ضبّطت أداء السياسة السورية على مدى ثلاثة عقود إلى ظهور مؤثرات إرهابية أداء السياسة السورية في الحقيبة الجديدة. وتجلّى ذلك خصوصاً في تعديل وتباين الأصول التي صارت تُنطلق باسم القيادة السورية. الأمر الذي أوحى بوجود تجاذب في قمة هرم القيادة: بين ما أصبح يُعرف باسم «الحرس القديم» الذي يتمثل بشكل خاص في قيادة الحزب والمؤسسة العسكرية وبعض مفاصل الأجهزة الحكومية. وبين «الجيل الجديد» الذي يوحى في خطابه الملحن أنّه يمثل المشروع الإصلاحية الذي يقوده الرئيس بشار الأسد

وقد يكون في حالة تعدد المراكز التي تحاول الاستئثار بعملية صنع القرار في سورية أحد المداخل التي تفسّر سلسلة الأخطاء التي وقعت فيها السياسة السورية خلال الأعوام الأخيرة. ومن هذه الأخطاء: الخطأ المستمر في إدارة ملفّ العلاقة مع

الولايات المتحدة الأميركية. ولاسيّما عبر مفخها العراقي. ومنها أيضاً الخطأ الذي أدّى إلى خسارة العلاقة الخاصة التي أقامتها سورية مع فرنسا، وهي علاقة واهنت سورية على الاستفادة منها في كسر حالة الانفراد الأميركي بإدارة دفة الأحداث في الشرق الأوسط. فكانت النتيجة دفع فرنسا إلى أن تكون شريك الولايات المتحدة الأميركية الرئيسي في قيادة الحملة الدولية المعادية لسورية. أما في لبنان فقد كان الخطأ القاتل هو دعم قرار التمديد للرئيس اللبناني إميل لحود؛ فهذا الدعم، إن لم يكن هو السبب الحقيقي لصدور القرار الدولي رقم ١٥٥٩ الذي ركّبت المعارضة اللبنانية موجته لتصدع حملتها ضد الوجود السوري في لبنان بدعم دولي كما تقول دموعات الإعلام السوري في تبريرها لدعم قرار التمديد، فلا شك في أنّه أضعف القرار المذكور وحمله المعارضة غطاءه الحثيث ومسوغاته السياسية.

كما أنّه لا بدّ من التوقف هنا عند ملاحظة تزامن التحول الذي طرأ على تركيبة السلطة في سورية مع حملة المنعطفات الكبيرة التي دخلتها المنطقة بعد أحداث ١١ سبتمبر وانفراج الإدارة الأميركية في اتجاه تكريس انفرابها بالهينة على قيادة النظام الدولي الجديد الذي نَحَلَ منعطفاً نوعياً عقب الهجوم الأميركي على أفغانستان وإسقاط حركة طالبان ثم بعد الاحتلال الأميركي للعراق وإسقاط نظام الرئيس صدام حسين. أما في معادلات الحسبة السورية فقد أسفرت تلك التحولات عن جعل القوات الأميركية تُرابط على تخوم الحدود السورية، لتضع دمشق تحت وطأة حملة مبرمجة من الضغط والتهديد والى الذراع. إضافة إلى ذلك، لا بدّ من الإشارة إلى المتغيرات التي طرأت على وضع القضية الفلسطينية بعد وفاة الرئيس ياسر عرفات وانتقال السلطة إلى يد الرئيس الجديد محمود عباس؛ فهذا الأخير أعاد إطلاق مسيرة عملية تفاوضية تُهدف إلى ترتيب اتفاق فلسطيني نهائي مع إسرائيل، دون ارتباط يُذكر بما يتخذ على المسارات التفاوضية الأخرى، التي أصبحت تنحصر في المسارين السوري واللبناني!

## واقع جديد

تضافرت جملة المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية تلك لتخلق واقعاً جديداً في المنطقة أدّى إلى وضع السياسة السورية في مواجهة معركة متعددة الجبهات، إنّ بدا كما لو أنّ هناك الكثير من القوى الإقليمية والدولية التي استيقظت في وقت واحد للدخول مع سورية في معارك متزامنة لتصفية حسابات تراكتت على مدى أكثر من ثلاثين عاماً.

فعلى المستوى العربي يمكن إيراد قرأتين كثيرة تدلّ على أنّ وفاة الرئيس حافظ الأسد أغرت العديد من الدول العربية بمحاولة انتهاز الفرصة من أجل إعادة تصميم الدور الإقليمي الواسع الذي لعبته سورية خلال عهد الرئيس الراحل. وعلى المستوى الإقليمي كثّرت المؤشّرات التي تدلّ على أنّ مصالح العديد من القوى المعنية بعملية السلام تقاطعت عند نقطة التوافق على إضعاف قدرة سورية على النهوض بالمرور المؤثر الذي لعبته خلال عهد الأسد الأب في ضبط إيقاعات العملية التفاوضية وعلى الصعيد الدولي قادت تداعيات الاحتلال الأميركي للعراق إلى تحريك هواجس ومخاوف من مخططات أميركية مبيتة تسعى إلى تقويض سلطة حزب البعث في سورية بعد أن تم لها تفويض سلطة الحزب في العراق. وفي ظل هذه التشابكات جاء تصاعّد حملة الضغط على سورية عبر خاضعتها للبنانية لتُكسّف عن حقيقة الانقلاب الذي طرأ على وظيفة الوجود السوري في لبنان، إذ بات مطلوباً من سورية (حسب تصريحات أكثر من طرف معني بالأزمة، بما في ذلك مسؤولون في الإدارة الأميركية) أن تتعاون مع المخططات الأميركية في العراق، وأن تستخدم نفوذها لدى فصائل المعارضة الفلسطينية من أجل تسهيل مهمة الرئيس الفلسطيني محمود عباس

يبدو الأفق محفوفًا بالمخاطر. وخصوصاً إذا بقي في المعارضة اللبنانية من يراهن على الاستقواء بالقوى الخارجية. وأيضاً إذا بقي في القيادة السورية من يراهن على الاستقواء ببعض قوى الداخل اللبناني

للانطلاق بمسيرة مفاوضات تسوية المسار الفلسطيني بصورة منفردة، وأن تتولى مهمة نزع سلاح حزب الله وضبط الأوضاع الأمنية داخل الخيما الفلسطينية في لبنان، مقابل تخفيف الضغوط التي تتعرض لها سورية داخل الساحة اللبنانية وهذا كله يعني عملياً أنّ سورية وصلت إلى المنعطف الذي صمد عليها فيه أن تضخّي بدورها الإقليمي وأوراقها التفاوضية (عملية السلام، العراق، المقاومة اللبنانية) من أجل ضمان استمرار وجودها في لبنان وهنا تجب ملاحظة أنّ هذا الوجود نفسه فقد فاعليته العملية، سواء لجهة التصدي لنشاطات القوى المناوئة (التي لم يعد يؤرقها هاجس الجوار الجغرافي بعد ثورة الاتصالات التي اتاحت لها إدارة نشاطاتها من مناطق بعيدة فيما وراء البحار)، أو لجهة الحفاظ على وجود جبهة مشتعلة تضيئ بقاء قضية المسارين السوري واللبناني في لجهة اهتمام العواصم المعنية بترتيب أولويات أجندة المفاوضات الخاصة بمسارات العملية السلمية بعد أن أصبح الدور المنوط بدمشق في لبنان - تحت طائلة تهديدات من كل نوع - هو السهر على وقف عمليات المقاومة عبر الحدود اللبنانية بل وتوظيف تلك العمليات ورقة رابحة في يد المفاوض السوري.

من تشوّرتها الحلية وتوّرضها على راس أجندة اهتمامات العواصم الدولية والأطراف الإقليمية المعنية بأمور المنطقة. ولكن قبل ذلك بمدّة طويلة كانت حركة التغييرات الحلية والإقليمية والدولية قد قوّضت مبررات استمرار الوجود السوري في لبنان. ذلك أنّ خسائر هذا الوجود باتت تفوّق عوائده في حسابات السياسة التي يجب أن تستمد منها حسبة المصالح المالية والشخصية لحفنة من الشخصيات المؤثرة في مراكز صنع القرار في الجانبين السوري واللبناني، وهي مصالح يُخشى أن تكون قد لعبت دوراً محورياً في إطلاة امد الوجود السوري في لبنان.

من هذه الزاوية يُمكن القول إنّ القرار الذي أعلنه الرئيس بشّار الأسد في خطابه الأخير أمام مجلس الشعب السوري بشأن الانسحاب الكامل للقوات السورية من لبنان (على مرحلتين وفق اتفاق الطائف) شكّل إعلان نهاية حقبة في تاريخ العلاقات السورية - اللبنانية ففكّت مبررات استمرارها في أرض الواقع قبل أن يعلن الرئيس الأسد (ومن بعده المجلس الأعلى السوري - اللبناني) عن قلب صفحتها بصورة رسمية. ومع ذلك تبقى النقطة المركزية التي ينبغي التشديد عليها في ختام هذه القراءة، وهي أنّ قرار خروج القوات السورية من لبنان (سواء تمّ تحت سقف اتفاق الطائف أو القرار ١٥٥٩) وضعّ العلاقات بين البلدين أمام منعطف نوعي فتح أفقها على جميع الاحتمالات. ورغم الكلام المكرور الذي تسهل استعائنه هنا حول اعتبارات التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والثقافة وحتى السياسة التي تحكّم على سورية ولبنان أن يرتقيا بملاقتهما فوق الجراح التي خلّفها تجربة العقود الثلاثة الماضية، فإنه يبدو أنّ أفق العلاقة الجديدة بين البلدين سيظلّ محفوفاً بالمخاطر الملقة. ويتبدّى ذلك خصوصاً إذا بقي في صفوف المعارضة اللبنانية من يراهن في حماية مصالحه الحلية الضيقة على الاستقواء بالقوى الخارجية التي تتروّص بسورية، بما يُمكن أن ينطوي عليه ذلك من مجازفة بتفجير مواجهات داخلية لا يُمكن التنبؤ بتداعياتها. وأيضاً إذا بقي في أوساط القيادة السورية من يراهن على الاستقواء ببعض قوى الداخل اللبناني من أجل تخويف المعارضة والالتفاف على تنفيذ قرار الانسحاب الكامل من لبنان الذي أعلنه الرئيس بشار الأسد، بما يُمكن أن ينطوي عليه ذلك أيضاً من مجازفات بالدخول في مواجهة مفتوحة مع الخارج الذي بدأ مرحلة العدّ العكسي في تصدّي الأخطاء التي قد يتذرّع بها من أجل توجيه الضربة القاضية إلى سورية!

دمشق

أفق غامض

من حيث المحصلة النهائية يمكن القول إنّ حادثة اغتيال الرئيس رفيق الحريري، وقبلها صدور القرار ١٥٥٩ الذي تزامن مع قرار التمسيد للرئيس إميل لحود، أعطيا القوى اللبنانية المعارضة للوجود السوري المناسبة الحديثة التي كانت تنتظرها من أجل أن تُشجّر المسألة اللبنانية

عماد هريمان  
باحث سوري

## كيف نفهم «زلازل العولمة» في الشرق العربي؟

□ سعد محيو

السفينة السورية التي تتجانبها حالياً تسوناميات عاتية. وحتى كتابة هذه السطور، كان لبنان ينتظر «انقلاباً خامساً» محتملاً

خذاً، أيضاً، ما جرى في العراق الذي شهد انتخابات عارمة في ظل فوضى عارمة، وما حدث في فلسطين التي انقزعت لحركة «حماس» في غزة تحت الاحتلال، وما يجري في مصر التي بدأت «تسوناميات» التغيير تفتح شواطئها تدريجياً.

كل هذه زلازل جيولوجية يعيشها الشرق الأوسط العربي – الإسلامي، تكون فيها الوقفة أكثر من ضرورية. إنها واجبة الوجود إذا ما أردنا فهم ما يجري حولنا، ناهيك عن اتخاذ المواقف الصحيحة والسليمة

الآن، إذا ما نظرنا حولنا، سنكتشف أن ثمة مقاربات عديدة متنوعة تُشرّح أسباب هذا الزلزال ومضاعفاته. منها:

– مقارنة العولمة.

– المقاربة الاستراتيجية الجيو – بوليتيكية.

– المقاربة الحضارية (صراع أو حوار الحضارات).

– المقاربة الإقليمية.

– المقاربة المحلية (صراع الشعوب والأنظمة الاستبدادية).

كل من هذه المقاربات له قوّته الخاصة وجاذبيته الخاصة. وكل منها يضيء جانباً، سواء كان ضيقاً أو واسعاً، من اللوحة العربية – الإسلامية العامة.

١ – في مقاربة العولمة، نحن في صدد تحليل يرى إلى كل ما يجري في الشرق الأوسط على أنه إجماع لها بالقوة في النظام المتحول الجديد. وهذا ليس فقط على الصعيد الاقتصادي بل أيضاً (وخاصةً بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١) على كل الصعيد الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية. ويوضح توماس بارنيت، أستاذ مجلّ استراتيجي في وزارة الدفاع الأميركية (البيتاغون)، هذه النقطة في كتابه الأخير خريطة البيتاغون الجديدة: الحرب والسلام في القرن الحادي والعشرين، حين يقول «إن دور الإمبراطورية الأميركية الأول والأخير ليس المبادئ ولا القيم، بل نشر العولمة الرأسمالية وفرضها بقوة السلاح في كل أنحاء العالم». ومنّ هي الدول التي يجب إخضاعها بالقوة؟

إنها أي دولة أو منطقة لا تتفاعل مع مضمون التطلّعات التي تتأتى من خلال إدماجها ما هو قومي بما هو اقتصاد عالمي (الافكار، المال، الإعلام). وهي أيضاً أي دولة أو منطقة لا تسعى إلى تنسيق «قواعد حكمها الداخلي» مع الحكم العالمي للصاعد للديموقراطية، وحكم القانون،

اصعب الامور هي ان يتوقف المرء للتفكير، فيما هو يركض لاهثاً وراء أحداث تقطع الأنفاس.

وأشقّ للمأم في محاولة القبض على معنى التاريخ، فيما هو يتحرك ويفقز ويصنع وقائع جديدةً وحياتٍ جديدةً، كل يوم، بل وكل لحظة

خذوا، مثلاً، ما حدث مؤخراً في لبنان، الذي شهّد أربعة انقلابات متوالية خلال أربعة أسابيع.

الأول، كان الانقلاب الذي أعدّه وجّهه وربّه الرئيس الراحل رفيق الحريري ضد السياسة السورية في لبنان، وكان على وشك الكشف عنه لولا عملية الاغتيال المروعة التي سقط ضحيتها.

الثاني، الانقلاب الذي نفّذه دمشق، حين رتّت على الجهود الدولية والإقليمية والمحلية المتصلة ضدها بـ «التسحق» في لبنان ونكح كل حلفائها إلى أن يختاروا بين أن «تكونوا معي أو ضدي».

الثالث، كان انقلاب سنة بيروت على السياسة السورية عقب اغتيال الحريري، وانضمامهم علناً ورسمياً إلى المعارضة.

الرابع، كان انقلاب حزب الله (والشيعية) على انقلابات المعارضة، وركونه – ولو اسمياً حتى الآن –

والأسواق الحرة (مثلاً عبر الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية). وبالطبع، فإن معظم الدول العربية تنتمي بجدارة إلى الفئتين معاً.

٢ - مع المقاربة الإستراتيجية - الجيوبوليتيكية، نجد أنفسنا أمام لوحة مائلة لتحليلات العولة، من حيث استنادها إلى المعطيات الاقتصادية، لكن مع الوصول إلى نتائج مختلفة فنحن نجد أنفسنا مجدداً أمام نظرية الإمبريالية التي نعتبر أن الرأسمالية كانت يوماً بطبيعتها، وبمذ ولانها - نظاماً استقطابياً يستند إلى بناء مراكز هيمنة وأطره مهيمنة عليها. ووفق هذه النظرية، التي طوّرها سمير أمين، تتعاضد عمليتان متنافرتان تحت سقف واحد.

الأولى التحالفية، تشير إلى أن العرب العالمية الثانية انتهت بتحول كبير في شكل الإمبريالية، تمّ بموجبه استبدال تعدد الإمبرياليات الدائمة الصراعات بـ «إمبريالية جماعية» خضعت كل مراكز العالم الرأسمالية في مثّلث. يضمّن الولايات المتحدة ومقاطعتها الكندية الخارجية، وغرب ووسط أوروبا، واليابان.

والثانية صراعية، توضح أن الإمبريالية الجماعية تتضمن في ثناياها تنافسات تعود إلى مرحلة ما قبل العولة وهذا واضح من خلال تركيز الطبقة الحاكمة الأميركية الشديدة في كل إستراتيجيات الأمن القومي التي أعلنها مؤخراً.

وما يجري الآن من حروب في الشرق الأوسط جزء من سعي المؤسسة الأميركية لهيمنة تستند إلى ثلاثة عناصر: السيطرة على الموارد الطبيعية للكوكب؛ والاحتكار العسكري؛ ويزن الشكافة الأنفلو ساكسونية التي تعبر بشكل أفضل عن الهيمنة الإيديولوجية الرأسمالية.

نحج الأميركيون والأوروبيون مؤخراً في تقليص خلافاتهم «التكتيكية»، حيال الشرق الأوسط، لصالح إجماع استراتيجي على ضرورة تغيير وجه المنطقة

٣ - المقاربة الحضارية. هذه المقاربة تثير إشكالات أكثر مما تقدّم حلولاً. وهذا ليس مستغرباً، لأن من يطرحونها (المثقفون الأميركيون وعلى رأسهم بالطبع صموئيل هانتينغتون) لا يستهدفون تحليل التاريخ وتفسيره علمياً، بل لي عني هذا التاريخ لإخاله في زجاجة الصلحة القومية الأميركية الضيقة. وهذا الذي يتضمن اعتبار صعود الأصولية الإسلامية تطوراً ملائماً تماماً للحمة القومية الأميركية، لأن العدواة الإسلامية تشجّع الأميركيين على تحديد هويتهم على المستويين الديني والثقافي، تماماً كما ساعدت الحرب الجارية على بطورة الجانب السياسي للهوية الأميركية.

٤ - المقاربة الإقليمية. هذا التحليل ينطلق من «الصراع على السلطة» بين المراكز الإقليمية الرئيسة في المنطقة (إسرائيل، إيران، تركيا، مصر، السعودية) في إطار الأمن القومي والنظقات الإيديولوجية لكل من هذه المراكز. بيد أن هذا المنهج تعرّض لهزات شديدة، بعد أن انضمت الدولة العظمى الأميركية إلى نادي الدول الإقليمية الشرق أوسطية عبر احتلالها العسكري لأفغانستان والعراق.

٥ - المقاربة المحلية من كل المقاربات السابقة، يبدو التحليل المحلي للتطورات المتسارعة في المنطقة هو الأضعف أو الأقل تأثيراً. بيد أنه ليس كذلك؛ فكل المشاريع الدولية والإقليمية، على تباينها، لا يُمكن أن تستقر أو تنجح ما لم تُشبع في بيئة محلية مواتية. ففوز العراق على هذا النحر السهل، مثلاً، لم يكن ليحدث لو لم يتمّ النظام العراقي السابق بتصجير المجتمع المدني وتميمه. وكلّ الأمر نفسه الآن مع باقي الشعوب العربية التي تُزعج حقاً في مقاومة الاجتياح الغربي لبلدانها، لكنها لا تستطيع إلا أن تتفاعل مع شعارات «الحرية والديمقراطية» التي تُلقها أميركا، في مقابل عدم تفاعل الأنظمة التوتاليتارية مع مطالبها وتطلعاتها المشروعة.

### فهم اللوحة العربية

كيف نَظّم للوحة العربية في المرحلة التاريخية الانقلابية الراهنة، على ضوء هذه المقاربات المتباينة أكثر الأمور إغراءً، ونحن نحاول فهم الزلازل الراهن في المنطقة العربية، هو التركيز على المقاربات الحضارية والإقليمية والمحلية. لذا، لأن هذه المقاربات بسيطة وواضحة ومريحة.

فتحليل الأحداث على أنها حرب حضارات، أو على الأقل صراع حضاري، يريح النفوس النائرة، ويصوّب العقول الضائعة، ويُرسم خريطة طريق تقود التاريخ من أذنه من القرن الحادي والعشرين مباشرة إلى القرن الحادي عشر.

ومقاربة التنافس الإقليمي تحقّق، هي الأخرى، الراحة النفسية ذاتها، إذ مستقبلي حينها الأحداث كلها على أنها مجرد ردود فعل على الفعل الإسرائيلي المتصل لإقامة إمبراطورية النيل والفرات، بدعم أميركي.

وكذا الأمر بالنسبة إلى المقاربة المحلية، حيث الإطالة على الصراعات بوصفها مواجهة نهائية بين عالم سلطوي يموت وعالم ديمقراطي يولد، وتحظى بتأييد حماسي من العديد من قطاعات المجتمعات المدنية العربية «الصاعدة».

غير أن كل أدوات التحليل هذه، على قوة منطقها وتماسكها، لا يبدو أنها تُنكس باللحظة التاريخية الحقيقية. فلا الحضارة في الواقع هي التي تحدّد الاستراتيجيات؛ ولا التجاذبات الإقليمية هي



التي تتحكم بتوجهات سَهْم التاريخ؛ ولا التفاعلات الداخلية تُحدث بمعزلٍ عن قرارات الدول الخارجية وهذا ما يُبقي أماننا منهجين للتحليل العولة، والعوامل الجيو - إستراتيجية فكيف نُظهِم زلزال المنطقة على أساس منتهين المنهجين؟

الكثيرون يعتقدون أنَّ قرار الولايات المتحدة بنسف الأمر الواقع في الشرق الأوسط الكبير قد وكَّـب من ركاب برجي مركز التجارة العالمي عام ٢٠٠١ وهذا اعتقاد خاطئ.

فأميركا منذ انهيار الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات كانت تُشْطط في كل العالم من أجل مدِّ ثورة العولة إلى سائر دول العالم، بدءاً من وحدات الإمبراطورية السوفييتية السابقة وهذا لم يتضمَّن تغيير الأنظمة السياسية وقلب الأنظمة الاقتصادية ففسد، بل طاول كذلك كلَّ المنظومات الفكرية والثقافية والإيديولوجية في هذه الدول

ولكن لماذا لم تتمدد هذه الثورة فوراً إلى الشرق الأوسط لثلاثة أسباب:

الأول، أنَّ الأميركيين كانوا منشغلين بدمج أوروبا الشرقية في العولة، وإعادة رسم خريطة أوروبا الموحدة على أسس جيو - إستراتيجية جديدة، تُحفظ أسس الزعامة الأميركية لـ «الإمبريالية الجماعية»

والثاني، أنَّ الأمر الواقع في الشرق الأوسط آنذاك كان مواتياً للمصالح الأميركية، ذلك أنَّ الأنظمة السلطوية العربية، بكلِّ تلاوتها، التزمت منذ مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ قواعد السلوك العامة التي رسمتها الإدارات الأميركية المتعاقبة

وللثالث، أنَّ واشنطن كانت تتنَّذ بهدوء عمليات تغيير بيطني في الشرق الأوسط، تركِّز كلياً تقريباً على تحرير الأسراق والليبرالية الاقتصادية كمدخل أولي لإلماج دول المنطقة في العولة.

غير أنَّ أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ جاءت لتسرِّع من وتيرة التاريخ، ولتُثقل عملية نسف الأمر الواقع من أوروبا الشرقية إلى الشرق الإسلامي كأولوية قصوى لكلِّ من مشروعي العولة والهيمنة الإستراتيجية الأميركية على العالم. ذلك أنَّ هذه الأحداث، التي رَبتَ الفُتْز مباشرة في وجه قلب الاقتصاد العالمي، ربطتُ ربطاً وثيقاً بين أمن العولة وزعامة أميركا أولوية أوروبا مسألة التغيير الشامل في الشرق الأوسط الكبير. وهكذا أضلَّت أميركا أولوية أوروبا الشرقية، ومعها أولويات روسيا والصين والهند، إلى تلاحج الانتظار، ووضعت الشرق الأوسط برمته على نار قوية. وهكذا أيضاً، تمت إعادة رسم كلِّ إستراتيجيات الأمن القومي الأميركي، استناداً إلى توفير كلِّ الظروف لمجح المنطقة العربية - الإسلامية بالقرعة في «الإمبراطورية».

وهذا، على أيِّ حال، كان تطوراً محقّقاً، حتى لو لم تقع أحداث ١١ سبتمبر. كلُّ ما هنالك أنَّ اسامة بن لادن غيَّرَ توارِيخ هذه الحتمية. بالطبع، هذا المشروع الإلماجي الإمبراطوري لن يتحقق بين ليلة وضحاها، وجورج بوش نفسه قال إنَّ هذه مهمة جليّة، أيُّ أنّها تحتاج إلى جيل كامل كي تنقُذ. إلَّا أنَّ ما قد يحدث خطي الزمن، بالنسبة إلى هذا المشروع، هو ما بدأ يُلَوِّح في الأفق من صفقة كبيرة بين أعضاء «الإمبريالية الجماعية» على توحيد الجهود لتغيير الشرق الأوسط. المقصود هنا هو نجاح الأوروبيين والأميركيين مؤخرًا في تقليص خلافاتهم «للتكتيكية» حيال الشرق الأوسط لصالح إجماع إستراتيجي على ضرورة تغيير وجه المنطقة. وقد كانت قمة بروكسل الأميركية - الأوروبية، التي أعلَّنت تجاوز الخلافات على العراق، مثقلاً بارزاً على طريق هذه النقلة. وصفقة بوش - شيراك حيال لبنان وسوريا كانت مثقلاً آخر وبقية المعالم أتت على الأرجح، لتستكمل زخيم هذا الزلزال التاريخي المستمر.

## ولكنَّ أين الشعوب العربية؟

أين الشعوب العربية من هذه اللعبة «الكوبية» الكبرى؟

لقد خلعت الأمة الحقبة التاريخية الجديدة من العولة، وهي في وضع أسوأ كثيراً من ذلك الذي كانت عليه أمم أوروبا الشرقية. صحيح أنَّ السياسات التوتاليتارية السوفييتية صُنِّرت المجتمعات المدنية في أوروبا الشرقية، لكنها على الأقل تركتُ فيها أيضاً العديد من البنى التحتية اللازمة لإعادة النهوض (الصناعة والزراعة والفنون التكنولوجية) إضافةً إلى ترسيخ قواعد المدنية في طبيعتها الشيوعية. غير أنَّه لم يحدث شيء من هذا القبيل في الدول العربية، عدا ربما في مصر الناصرية خلال حقبتَي الخمسينيات والستينيات، حين شهدت أرض الكفانة ثورة اقتصادية - تكنولوجية شبيهةً بتلك التي اضطلها الاتحاد السوفييتي في أجماره الأوروبية. ولو قُدِّرَ لهذه الثورة الناصرية أن تستمر، لكانت مصر الآن نموّاً سوفييتاً متقدماً.

لماذا تأخّرت للمجتمعات العربية على هذا النحو؟ لأسباب عدة.

- الإمبراطورية الأميركية، التي كانت يتبَّعها العديد من الدول العربية طيلة النصف الأول من القرن العشرين، لم تهتمَّ البتة بتشجيع المدنية في هذه الدول. فهي اكتفت بتحويلها إلى أسواق استهلاكية، وتركزت أنظمتها السلطوية تتكلم بتحقيق «الاستقرار» السياسي بالقوة في مجتمعاتها.

- تجربة الاتحاد السوفييتي في تحديث بعض الدول العربية لم تمش طويلاً، وهي انهيارت تماماً بعد حرب ١٩٦٧ وما تلاها من خروج مصر من فلكها. وحين سَطَقَ الاتحاد السوفييتي نفسه العام ١٩٨٩، بدت هذه الدول (العراق، سوريا، ليبيا، الجزائر، اليمن الجنوبي) أشبه بدمرُتها الحرب، شُيِّطَ عليها جماعات مسلحة أو زعماء مسلحون يُحْمَلون أعلاماً.

- طيلة الفترة بين ١٩٦٧ و ١٩٨٩، كانت كل الشعوب العربية بلا استثناء عالة في آلة زمن متوقفة عن العمل لا هي قادرة على التقدم قليلاً إلى امام، ولا هي مستطاعة التراجع كثيراً إلى الوراء. الكثيرون أمثلوا على هذه الحقبة اسم «فترة الانحطاط الثانية». بعد فترة الانحطاط الأولى التي تلت سقوط عقلائية ابن رشد وانتصار «وسيطه» الغزالي ثم «مصوصية» ابن تيمية بيّدت أن التسمية الآن هي الجمود في الزمن. لأن ثورة اللوحات والاتصالات حُجبت إمكانية الانحطاط الكامل

### انهيار الزمن

هكذا، على ما نعتقد، كان حال الشعوب العربية حين حدث الانقلاب العالمي الكبير في ١٩٨٩ وهكذا بقي الحال بعد مرور عشر سنوات على التحولات السياسية والاقتصادية الكبرى في أوروبا الشرقية وروسيا والصين والهند وبنية آسيا، لأن الإمبراطورية الأميركية (كما أشرنا) لم تر ضرورة ملحة آنذاك لتغيير الأمر الواقع الشرق أوسط بشكل جذري.

غير أن أسامة بن لادن نحّل على الخط عام ٢٠٠١ على قلب هذه الصورة الرائدة رأساً على عقب. فقد انهيار فجأة الزمن المتجمّد في المنطقة العربية مع انهيار برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك، وهبّت على البيت العربي ذي المنازل الكثيرة عواصف عاتية اقتلعت كل نوافذه والأبواب، ووضعت في قلب تغيرات العصر.

وما هي هذه التغيرات؟ إنها، ببساطة، الثلاثي نفسه الذي غيّر دول أوروبا الشرقية غداة انهيار الاتحاد السوفيتي: الليبرالية، وحكم القانون، والأسواق الحرة. وهذا جنباً إلى جنب مع الثلاثي الآخر الضروري في سيادة العولة، والمستبد إلى إدمان ما هو قومي بما هو عالمي: الأفكار والمال والاعلام.

في حال نجاح الشعوب والنخب العربية في تغليب الفرص على المخاطر. فإنها جميعاً ستتعلم بالديمقراطية من دون أن تخسر الاستقلال (ولو النسبي) وستحقق المضاعفات غير المحسوبة.

وهذا يخطئ من يظن أن إعصار العولة هذا هو وحده الوجه الآخر للمصالح الجيو- إستراتيجية الأميركية. وتكفي لتبيان هذا الخطأ قراءة نصوص وأبحاث ومشاريع الاتحاد الأوروبي حول الشرق الأوسط العربي - الإسلامي. حينها سنكتشف مدى تركّز «الإمبريالية الجماعية» الأميركية - الأوروبية - اليابانية في هدف إدمان المنطقة بالعولة هل نسف الزمن المتجمّد إيجابياً بالنسبة إلى الشعوب العربية؟ في الأمر فرص ومخاطر المخاطر كبيرة. تقسيم المنطقة مجدداً، مصادرة القرار الوطني والقومي، هيمنة الإمبراطورية الإسرائيلية، تضعف الهوية العربية، الحروب الأهلية إلخ.

لكن الفرص كبيرة أيضاً: الخروج من حال الجمود القتال. استعادة الحريات وحقوق الإنسان. إعادة الاعتبار لـ «سلطة الشعب» مشاركة المجتمع المدني في صياغة القرارات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وأخيراً، ثورة فكرية قومية عربية وطنية جديدة ستخدم الديمقراطية والحريات الفردية جسراً للنهوض بالامة، ومنع التقسيم، ومصادرة القرار، ومواجهة الهيمنة الإسرائيلية والخارجية.

من غير المعروف حتى الآن لمن ستكون الطلبة للفرص أم المخاطر؟ لكن ثمة شيئاً آخر معروفاً، وهو أن عقارب الساعة في الشرق الأوسط العربي لن تعود إلى الوراء بعد الآن، وإن قرّأنا مكانها بعد الآن. لقد عادت الساعة إلى التكتك، وسيكون على الشعوب والنخب العربية التأقلم بسرعة مع هذه التكتكات. إذا ما أرادت نصرّة الفرص والحاق الهزيمة بالمخاطر.

في الأول من مارس الحالي، كتبت واشنطن تايمز، الناطقة باسم المحافظين الجدد الأميركيين: «ولكن نحن ندرك أيضاً انه إذا ما برزت حكومات تمثيلية حقيقية في مصر والسعودية وباكستان وأماكن أخرى في هذه الأراضي المضطربة، فليس محتملاً أنها ستتصرف بشكل متطابق مع مصالح أمننا القومي. لذا، يجب على الإدارة أن تبذل على الأقل الجهود نفسها لتشكيل سياسات هذه الديمقراطيات المستقبلية، كما تبذل الآن الجهود لإخراجها إلى الوجود الزهان على الديمقراطية هو أفضل رهان متوافر، لكنه ليس رهاناً مضموناً.»

نص مفاجئ؟

ليس كثيراً. وهو يؤكّد الشبهة بأن كل ما تقّله أميركا في الشرق الأوسط لا يمدّى تغليب مصالحها الإمبريالية في الشرق الأوسط بوق سيلوان ديموقراطي.

لكن، في حال نجاح الشعوب والنخب العربية في تغليب الفرص على المخاطر، فإنها حينها ستتعلم بالديمقراطية من دون أن تخسر الاستقلال (ولو النسبي)، وستحقّق ما يصفه علماء الاجتماع بـ «المضاعفات غير المحسوبة» التي تُشقر بموجبها سياسة ما عن عكس ما هو مستهفك منها.

هذه المضاعفات غير المحسوبة هي الآن ما تخشاه واشنطن تايمز والمحافظون الجدد.

بيروت

سعد محجو

باحث لبناني

## ندوة: مستقبل العلاقات السورية - اللبنانية

المشاركون: حسين العودات، ميشيل كيلو، عمر اميرالاي  
ادار الحوار: ياسين الحاج صالح

أيار... نذلٌ موضح على أن سوريا لن تنسحب: سينسحب الجيش حقاً، لكن سوريا لن تنسحب

العودات أنا لست متشائماً لا شك في أن هناك صعوبات خلقت، ولكنها لن تكون جذبةً تماماً. إنها صعوبات من سوريا ومن حلفائها في لبنان ومن قوى أخرى. وهناك محاولات لقلب الطاولة على المعارضة، وإعادة لبنان إلى ما كان عليه في العقود الثلاثة الأخيرة ولكن لا أظن أن هذه المحاولات ستنتج: قد تُركّك الوضع بشكل عام، ولكنها لن تُدوم طويلاً

سنطرق لاحقاً إلى مسألة الانسحاب السوري. اعود إلى سؤالنا الأول.

عمر اميرالاي: أود أن أتوقف قليلاً عند موضوع اغتيال الحريري لما كانت تُربط به من علاقة صداقة نشأت وتوطدت خلال عملي على فيلم «الرجل ذو النعل الذهبي» الذي تناولت فيه شخصيته. لذلك فإن في داخلي اليوم حزناً عميقاً وأسى على فقدانه. أما صورة الوضع القائمة، فأني أراها غير مطمئنة مع الأسف، لأن خروج الجيش السوري من لبنان من شأنه أن يؤدي إلى ما يُشبه الحالة التي ورّثها صدام حسين لبلده بعد سقوط نظامه. فخشى أن نرى لبنان وقد ترك لصيرته وهو في حالة من التفكك الداخلي والتأزم الطائفي اللذين عمل الوجود العسكري والخابراتي السوري جاهداً على زرع بذوره داخل المجتمع اللبناني وتركيبته السياسية ومؤسساته خلال الأعوام الثلاثين الماضية. وما أشبه اليوم بالبارحة، أي بما كان عليه لبنان قبل عام ١٩٧٥، ولعلّ تظاهرة الوفاء لسورية التي دعا إليها حزب الله في بيروت يوم ٨ آذار للماضي هي أحد مظاهر القلق البالغ الذي يمكن أن ينتاب المرء على مصير لبنان وقدرته على التعامل مع مثل هذا المعطى الجديد في تركيبته الطائفية والاجتماعية والسياسية.

تابعتم تظاهرات واعتصامات لبنانيين في ساحة الشهداء. هل يتعلق الأمر بحركة احتجاج ديموقراطي أصيلة؟ هل هناك شيء جديد في هذه التظاهرات؟

العودات: لا شك في أنها حركة احتجاج ديموقراطية أصيلة، مهما كانت أهداف الفئات المشاركة فيها. إنها ظاهرة ديموقراطية حقيقية وصحيحة وصحية. والجديد فيها أن مختلف التيارات الثقافية والسياسية اللبنانية التقت على ضرورة البحث عن سيادة لبنان واستقراره، وهذه نتائج هامة.

كيف تصفون ما يجري في لبنان بعد اغتيال الرئيس الحريري؟

حسين العودات: اعتقد أنها بداية جديدة للبنان. إنها عودة لبنان إلى لبنان، بمعنى أن كل القوى السياسية وقوى المجتمع الحية تحاول الآن أن تستعيد انفاسها، وتُخلّ شريكاً حقيقياً في تقرير مصير البلد. وبغض النظر عن أهداف كل فئة من الفئات، فإن الشيء المؤكد أن هناك حراكاً سياسياً اجتماعياً بدأ في لبنان، وسيطور دائماً، وسيكون بدايةً صحية جداً.

ميشيل كيلو: إن ما يجري هو جزء من عالم يموت، لكن موته سيكون صعباً وسيؤدي إلى موت كثيرين. وهو أيضاً جزء من عالم يُولد بصعوبة.

بعد مظاهرة ٨ آذار في لبنان، هل أصبحتما أكثر تفاؤلاً أم أكثر تشاؤماً؟

كيلو: بعد مظاهرة الثلاثاء [التي نظمها «الموالاة» بقيادة حزب الله] صرّ أكثر تشاؤماً. فإعادة تكليف عمر كرامي، والحكي عن أن سوريا مرجعية للقوى الوطنية في لبنان، والتذكير بمساعدتها في إحباط ١٧

✦ أجريت الندوة قبل صدور تقرير لجنة تقصي الحقائق الدولية في جريمة اغتيال الحريري والضحايا الآخرين في ٢٥ آذار. (الأردب)

هل في تلك المظاهرات ما يفلح  
حول العلاقة السورية - اللبنانية؟

العودات العلاقة السورية - اللبنانية قد تبدو الآن سلبية، ولكن أظن أنها ستكون غير ذلك في المستقبل. هذه العلاقة هي أكثر من حالة عابرة؛ إنها علاقة لها شروطينها التاريخي والجغرافي والإنساني وهناك مصالح حقيقية للبلدين من الصعب على أي نظام سياسي، هنا أو هناك، أن يدير ظهره لها. وأعتقد أن هذه المظاهرات ستفتح جثماً إلى علاقات صحية ومؤسسية، وشاملة ومتنوعة.

أبو أيهم (ميشال كيلو)، هل في هذه المظاهرات، تظاهرات ساحة الشهداء وربما تظاهرات «الوفاء لسوريا»، ما يشير إلى أننا نخلخ على خط الكفاح الديمقراطي العالي؟

كيلو. أعتقد أن المظاهرات التي أعقبت موت الحريري، وحكّت عن الدولة وفتّحت المشاركين فيها تنفيذ الدولة الوطنية، هي جزء من حراك ديمقراطي. لقد كانت الساحة السياسية في لبنان مشحونة ومبعثرة، فإذا بقت الحريري يخدمها ويتبع بها إلى النزول إلى الشارع بمطالب وطنية عامة تتجاوز الطائفية. وهذا شيء ديمقراطي.

بالنسبة إلى المظاهرة الأخرى، فإنّ المرء يَرحل عندما يرى الجماهير في الشارع وهي تتبرع عن رأيها. إلا أنني أعتقد أن هناك أشياء غير مفهومة صاحب القول وإفعال قادة مظاهرة الموالاة. فقد قال هؤلاء إنهم يشاطرون قادة المعارضة أراهم تجاه الموقف من سوريا والطائف وإسرائيل وسلاح المقاومة وأميركا. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا نُظِّموا مظاهرة ضد المعارضة ولماذا نُصِّب السيد نصر الله نفسه خلافاً حاكماً عرغياً على لبنان، وخذل المسموح والمتنوع، وحكى عن خطوط حمراء وغير حمراء، بل وقشّخ

كيلو: لماذا نُصِّب السيد حسن نصر الله نفسه حاكماً عرغياً على لبنان، وخذل المسموح والمتنوع، بل وقشّخ بالسلاح؟

بالسلاح، وتباهى بالعدد، وجعلَ البندقية حاضرة في لهجة التشدد التي اعتمدها، والبارزة في صورة المشهد الخلفية بدل صورة الدولة اللبنانية الديمقراطية الحرة؟

ربما أسهمت هذه المظاهرة في إعادة بعض التوازن إلى الساحة اللبنانية

كيلو. أعتقد أن التوازن لم يكن قد اختل أصلاً. لأن مطالب المعارضة تأخذ في عين الاعتبار مصالح حزب الله، وتُكَلِّمُ الوقوف إلى جانب الحزب، إن كان سيستهدف، وتُصَفِّقُ ببنديته بأنها بندقية مقاومة والحقيقة أن موقف سماحة السيد هو الذي جعل هذه البندقية حزبية، بالعلمى الضيق والسلبى للكلمة. لأنه بالطريقة التي نزل فيها إلى الساحة جرّ نفسه من صفته شخصاً يقف فوق التناقضات ويمثل قضية المقاومة الوطنية العامة، وأصبح طرفاً أعتقد أن لكل الناس الحق في التظاهر، لكن ليس كل تظاهر - سياسياً - على حق.

اهذا مبشّر بخصوص الديمقراطية في العالم العربي؟

اميرالاي: ما يجري اليوم يُشَبِّه تماماً لعبة البولينغ، فاندفاع الكرة الصلبة نحو البيايق، مهما بلغت قوتها ويوقّع صدمتها، قد يوقع هذه البيايق، لكنه لا يستطيع أن يغيّر من شكل هذه البيايق التي يجري لها عادةً مع نهاية كل لعبة، لترتّب من جديد على التساق ذاتها بانتظار كرة أخرى، وهكذا. بمعنى آخر: إن هذه الطريقة «التسوقراطية» في تغيير الحال العربية تُخلِّلُ اليوم، وبصورة قسرية، مفاسل مجتمعات عربية ظلت لعقود طويلة محطلة مكبلة مستفحّة، إلى حدّ يثير عندي المخاوف أكثر مما يُشيع التفاؤل. خوفاً أن يأتي هذا التغيير الجامع والموعود في لبنان والعالم العربي ككرة البولينغ، التي قد تنفطر البيايق أمامها حين، لكنها لا تُلبّث أن تعود فتنتصب من جديد في نسقٍ آخر وترتيب مختلف. المطلوب منا توخّي الحذر فقط من مثل «هروجات» التغيير المصلطفة والقسرية هذه.

لماذا تستعيا قسرية؟

اميرالاي: لأنها تأتي تنفيذاً لأمران سلطاني صادر عن مالك الكون اليوم، وهو الولايات المتحدة، الذي يُقْبِرُ بقاء مجتمعاتنا كمنابع أبدية لإنتاج الإرهاب أمراً يهدّد أمنه واستقراره، ومن الضروري - في نظره - أن يجفّف هذه منابع ليزرع مكانها وراحيين بلاستيكية تُرضي نوعه القبيح. وهذا أمر غير سيئ في ذاته: فعنّ أي زهرة أو مصلطفة في حديقة وهمية خيرٌ من تَنَنٍ أقيية تخفق فيها شعوبٌ وأمالٌ منذ عقود.

كيلو: أريد أن أدلي بتعليق سريع على هذه القضية. إن الكلام الذي قيل لسان المعارضة اللبنانية أكد أنها لا ترى نفسها في السياق الأميركي. فهي تريد خروج الجيش السوري والامن السوري من أجل ترتيب جديد للعلاقة السورية - اللبنانية يُحمِصُ مصالح الدولتين كدولتين مستقلتين، ومصالح الشعبين كشعبين حُرَّين. أما في موقفها اللبناني، فقد قالت المعارضة ما يفيد بأنها سلمية وديموقراطية تراعي بشكل خاص مصالح حزب الله وتحترم الدولة. وأعتقد أن النشاط الآخر، الذي قاده السيد نصر الله، كان يريد أساساً وضع المعارضة أمام أحد بديلين. إما أن تُقبِلَ بالأمر الواقع كما هو، أو أن تُثَقِّقَ بغضبٍ حثيثٍ إلى احضان أميركا لأن وقوعها فيها سيؤكّد فرضيات سورية والحزب حول الطابع الأميركي لمواقفها.

العودات: أريد أن أعلّق على الموضوع نفسه. أعتقد أن الظروف نصحت في مجتمعاتنا لتقوم بعمل هذه الأعمال (أي التظاهرات المطالبة بالديموقراطية) فهذا الصف الذي مارسه الأنظمة منذ عدة عقود، وما يجري في العالم اليوم من تطورات، لابد أن يؤثّر فيها. نحن لسنا خارج

العالم' نحن في داخل العالم. لقد  
تضجّت ظروفٌ حقيقيةٌ جديةٌ كي  
يطالب الناسُ بالديموقراطية. لا شك  
في أننا نستفيد من حركات أخرى في  
بلدان أخرى، وهذا لا يُضير أحداً؛  
ولكنّه لا يعني أبداً أنه يدافع من  
أميركا، أو من الحلف الأطلسي، أو  
من أية جهات كانت. إنه نتيجةٌ طبيعيةٌ  
لما يجري في هذه البلاد، ونتيجةٌ  
لنضوج ظروفٍ موضوعيةٍ قائمةٍ فيها -  
سياسيةٍ وثقافيةٍ واقتصاديةٍ وغيرها.

هل نعني أن احتجاجات ديموقراطية  
مماثلة ممكنةٌ في عواصم عربيةٍ أخرى؟  
العواد: أنا اعتقد أننا سنشهد مثل  
ما جرى في لبنان في بلدان عربيةٍ  
عديدة فكما أجدي الأمل في  
الخارج، وأجدي في لبنان، سيُجدي  
في بلدان أخرى.

لسنا استثناء ديموقراطي، إذن؟  
العواد: بالطبع لسنا استثناءً.  
الشعوب لها ظروفها، ولها إمكاناتها،  
ولها مطالبها ومطامعها، ولها  
وسائلها أيضاً... بعض النظر عن  
مدى استبداد الأنظمة وشموليّتها.  
وعلى جميع الأنظمة أن تُقرّ ذلك.  
وأن لو كنّا في هذه الأنظمة لحسبنا  
ألف حساب لمل هذه المسائل.  
كيلو (متخلّلاً): سوريا ليست حلقةً  
الاستبداد الضعيفة في المنطقة؟

ماذا تعني؟

كيلو: لسنا متفانلاً مثل حسين، رغم  
أنّي اعتقدُ مثله أن البلد يحتاج فعلاً  
إلى الديموقراطية، وأن هناك مطالباً  
حقيقيةاً بها، وأن حاملها الاجتماعي  
والسياسي يتلوه أكثر فاكثير. بيد أن  
الأحداث التي تقع، والسياسات  
اليدانية التي تمارس في لبنان، تُبيّن  
أن سوريا ليست حلقة الاستبداد  
الضعيفة، وأن السلطة السورية لا تريد  
أن تتطوّل... أو أنها تتطوّل ببطء شديد.

أريد أن نُخرج الآن من الحدث اللبناني قليلاً، وأسأل: ما موقع الأزمة الراهنة في سياق  
ما يجري في العراق وفلسطين؟ أعني هل هي ضمن هذا السياق أم خارجه؟ هل يتعلق  
الامر بالتحول نحو الديموقراطية، أم بمحضر مرحلة جديدة من الهيمنة الأميركية، أم  
أنها شيء مختلف عن الاثنين؟ ما سبب الإجماع الأطلسي القوي على وجوب الانسحاب  
السوري من لبنان؟

العواد: إنّه ليست في سياق العراق وفلسطين. هذه ظروف لبنانية خاصة، محض لبنانية  
أما أن تكون قد تشابهت أو لم تشابه ما أوضاع أخرى، فهذا شيء آخر. كما أنّه إذا كان  
للأطلسي أو للولايات المتحدة وجهات نظر أخرى ورغبات ومطامع، فهذا ليست له علاقةٌ  
مباشرةٌ بما يجري في لبنان.

والقرار ١٥٥٩

العواد: قرار ١٥٥٩ ليس لبنانياً صرفاً، بل له علاقةٌ بكل المنطقة، وله علاقةٌ بالاستراتيجية  
الأميركية العامة ولكنّ ما جرى في لبنان غيرٌ مرتبطٌ مباشرةً بالقرار ١٥٥٩. ربما ما جرى  
في لبنان استندَ القرار ١٥٥٩ وسيلةً، لا العكس.

كان الشكّ الذاتي للسؤال يتعلّق بسبب الإجماع الأطلسي حول وجوب الانسحاب السوري.  
العواد: الطرف الأمريكي موقفه مفهوم: إنّه الاستراتيجية الأميركية. أما بالنسبة إلى الأوروبي  
فأظنّ أن هناك سليماناً مباشرةً وقعت على السياسة الفرنسية، وهي تريد أن تتلّ لخسارتها.

كيلو: أريد أن أبدأ من الآخر أولاً. اعتقد أن أوروبا اكتشفت العام الماضي أن خيارات النظام  
السوري أميركية، وأنّه يتلاعب بوظيفته من أجل تحسين مساوماته مع أميركا، لذلك قرّرت  
التخلّي عنه وتركه لأميركا (فلفظاً تصارع أوروبا من أجل النظام، إذا كان خيارٌ هذا النظام  
أميركياً) وقد كان واضحاً يوم ٨ حزيران الماضي خلال اجتماع الثمانية الكبار في أميركا أن  
الجانب الأوروبي، وخاصةً فرنسا وألمانيا، أبلغ أميركا موقفه على أن تفعل ما تشاء بالنظام  
السوري، الذي قدّ ثقة أوروبا. ثانياً: يجب أن نعيّر بين فلسطين ولبنان من جهة، والعراق من  
جهة ثانية. في فلسطين، هناك مسألة وطنية وسُعت الانتخابات التي خُصّلت، ووُحدت قاعدتها  
الشعبية الاجتماعية والسياسية - العريضة والواسعة أصلاً بهذا المعنى، كانت الديموقراطية  
الفلسطينية ممارسةً نضاليةً وطنية، ولم تكن ممارسةً من داخل النمط الأميركي الذي يتحدّون  
في واشنطن عنه. أما لبنان، فقد انطلق الحراك الديموقراطي من جهات اجتماعية وسياسية  
واسعة جداً ومتنوعة، بعد حادث جالو و قتل الشيخ رفيق الحريري، هذا الحدث النوعي رنم  
الكثير من تناقضات الأطراف اللبنانية بمعارضاتها للفرقة، ووحدها، وروّدها بشعارات  
ومواقف وطنية، وروّدها بدورها خارج النسق والسياق الأميركيين، وجعلها تنبئ علاقةً  
أخرى مع سوريا. وهذه العلاقة تقوم على المشتركات والتاريخ، وتُكّن عزيمتها على مواصلة  
علاقة العداء ضد إسرائيل، ورغبته في حماية السّلم والأخوة في الداخل اللبناني أما في  
العراق، فلا يستطيع المرء إلا أن يلاحظ حصول الانتخابات بعد أربعين عاماً من الاستبداد  
الأمعي، رغم أن هناك انفضالاً خفير النتائج بين الوطنية والديموقراطية، وخطراً طائفياً أكيداً  
يهددهما معاً، الأمر الذي قد يُفيد أميركا كثيراً ويتفق مع صورتها للمنطقة.

العواد: فيما يتعلق بالموقف الأوروبي أتفق مع الاستاذ ميشيل. لقد اكتشف الأوروبيون  
أن السوريين وغير السوريين يستخدمونهم وسائل لتحسين مواقعهم الأميركية، وأن الورقة  
الأوروبية ليست في ذهنهم.

بهذا المعنى فإنّ قرار الانسحاب السوري من لبنان لن يفيد سوريا، إذ سيبقى التحالف  
الأوروبي - الأمريكي ضدها ثابتاً؟

العواد: أظنّ ذلك؛

اميرالاي. اعتقد ان ما يجري اليوم في لبنان هو بمثابة خلمة لبنانية - عراقية، من حيث دخول عنصر المالكي إلى ساحة القرار السياسي في لبنان وما مشهده النصف مليون متظاهر الذي رايانه في ساحة رياض الصلح في بيروت [فُتِرَت المصائرُ الأجنبية حُجْمَ التظاهرات المذكورة بملحون وستعنة ألف - الأدب] إلا دليل على ولادة سيستاني ثانٍ في لبنان، قادر من زاوية حسنيته على أن يحرك مجاميع اتباعه في الشارع، ويُقرض هيئته على أية عملية ديمقراطية ممكنة في البلاد. إنه، بواشي، شكل من أشكال إعادة إنتاج الشمولية السياسية بطريقة أخرى. شمولية كهنتية فاشدة على أن تُولَّطُ الناس، وتُحكم بوعيم وبقراهم السياسي بالفتاوى، وتُجسِّسهم تحت شعارات تُشرف جميعاً عقابيلها. لكنْ اُبشع أنواع الإيديولوجيات في رايي هو ما يُشهِده العراق اليوم من إرهاب، حيث يُجهد التعمصُّ الإسلامي بالقرص في ابهى صوره. علينا أن ننتظر بعض الوقت لنرى ما سيُفَعَّرُ عنه قرأُ حزب الله حين يُخضِرُ جدياً في الحياة السياسية الداخلية للبنان، ويتخلل عن رداء العفة المصطنعة بوصفه مقابلاً مستحقاً فوق كل الشبهات. لنز كيف سيتصرف هذا الحزبُ على ضوء الانتسابات النيابية القائمة وعملية إعادة تشكيل الخارطة السياسية الداخلية للبنان، بغياح الزافع السوري وانحصار التقييد الشعبي لمهمته كتمهتير حصري لـ مكاره القمامة؟

**كيلو:** اوافق على ما قاله عمر. انا تصدأت عن الجانب الآخر، عن الفرق في الصركة بين البلدان الثلاثة، لأؤكد أن اميركا ليست وراء الديمقراطية الفلسطينية واللبنانية

**القرار ١٥٥٩ تُصنِّع مطلبين هما:**  
**الانسحاب السوري ونشر الجيش**

**اميرالاي:** إن عبق أي زهرة، ولو مصطنعة، في حديقة وهمية خير من تن أقبية تختنق فيها شعوب وأمال منذ عقود

اللبناني في الجنوب وتجريدُ حزب الله من سلاحه - ما قد يعني تكثيفه وضربه. ويبدو أن هذا يطرح معضلة على استقلال لبنان واستقراره. كيف يُمكن تجنُّب هذه المعضلة كيف يُمكن ضمان استقلال لبنان عن سورية من ناحية، ووحدة اللبنانيين من ناحية ثانية؟ ذلك أنه إذا أردت أن تجرد حزب الله من سلاحه، فستجاذف بالاستقرار والوحدة

**العودات:** بخصوص ما سُمِّيَه «استقلال لبنان عن سورية»، أظن أن سوريا لن تستطيع بعد الآن أن تتدخل بشكل مباشر، وأن يكون لها نفوذ عسكري أو غير عسكري مباشر. ستكون لها قوى خفية، شأن ما لكل الدول لدى الدول الأخرى. وقد يكون لها نفوذ أكثر من غيرها، وذلك بحكم طبيعة علاقاتها، وطبيعة المصالح بين اللبيلين، وطبيعة القوى التي نشأت؛ ولكن هذا النفوذ لن يكون مباشراً. ومن ثم أظن أن ما تسميه «استقلال لبنان» سيتحقّق بلا جدال بشكله الرسمي، ويقتض النظر عن اللاب التحتي

فيما يتعلق بحزب الله، أظن أنه لن يكون بعد الآن كما كان في السابق، فالقطاع السوري والإيراني سيُرفع عنه التاكيد، وسيجد اللبنانيون طريقة ما لبقاء حزب الله وتحويله إلى صيغة مختلفة. ولكنّه لن يكون الوحيد صاحب القرار في الجنوب والحدود وضرب إسرائيل، ولنما شريكاً أساسياً فحسب في هذه المسألة. وستبقى اللبنانيون على إبقائه لفرقاً ما على أساس أنه قوة لبنانية ومقاومة

**هل يُشغل باله البند الخاص بتجريد حزب الله من سلاحه**

**العودات:** لا. فانا واثق بأن لا حزب الله ولا غيره يستطيع أن يُشغل حرباً أهلية في لبنان، وأن يبقى قوة مسلحة. سيجد اللبنانيون يوماً حلاً لهذا الأمر. وبالتالي لا يشغلني أنه سيهيمن على لبنان أو سيقسم نظاماً شمولياً، ولو بشكل غير مباشر. ولا أظن أن الإيرانيين، أساساً، يراهنون على ذلك، بل يُمكن أن يبيعوا حزب الله أو غير حزب الله بشئ ليس غالياً!

**كيلو:** يمكن أن يسير استقلال لبنان ووحده بداً بيد، خاصة وأن المعارضة لا تريد تجريد حزب الله من سلاحه، بل قد يترتب على ذلك من خطر على التفاهم اللبناني الداخلي، ولأن السلاح يُمكن أن يصير سلاح لبنان كله قولاً وفعلاً إذا كان قرار سوريا بالانسحاب سيُطبق، ويتحقّق الاستقلال، فإن السؤال سيصبح: كيف نحافظ على وحدة اللبنانيين، ونوسّع في الوقت نفسه قاعدة التفاعل الداخلي الديموقراطي والسلمي للحفاظ على تلك الوحدة في وجه الخارج الأميريكي - الإسرائيلي؟

أود الحديث عن مقالة كتبها قبل عامين مسؤول سوري قال فيها إن وجود سوريا في لبنان مصلحة أميركية - إسرائيلية استراتيجة؛ فإذا ما «اجبروا» على مغادرة لبنان، فسيحتل ذلك إلى نقطة يتجنّب فيها الفلسطينيين والأصوليون، وتتفجر أوضاع البلد وتتوسّع مشاكله وتتشر في دول الجوار، بحيث تستحيل تهدئة دون عودة جيشنا من جديد إليه.

عندما نذكر أبو عرس [لأنهم بعملية اغتيال الحريري] وقالوا إنه فلسطيني/ أصولي، تذكرُ القاعة وقلت إن الوضع في لبنان قد لا يكون ذاهباً نحو التهدة مع خروج الجيش السوري، وإن سورية قد لا تُزَّغ في علاقة تُقيها داخل لبنان بالمعنى الآخر الحقيقي - وأقصد المعنى التاريخي والثقافي والديني، ومعنى المصالح المشتركة القائمة على علاقات ندية ومتكافئة - لا بمعنى حزب الله، الذي يُكلم الجميع أن مهمته انتهت تجاه إسرائيل، وأنه قد يتجرّ بلع نور رقيب على جيش ودولة وشعب لبنان، دور سيكون - لا سمح الله - كأثرة على لبنان وسورية

والعرب. اعتقد أن الديمقراطية ستواجه مصاعب كثيرة قبل أن تصل إلى لبنان المستقل والحر. واعتقد أن الوضع يُلحِق علينا مجموعة مهمة من الأسئلة، منها هل يمكن إقامة الديمقراطية في بلد كـلبنان دون مصالح وطنية شاملة مع حزب الله، ودون تقاض محقق مع سوريا؟ اعتقد أن على المعارضة اللبنانية التركيز على هذه النقطة، لأن الديمقراطية ستكون صعبة جداً من دون حلها، ولأن تجاهلها يُلحِق أبواب التدخل الخارجي والاختراقات الأجنبية لدى جميع الأطراف، ويُثَبِّت عبرها أبواب جهنم. انصهر أن إخواننا الذين أعلنوا انتفاضة الاستقلال استُشْهِلوا الأمور، وانصهر أن عليهم الحفاظ على الرابطة الحاسمة بين الوطنية والديمقراطية، وإلا ضاع كل شيء. واعتقد أن ما حصل أخيراً يُجبرهم على إعادة النظر في ترتيباتهم، ولو كثرت مشاكلهم لفعلت ذلك بسرعة وعقاراً.

أميرالي: يشي خطاب حسن نصر الله في تظاهرات الرفض السورية بأن شمة وكالة قد أُعطيت له من قبل السلطات السورية ليكون راعي مصالحها وضامن استمرار هيمنتها وتدخلها في لبنان بعد انسحاب قواتها ومخابراتها منه. إنها وكالة شبيهة بالتي اعطتها الانسحاب الفرنسي للطائفة المارونية قبل جلاء قواته من لبنان، عندما منحها ضمانات سيادية في دستور عام ٤٧. جعلها تتحكم بمفاصل القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي في البلاد لثلاثة عقود. واليوم اعتقد أن شمة صفقة مماثلة قد تم إبرامها بين دمشق وحزب الله في لبنان بتزويد هذا الأخير بما هو أمضى وأخطر بكثير من أي ضمانات دستورية، إلا وهي ترسانة السلاح التي ستبقى حتماً محوزة الحزب إلى أمر غير قصير. ما أحشاء غد؟ هو أن يُلحِق

الحزب بقرساته العسكرية، التي تُثَقِّق قدرات الجيش اللبناني النظامي، تحت قبة البرلمان كلما عارضه أحد، أو اعترض هو على قرار أو قانون!

كبلو: قبل التحول إلى سؤال آخر. أريد ذكر مفارقتين شبيهتين موقف حزب الله الأولى هي أن الاتفاقية التي تنظم علاقات لبنان مع العدو هي اتفاقية الهدنة، لأن لبنان لم يُخَلِّ حرب ١٩٦٧ ولا ينطبق عليه القرار ٢٤٢. ومن هنا، فإن وحدة المسارين تعني أن سوريا ستخلد لبنان إلى سلام كامل مع إسرائيل بل اتفاق الهدنة فما هو موقف حزب الله كحزب مقاومة من قضية حساسة كهذه؟ ولماذا يتجاهلها منذ ثيف وعشرين عاماً؟ إذا كان الحزب يُرفض السلام، فعليه المطالبة بـ وحدة المسارين السوري - اللبناني، وعليه أن يُكَلِّم رسمياً أن يُرفض أخذ لبنان إلى سلام لا تُزَمُّه المعاهدات الدولية به ولا حاجة به إليه مادام اتفاق الهدنة ساري المفعول دولياً. أما لا أفهم منطق حزب الله، الذي يتحدث عن نفسه كحزب مقاومة، ثم يسكت على هذه القضية الخطيرة الفارقة الشافية. إذا كان حزب الله يفتش أن تكون الخطوة التالية نزع سلاحه بموجب القرار ١٥٥٩، فهل يزيل خوفه بوضع نفسه في مواجهة القوى اللبنانية الأخرى، أم يزيل ذلك الخوف من خلال إقامة علاقات حسنة معها - خاصة إذا كانت هذه القوى غير معادية لسورية بل تريد علاقات مميزة معها، وتعارض نزع سلاحه، وتتعهد برفض عقد سلام مع إسرائيل وإقامة علاقات صداقة مع أميركا. وتؤيد الطائف سقفاً لسياساتها؟ إلا يُكَلِّم حزب الله في موقفه من هذه القوى، لمجرد أنها تعارض الوضع اللبناني الرسمي الحالي؟

أميرالي: صحيح أن ما أقوله يبقى فرضية مبنية على ثبات الوضع السوري والحكم القائم فيه، لكنني لا اعتقد أن شيئاً سيقبَل حتى في حال تبدل الأمور هنا. ذلك لأن ما خلّفته السلطات السورية وراها في لبنان هو تبنّي موقف لا يزيل خطرها رغم أية تغيرات محتملة؛

العودات: لي تعليق صغير. هل تعتقدون أن المظاهرات التي خرجت بقيادة حزب الله هي لتأييد سورية أم للدفاع عن حزب الله؟ أنا أظن أنها للدفاع عن حزب الله. وعندما يجد الجِدُّ فإن مصالح سورية معروفة، وإن تجد أحداً يضحّي بمصالحه الوطنية أو بمصالحه الذاتية من أجل سوريا!

في المرحلة القادمة، حزب الله محتاج إلى القوى الأخرى كخطأ سياسي. فسوريا وحدها لا تكفيه...

كبلو: أخاف أن يكون تكتيك سوريا قائماً على ازدواجية صارخة وخاطئة من أجل دفع الأمور إلى مواجهة تخوضها القوى الوالية في لبنان، إذ يعتقد بعض ساستنا أن أوراقنا القوية هناك تمكّننا من مجابهة أميركا وأوروبا وإسرائيل. وعليه، يشجب الجيش ولكن تشتغل «الأوراق القوية». هذا الشكل من التكتيك لن يُنجح، ويُستحسن أن لا يكون معتمداً من أحد والبديل هو: العلاقات الحسنة مع لبنان الحر والمستقل، والمصالحة مع الداخلين اللبناني والسوري. وعلى كل حال، ليس من مصلحة حزب الله الانسحاب اللبناني وعربي، ولا التحول إلى حزب مسلح يُزيد نصف طائفة.

لماذا قررت سورية الانسحاب من لبنان؟ هل تؤيدون القرار؟ وكيف ستكون انعكاساته على سورية وأوضاعها الداخلية؟

العودات: لقد قررت سورية الانسحاب لأنه لم تعد لها مصلحة في البقاء. أما ما كان يقال عن الأمن القومي السوري فلظن أنه لم يكن في أوابية اهتمامات السلطة هنا. وعليه، كان يجب أن يتم الانسحاب منذ زمن، فإرتاح الجميع، لا من ناحية أخلاقية ومن ناحية مبنية فحسب، بل من ناحية العلاقة بين البلدين كذلك. إذ كيف يُبيع لأنفسنا أن نُقل ما عمل في لبنان، من تعيين رئيس البلدية والمختار وصولاً إلى رئيس الجمهورية؟ تتدخل في الشركات والبنوك والاستثمارات، فضلاً عن سياسة المضاربة والنهب المباشر. ولا تبيع تلك الممارسات لا علاقةً بالبلدين والمسارين، ولا سوا زينة، ولا كل الشعارات الماثلة. والحق أن الوجود السوري كان يذني الشعب السوري نفسه لأنه كان يؤمّه بلوراق قو في لبنان، فيما ينطق

بالأمن القومي والصراع العربي - الاسرائيلي ولكن هذه الأوراق لم تعط شيئاً ولن تعطيه شيئاً في الواقع، فليفت هذا اليوم: الانسحاب ستكون له نتائج إيجابية. كيف لأن أهل السلطة قد يُهجمون أنهم في حاجة إلى اليات جديدة ومناهج جديدة للتعامل مع شعبهم ومع المنطقة إن المنهج السابق والوسائل المسابقة كلها باطلة الآن، ولو افترضنا أنها افادت في السابق فلن تفسد الآن. ولا يمكن أن تفيد في المستقبل. عسى أن ينعلم ساستنا أكثر، ويُعلوا للعبة السياسية حسب إمكانياتهم الحقيقية لا الوهمية

**كيلو:** أؤيد الانسحاب السوري من لبنان، وأتفق أن يكون تاماً، وأن تقوم بين سوريا ولبنان علاقات تركز على مصالح ملموسة بين دولتين حُررتين ومستقلتين وتقسم بالطوعية والشفافية. إن انسحاب سورية من لبنان مهم للشعب السوري ولشعب لبنان؛ ذلك لأن الدور الإقليمي الذي ورثته من حقبة الحرب الباردة يستلزمها مع ذلك الانسحاب، ولأنه يفتح الباب أمام البحث عن دور بديل يقوم على أسس مختلفة - صكبة ومنسجمة مع مصالح الجماعة السورية واللبنانية والعربية. لقد انتهى هذه الدور في العراق، بل يوجد تنسيق [سوري] مع الأميركيين هناك. وانتهى في فلسطين، حيث سُمِّتاً رسمياً وعلنياً بجزء مصري مقدر، ولبنان من الإخوة في معمار، والجهاد، التفاوض مع منظمة التحرير تحت إشراف مصر. إن نهاية الدور الإقليمي السوري تعني إعادة تعريف نظامنا، وإعادة تعريف سياسته الخارجية، وإعادة تعريف البلد من بابه إلى مهابه، وتعني أيضاً أننا لن نستطيع بعد الآن إكمال الطريق بالنية الحالية التي مكّنت السلطات السورية في السابق من اللعب كثيراً مع أميركا وإسرائيل والسوفييت والسعودية والعراق ومصر وأوروبا.

**العودات:** الانسحاب ستكون له نتائج إيجابية لأن أهل السلطة | السورية | قد يفهمون أنهم في حاجة إلى اليات جديدة للتعامل مع شعبهم ومع المنطقة

لكن هذا كله صار من الماضي، وهذه البنية القديمة مستصير عبثاً ثقلاً علينا؛ فإما أن نضع بالنظام إلى مواصلة قهر الشعب لأننا بنية أمنية أساساً، أو أن يتجه أخيراً نحو توافق وطني ومصالحة وطنية وروية مختلفة، فيكون الانسحاب من لبنان أمراً مفيداً، ونصعد سورية خطاً.

**أميرالاي:** أؤيد كلام أبو أيهم حول وجود أزرع اصطناعية للنظام خلّقتها لنفسه خارج سورية، وإحباط خفيفة أيضاً طالما استخدمها «المليارات» السياسية مع القوى الكبرى. إن ضمور الدور الإقليمي للسلطة مؤخراً، والذي ظل إلى عهد قريب المصدر الثاني لقوته (بعد الأجهزة الأمنية طبعاً)، يُعتبر بلا شك فرصة تاريخية أمام المجتمع السوري كي يتعامل مع سلطته للمرة الأولى دون أزرع وهمية وتطلّعات وشعارات ديماغوجية كـ «قلب العروبة الناضرة» للأخوين دائماً على حساب سورية. لذلك فإن الحكم في رأيي سيُعلن للضغوط الخارجية في نهاية الأمر، وسيُضطر كغيره إلى أن يبتلع من جلده، بالاعتراف أولاً بشعبه، ومن ثم بقبوله مشاركة الـ ٩٩,٩٩ بالمئة له في السلطة. أنا اعتقد أن المؤتمر القطري القادم سيُحلّ معه رياح تغيير اكيدة على الصعيد الداخلي، هذا إذا استمر الضغط الدولي على حاله، من دون تحكك عسكري طبعاً. فكما ازداد الضغط الخارجي على الحكم تطلّعت بهذا الأخير سبباً للتنازل، ويوجد نفسه مرغماً على التعامل مع حقائق بلده الداخلية ومطالب شعبه. أنا استبعد فرضية انهيار النظام؛ فالبحث، كتيار قومي ريفي ذي جذور تاريخية، سيبقي حتماً ممثلاً لقواعد جماهيرية واسعة من المجتمع السوري. لذلك علينا ألا نتوهم انقراض هذا التيار بين ليلة وضحاها، سواء أتى ذلك بقرار خارجي أو داخلي.

**كيلو:** يُزعم الانسحاب من لبنان آخر ورقة من أوراق الشرعية من يد النظام، ورقة النضال القومي - وخاصة النضال الكلامي ضد الصهيونية والإمبريالية - ويؤجبه على رؤية المسألة القومية والوطنية (وفي محرقها قضية الجولان) بمنظور أكثر جدية وأكثر عملياً إلى هذا. سيكون الداخل هو الموضوع الرئيس. وربما الأخير، الذي يتعامل معه بهذا المعنى، لن تكون لدى النظام مساحة يُزبّ إليها من مشكلاته.

**هل ستنتهي الضغوط الأميركية بعد قرار الانسحاب؟ هل هناك إيجابية غير مقصودة لتلك الضغوط على قضايا الحريات والإصلاح السياسي في سورية؟**

**العودات:** أعتقد أن النظام السوري الآن يواجه خطّ اللغز الأخير. ذلك لأنه خسر أوراقه اللبنانية، وخسر أوراقه العراقية، ولن يُقبل الأميركيان بالصفقات بعد الآن؛ فهؤلاء يريدون البلد بأكمله، ويريدون تنفيذ سياستهم بأكمله. إذن صارت المسألة داخل حدود سورية. إذ لا يمكن لهذا النظام أن يواجه الضغوط الأميركية، مهما كانت أهدافها، إلا بالعودة إلى شعبه. بإقامة وحدة وطنية، وبحرية تشكيل الأحزاب، وبإصلاح اقتصادي حقيقي وجدي، وبمقاومة الفساد، وفصل السلطات، وإصلاح سياسي حقيقي يتناول كل جوانب الحياة في هذا سورية، بمشاركة الناس في السلطة والثروة. لكنني لا أعتقد أن النظام سيسير في هذا الاتجاه، بل سيبقي يعيش باليوم، وسيعتقد أنه أقوى من شعبه وأنه قادر على المواجهة، وسيستيقظ أحداث الماضي بالحاضر رغم تغير الظروف، فيطبق قوانين الحاضر على الماضي وعلى المستقبل. وهذا كله يؤدي إلى نتائج سلبية.

**مصيره تحدث، إذا كان الأمر كذلك؟**

**العودات:** إذا استمر ولم يغيّر رأيه في آخر لحظة، فسيكون المستقبل صعباً جداً. فهو يواجه صعوبات داخلية، وتمارس عليه ضغوط خارجية. أمام هذه الحالة ليس لديه خيار إلا



الوحدة الوطنية، التي يرفضها حتى الآن. إنه يرفض المعارضة.. يرفض الرأي الآخر.. يرفض الحريات.. يرفض التعامل العقلاني.. يرفض مكافحة الفساد

ولكنّ هنالك هناك نتائج إيجابية محتملة للضغوط الخارجية في قضايا الحريات والإصلاح الداخلي، لا تتخطى عتبة انهيار النظام؟

العدوات: دون عتبة هذا أمر آخر. هناك ضغوط، والضغط يستجمل معركة الحكم السوري داخل حدود سورية. فكيف سيراجه هذه الحركة؟ وبين سستقوي؟ هل سستقوي شعبه؟ هل سيجد الأليات جديدة لقائمة هذه الضغوط أم يستمر في نهج التعامي وإدارة الظهور وعدم احترام الرأي الآخر وعدم الشعور بأهمية الناس في الدفاع عن أنفسهم؟

كيلو: سستقوي الضغوط. يوش نفسه أعلن أنها سستقوي. والكونغرس الأميركي تشرّ مسؤولية قانون تهريب سورية منذ إقام في رأيي. أمام النظام طريق من اثنين: إما الدولة الأمنية مع أن كلّ ما يُحدث الآن يُهدّد فشلها، وإما إعادة النظر في موقفه وسياساته ومحاولة إنتاج وضع يقوم على حلول وسط مع المجتمع والمعارضة، فيستقوي بالشعب والمجتمع والناس

هل هناك احتمالاً ١٧ أيار سوري يمدّد عمر «النظام الأمني»؟

كيلو: باعتقادي لا. ذلك لأن أميركا منعت إسرائيل من الاتصال بهم [بالسوريين] عندما غرضوا عليها مفاوضات دون شروط مسبقة وبدون شرط الانسحاب من صفة بحيرة طبرية، وقالت لشارون. إن مكافحة قتل جونيوات في العراق أمر ممنوع؛ وأنّ نظام سورية «نظام ضعيف» لا يستطيع أن يفعل لكم شيئاً. إن رفضتم إعادة أراضي المحتلة. اعتقد

أنّ الأميركيين يفكرون بإعادة الجولان إلى نظام سوري بديل لتكوين هذه الإعادة هي البداية التي سينطلق منها بحجة أنه [أي النظام البديل] هو الذي رغب الاحتلال عن كاهل سورية وحزب الجولان. إلخ. أخيراً، اعتقد أنّ هامش الخيارات ضاق إلى درجة كبيرة، لأنّ الدول الأمنية قد تم خياراً بل هي الهلاك عينه، ولأنّ النظام يبدو وكأنه لا يستطيع تطوير أية بدائل

أميرالي: ما أخشاه هو أن يُعَدّ الحكم السوري، بسبب الضغط الشديد عليه، صفقة أخرى من صفقاته على حساب شعبه أي أن يضحى أمام الضغوط الخارجية لقاء صفقة تُطيل أمد بقائه في السلطة، مقابل بعض الإصلاحات الواهية التي تقلّ عزّزته عن المجتمع السوري؛ صفقة على غرار ما جرى في مطلع الثمانينات، مثلاً، بين الحكم والغرب بشأن أحداث الإخوان

العدوات: أنا اختلف قليلاً مع ما قيل. من الصعب أن يُعَدّ الأميركيون صفقة مع النظام، لأنّ الظروف وقوتهم تجاوزت كلّ هذه المسائل. الأميركيون يريدون للنظفة بكاملها، يريدون نظاماً جديداً. وحتى لو حدثت مثل هذه الصفقات الجانبية فإنها ستكون بشروط جديدة. فتح الحدود، وصحافة، وحريات، وديمقراطية... على الطريقة الأميركية طبعاً. وحتى لو أُقيمت مثل هذه الصفقات فستكون نتائجها مختلفة كلياً، وإن حافظ النظام على ماهيته وميزاته

سؤال أخير ووجيز: كيف ترون مستقبل بلدكم؟

العدوات: أنا قلق بلا شك، ولكنني لست متشائماً أبداً لأنّه لم يعد بالإمكان الاستمرار بهذه الحال ولا التكوّن إلى الخلف لا بد من إجراءات أخرى، وكلّ إجراء يؤدي إلى إجراء آخر؛ إنها عملية أوليية صاعدة. لن يكون الحال في المستقبل القريب كما هو الحال الآن، والشروط الدولي والإقليمي والمحلي والداخلي يُلْزِم هذا النظام بالإصلاح السياسي. قد يبدأ هذا الإصلاح جزئياً ولكن قد ينتهي بإصلاح حقيقي وتتداعى أشياء كثيرة جداً.

كيلو: أنا قلق وخائف على البلد وعلى لبنان. هناك مجموعة ظواهر يجب أن نُقلقنا، منها أن النظام قدّذ الغطاء العربي والدولي والمحلي، ولكنه يواصل التعامل مع العالم بعقلية ميزان القوى التي طالما تعامل بها مع الشعب السوري. من واجبنا أن نخاف على شعبنا ووطننا من سياسة تتجاهل أن سوريا بلدٌ ضعيف ومنهك، أرقه القمع والإفقار طيلة أربعين عاماً، لكنّه يُوضَع فجأة في مواجهة العالم، بعد أن عرّض وقد تواصل مع الحقائق.

أميرالي: استعرضنا حتى الآن معظم التكهّنات حول كيفية تصرف السلطة مع المستجذبات. لكنّ ما يشغلني اليوم أكثر هو كيف سيتصرف المجتمع السوري حيال ما تحبّب له الأيام المقبلة من مفاجات. بصراحة، أنا لا اعتقد أننا على دراية كافية بما يجري داخل مجتمعنا وما يحتمل فعلاً في صدورنا. سؤالنا ما هو الدور الفعلي الذي سيلعبه المجتمع السوري في صنع التحولات القادمة؟ هل سيكون دوره، كسابق عهده مجرد أداة طيعة في يد السلطة؟ أم أنّه سينجح هذه المرة في أن يكشف قدراته على التأثير في خيارات النظام الحاكم؟

دمشق

حسين العدوات

كاتب وباحث سوري

ميشيل كيلو

كاتب سوري.

عمر أميرالي

مخرج سينمائي سوري

ياسين الحاج صالح

باحث سوري.

## كي لا يكون الآتي أعظم!

□ سماح ادريس

الى جوزيف سماحة ونزيه ابو غضن

اللبنانية - الفلسطينية المشتركة أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، والأهم ألا تُفقد عن الدعم الحاسم الذي قمنه النظام السوري للمقاومة الوطنية اللبنانية من أجل تحقيق أول انتصار عربي حقيقي عام ٢٠٠٠ على الاحتلال الإسرائيلي، وإن كان ذلك الدعم قد اقتصر في العقد الأخير الذي سبق التحرير على قوى حربية محدودة (حزب الله وحركة أمل) يُسهل التحكم السوري بقرارها - حرباً أو سلباً - وأخيراً فإن علينا - حتى من منطلق المصلحة اللبنانية وحدها - أن نقدّر وقوف النظام السوري إلى جانب المعارضة الفلسطينية الحالية والمقاومة العراقية، رغم أن ذلك يتكافؤ بالقرابيع من جرّاء الضغوط الأميركية.

كلّ ذلك صحيح، ولكنّه لا يُفكّر الصورة السلبية الطاغية للسياسة السورية في لبنان: من وفوقها منذ اللحظة الأولى للدخول العسكري السوري إلى لبنان طرفاً في الخلافات اللبنانية - اللبنانية<sup>(١)</sup> إلى تصرّفات كثير من جنوبها بمنطق الاستعلاء والضمونية حيال المواطن اللبناني العادي: إلى إسهامها «المشهد له» في تنمية وترسيخ طبقة لبنانية فاسدة تبادلت وإيهاها للمنافع المادية ولو خربت عشرات الصفحات لما استطعنا أن نستقصي السلبات التي أخضع لها لبنان على يد تحالف لبناني - سوري كان أكثر إطفاء غير معنى البتة بالمصلحة الوطنية ولا القومية (بل كان بعض «الحلفاء» اللبنانيين من أصحاب السوابق في التعامل مع العدو الإسرائيلي، وارتكاب المجازر بحق الفلسطينيين والمسيحيين والمسلمين). وقد اعترف الرئيس بشّار الأسد باخطأ السياسة السورية في خطابه الأخير أمام مجلس الشعب، ولكنّ كلاً يَبقى ناقصاً ومبتوراً على طريقة «النقد الذاتي» الذي نقنأ به - نحن اليساريين العرب - لكي لا تُصلح ما خربناه وإيئنه، حرصاً على مستقبل العلاقات بين البلدين (الذين سيبقيان جارين شتاءً أم أرباباً)، جرّده سلبات السياسة السورية واللبنانية معاً، ولو اقتضاه ذلك خطاباً «كاستروياً» من سبع ساعات! أم أن تلك «السلبات» هي جرّء متواصل في بنية الفكر القومي النظامي القديم، ولا يُمكن تصحيحها إلا ببنيان فكري وتنظيمي جديد؟

أيّا يكن الجواب، فإننا لم نكن لنتمنى أن يكون انسحاب القوات السورية من لبنان استجابة لضغوط أميركية وأوروبية ذلك أن «إنزال [سورية]»، وتنافس الزعماء الغربيين في إصدار التعليمات لدمشق، وإسراهم على ضرورة امتثالها للإرادة الغربية، شُغِفَت الضمير العربي<sup>(٢)</sup>، نعم، كنّا نتمنى (غير أن السياسة ليست بالمتعمّيات) لو خرّج الجيش السوري

خلفات الأسابيع الماضية بتحوّلات زلزالية طاولت النظامين في سورية ولبنان، كما طاولت «المعارضة» والموالاة، والشقيين على حد سواء. ومن الواضح أننا لن نستطيع أن نفهم ما جرى، ناهيك عن أن نتلمّس طريقاً خارج هذا النفق المظلم، إن لم نتوقّف عند جملة من الأخطاء والخطايا التي ارتكبتها جميع هذه الأطراف

♦ ♦ ♦

إنّ أحداً لا يُمكنه الدفاع عن الممارسات السورية في لبنان صحيح أن علينا ألا ننسى الدور السوري الكبير في تخليصنا من اتفاق ١٧ أيار «النادر» (بتعمير الرئيس أمين الجميل) - وهو نادر حقاً لأنّه (كما قال د. عزمي بشارة في جلسة خاصة) يركّس تحالفاً بين العدو الإسرائيلي وفلعة من اللبنانيين خلافاً للاتفاقات العربية - الإسرائيلية الأخرى. وصحيح أن علينا أيضاً ألا ننسى الدماء الزكية السورية التي امتزجت بدماء القوات

١ - لتذكّر أن القوات السورية جاءت إلى لبنان في الأصل، كما يقول روبرت فيسك (الإنتهنته ٨ آذار ٢٠٠٥)، تلبية لدعوة «المسيحيين الموارنة من أجل حمايتهم من فلسطيني يسر عرفات».

٢ - فهمي مويدي، السفير ١٥ آذار ٢٠٠٥.

باتفاق عربيٍّ ما، ولكنَّ - وسط غيابٍ فاضحٍ لمؤسسات عربية جامعة كما هو حالُّ الجامعة العربية - ليس ثمة من يترقُّ الخلافات بين البلدان العربية.

لقد «أُكِّلتا الضربة» كما يقول التعبير الشعبي، لبنانين وسوريين، رغم أنَّ بعضنا بهللاً احتفالاً بالتصرُّم المبين، اللهمَّ الآن أنْ نُحصد من الخسائر قدرَ المستطاع، فالخروج السوري قد لا يؤدِّي، بالضرورة، إلى حلول الديمقراطية في لبنان، ذلك أنَّ البديل المطروح الآن هو تمسوية اميركية - فرنسية (القرار ١٥٥٩) مكان التسوية الأميركية - السورية - السعودية (اتفاق الطائف)؛ ولا داعي إلى الاستطراد في الحديث عن نوايا السياستين الأميركية والفرنسية حيال لبنان ومقاومته، استناداً إلى الماضي القريب والبعيد، ولكنَّ الأهمَّ الآن هو ألا يُعتبر السوريين خرجهم هزيمة تذكُّر لهم، وبالمثل، فإنَّ على المعارضة اللبنانية ألا تتصرَّف وكأنَّها انتصرت، فالحال أنَّ سورية ما تزال «قوة سلبية»<sup>(١)</sup> وهي ما تزال قادرة على التصرُّك بكثيرة إن تكلَّبت في صالح أحد... إلَّا إسرائيل والقرب الاستعماري طبعاً، لقد عانى المواطن اللبناني العادي ممارسات الأجهزة السورية في لبنان، ويات يثوق إلى أن تستفيد السلطة السورية من خطاياها الفادحة، فتُضخَّ إلى فصح المجال أمام الضميين للتواصل الحسن، الثقافي والاقتصادي والاجتماعي، بعيداً عن القمع والقولود، ولعلَّ في ذلك طوباً

لا تستقيم مع واقع السلطة السورية، ولكنَّ الطريق الأوحد لملاقات حسنة بين البلدين، بل ربما بات هو الحلُّ الأوحد لليوم إبقاء سورية نفسها في منأى عن الاضطار العسكرية والاقتصادية الدولية، وليس «مصانفة» في هذا الاتجاه (وهذا يرسم دعاء الرض المطلق لنظرية المؤامرة) أن يلتقي مؤخراً مسؤولون أميركيون بارزون قادة المعارضة السورية في واشنطن (فريد الغابري وآخرين) للبحث في مستقبل النظام السوري بعد الانسحاب من لبنان»<sup>(٢)</sup>.



أما السلطة اللبنانية فحدث عن أخطائها ولا حرج وماذا يُمكن أن نتوقع، أصلاً، من تركيبة بُنيت على توافقات طائفية - ميليشيوية - سورية - سعودية (والسلسلة لا تنتهي، ولكنها لا تتضمَّن بالتأكيد صفة «لبنانية»<sup>(٣)</sup>)، التي يتشكَّل بها بعضُ المظاهرين (المعارضين)؛ وأقول ذلك لكي أنبه إلى لزوم أن لا تتوهَّم أنَّ «السلطة اللبنانية» هي فقط ذلك النظام الهزيل الذي جاء بعد تكليف الرئيس عمر كرامي رئاسة الوزراء قبل شهر، إنَّ السلطة هنا تشتمل كثيراً من رموز ما يُسمَّى بـ «المعارضة اللبنانية» ومن فيهم، بل وعلى رأسهم، الرئيس المفقود له رفيق الحريري وعهدٌ كبير من القوَّاب والوزراء ورؤساء الأحزاب والهيئات والנקابات والمجالس والصناديق المتفتحة - جميعها - من سياسات المحاصصة والرشاوى ومشاريع الإعمار والترضية، فالسلطة اللبنانية التي حُكمت منذ بداية التسعينيات (مع استنثار قصير هو فترة تولَّى سليم الحصن رئاسة الحكومة بين عامي ١٩٩٨ و ٢٠٠٠) هي التي حُكمت «الأجهزة الأمنية» يرقاب العباد، وهي التي رُسخت التبعية للسياسة السورية (تحت شعار تلازم المسارين)، وهي التي استغفدت وانفتحت من نظام الفساد والإفساد الذي تهاجمه للمعارضة الآن.

ولكنَّا حتى لو اقتصرنا الكلام على السلطة السياسية منذ مجيء الرئيس عمر كرامي إلى سدة رئاسة الحكومة، بل ومنذ اغتيال الرئيس الحريري والضحايا الآخرين بشكل أكثر تحديداً، لنهالنا حجم التخبُّص، وانعدام المسؤولية اللذين ظهرتَ بهما هذه السلطة أمام الناس فما قد مضى ثلاثاً وأربعين يوماً على «الد جريئة»<sup>(٤)</sup> دون أن تُطع علينا هذه السلطة ولو بتقرير واحد عمَّا جرى فعلاً: أهو مُحصلة عملٍ «استشهادية» (كما زعموا) برزَّ لسان معيبة، وزير الإعلام المستقيل الخطيب البارغ الأستاذ إليي الفرزلي، نُقذها الفلسطيني الأصولي (والفلسطينيون، والاصوليون، تحديداً، هم يوماً كبش المارق العربية والدولية) أبو غنَّس؟ أم هو من عمل حجاج لبنانيين؟ وإلى ما قيل صدور تقرير «لجنة قصص الحقائق الدوائية» كنَّا منازل نُجْهل كيفية حصول جريمة اغتيال الرئيس الحريري والضحايا الآخرين (الذين لا نُعرف أكثرهم، ولا نعلم معظمنا أن من بينهم ثلاثة سوريين فقراء كانوا يبحثون عن عمل يُقيم أوطانهم المسكينة) استبصاراً مفتحة، أم بتفجير من تحت الأرض (سارغ) الإعلام العوني عبر موقعه الإلكتروني إلى اتهام العمال السوريين به، في لفحة عنصرية مجيدرة تليق به<sup>(٥)</sup>، أم بصاروخ من السماء وفيقت جدَّة واحدة على الأقل (الشهيد عبد الحميد الغلاييني)، حتى اليوم المابع عشر من الحادثة، مطمونة تحت طبقة رقيقة من التراب دون أن تُكشِّفها الأجهزة الأمنية بحجة الحرص على سلامة التحقيق، رغم أنَّها (أي

١ - الرئيس سليم الحصن، السفير، ٧ آذار ٢٠٠٥.

٢ - النهار، ٢٧ آذار ٢٠٠٥.

٣ - دأب وسائل الإعلام التابعة للرئيس الحريري على وضع سابقة «الد قبل كلمة مجرمة» لوصف ما حدث ظهيرة الرابع عشر من شباط وبلغ الأمر بتلك الوسائل أن راحت تؤرِّخ الأيام بما قبل الجريمة وما بعدها: «اليوم الثالث والثلاثون على الجريمة»، «اليوم الرابع والثلاثون على الجريمة...» ولكنَّ ما حُدث ذلك اليوم المشؤوم هو التعريف الجامع والملائع، بل هو التمازج البيني لكلِّ الجرائم، وبداية تزيح جديد

الأجهزة) سَخِبتْ سَيَّاراتُ الموكبِ المحترقة الست (فضلاً عن سيارة ب. أم. دبليو لم تكن ضمن الموكب) إلى إحدى الشكايات؛ ومن ثَمَّ نَقَلَ فُخامةَ الرئيس إميل لحود بعد طولِ صمت، وصَنَّفَ الجريمة بـ «الزُّلَّة» (كذا)، وكانَ ما حَدَثَ فُرْصةً في فَخْذِ طفلٍ أوْ مَحْضٍ لَشيمَة

ولم يكتفِ الرئيس لحود بذلك، بل رَفَضَ الإِصْفاءَ إلى مطالب وفد المعارضة (المكوّن من النائب كُرشس فارس سمعد، والنائب التي كُرشس عن انبائها حديثاً السيدة غُوة جَلُول)، وذلك أثناء الاستشارات النيابية المُزَمَّمة، بحجّة عدم تسمية ذلك الوفد مرشحاً لرئاسة الوزراء يُخَلِّفُ الرئيسَ المُستقيلَ آنذاك ثم أعاد فُخامته تكليفَ الرئيس كرامي متيقناً من أنّ التلميد (الذي مَنَعَهُ به الإخوة السوريون قبل شهرين) هو سَكَّةُ الحُكْمِ في لبنان، ومتوهماً (ومعه الرئيس كرامي) أنّ التظاهر الحاشدة التي نُظِّمها حزبُ الله في ٨ آذار إمّا هي استفتاءٌ على شعبيّتها (لحود وكرامي) لا على رغبةِ الأكثرية اللبنانيين (٦٥/ منهم بحسب استفتاء السفير) في حماية سلاح المقاومة كما بَنَتِ الحكومةُ الكُراميةَ مهلهلةً، سَقيمةَ الخطاب. وكان أفضل ما أنجزه كرامي بعد الإغتيال هو استقالته، التي يؤكّد الأستاذ نجاح واكيم في إحدى مقابلاته التلفزيونية أنّها جَنَّبَتِ البلادَ نَماةً كانت سَتُراق بسبب نيّةٍ مَبِينَةٍ باقتحام المجلس النيابي. بيّن أنّ الرئيس كرامي عاد فُقيلاً التَّكليفَ من جديد على أساس تشكيل حكومة ائتلاف وطني، وهو أمرٌ ما يزالَ مَحْتَمَلاً! إلى اليوم (٢٩ آذار) بسبب رفض المعارضة المشاركة في

الأهم الآن هو ألا يُعتبر السوريون خروجهم هزيمة نكراء لهم. ولا تنصرف المعارضة اللبنانية وكأنها انتصرت

الحكومة للعديد قبل موافقة السلطات اللبنانية على إجراء تحقيق دولي لمعرفة كيفية حصول جريمة اغتيال الرئيس الحريري (ولا أحد يهّمه الضحايا العشرين الآخرين كثيراً) وقبل إقالة (أو استقالة) رؤساء الأجهزة الأمنية الذين تهمهم المعارضة بتنفيذ الجريمة أو بالتواطؤ مع منقّبيها أو بالتآكل والإهمال في أحسن الأحوال.

ومع ذلك ينبغي أن نقول إنّ السلطة اللبنانية لم يكن يُمكنها أن توافق، هكذا ومن دون أدنى مساهمة، على مِطْلَبي المعارضة. فليس للمُحقِّقِين الدوليين حِجابَين دائِماً كما تُزَعَم هذه المعارضة! ولنا في كذبة «أسلحة الدمار الشامل» في العراق دليلٌ كافٍ على أنّ الأمم المتحدة ليست حَكْماً نزيهاً وإمّا هي محصّلة توازن قوَى عالمية تُفِيلُ كُفْتهُ إلى الولايات المتحدة منذ سنوات للفضلة إنّ المعارضة، وعائلة الرئيس الراحل، تتمسكان بالتحقيق الدولي لخوفهما (وهو خوفٌ في محلّه) من أن تتلاعب «الأجهزة» بالقضاء اللبناني. وتتفاهم العضلة إذا صُنِّفَتْها فتوى النائب بطرس حرب<sup>(١)</sup> التي تُقضي بعدم قانونية أي لجنة تحقيق مختلطة (دولية - لبنانية) بحسب المادة ١٠٠ من شرعة الأمم المتحدة التي تنص على أنّ الأمين العام وموظفي الأمم المتحدة - في معرض قيامهم بواجبهم - لا يُقْبَلُون ولا يُقْبَلُونَ توجيهات أي حكومة أو سلطة خارجية عن منظمة الأمم المتحدة. وعلى كل حال، فقد وافقت الدولة اللبنانية (في ٢٦ آذار) على لجنة التحقيق الدولية أما استقالة قادة الأجهزة الأمنية طوعاً، أو سِحاكُمها (كما اقترح الأمين العام لحزب الله في ١٦ آذار عبر قناة المنار، ليبدو لنا أنّ ذلك سيكون الحلّ الأفضل لتخفيف التوتر الداخلي الحالي. ويُظهِر أنّ الأمور تسير في هذا الاتجاه مع طلب رئيس الاستخبارات ريمون عازار «إجازة لمدة شهر!



عند الكلام على المعارضة اللبنانية الحالية يجب دائماً التمييز بين قسمين أساسيين<sup>(٢)</sup> القسم الأول يتألف من قوَى عارضتْ دوماً وجودَ القوات السورية في لبنان. وكانت (وبعضها ما يزال) على ارتباط بالخارج الاستعماري، وعلى رأسها القوات اللبنانية ونيّارُ العمد ميشال عون أما القسم الثاني فقد كان في السابق جزءاً لا يتجزأ من السلطة القائمة، ويتضمّن: (١) نيّارُ الرئيس الراحل رفيق الحريري؛ و (ب) نيّارُ الأستاذ وليد جنبلاط. إضافة إلى هذين القسمين الأساسيين، ثمة حضورٌ جَهِير (ولرّ كان قليلاً من الناحية العددية) لـ حركة اليسار الديموقراطي؛ فضلاً عن وزيرٍ معنويٍّ يهْمُهُ النائب نسيب لحود وبعضُ الشخصيات الثنائية المستقلة.

إنّ إغفالَ هذا التَّنَوُّعِ في صفوف المعارضة أمرٌ خطير، لا لأنه يَقدِّمُ توصيفاً خاطئاً للمجال فحسب، ولا لأنه يُعْجِزُ عن فهمِ الهِئَةِ الشَّبابيةِ العارمةِ التي شكَّلت المدَّ الشعبيّ لهذه المعارضة فقط، بل لأنه سيُزيدُ أيضاً من حِدةِ المُصَوِّرِ عن اجترارِ حلٍّ سياسيٍّ للأزمة اللبنانية الحالية، وسيُسْهِمُ في بناءِ منصّةٍ وثقٍ لبنانيةٍ للولايات المتحدة من أجل تحقيق «الشرق الأوسط الكبير» القائم على دولةٍ صهيونيةٍ جبارةٍ ودولٍ عربيةٍ ضعيفةٍ ومُتَقَلِّقةٍ.

هذه القوى كانت على شيء من التنسيق قبل ١٤ شباط، ولكن جريمة ١٤ شباط قَرَّبَتْ بينها إلى درجة التوحّد. غير أنّه توجدُ مزْعَمٌ لن يُبْلِثُ، بعكس تأكيدات وليد جنبلاط شبه اليومية،

١ - السفير، ١٩ آذار ٢٠٠٥

٢ - داغر، السفير، ١٦ آذار ٢٠٠٥

أن يُفترط لا بسبب انتهازية كثير من المخطوطين الجُكر فيه فحسب، ولكن أيضاً - وبالدرجة الأولى - لأن الكتلة «السَّيئة» كانت وما تزال تعبر في جلساتها الفاسدة (واحياناً على لسان نوابٍ سيَّئٍ غداً) أشخاص عن الفترة الأخيرة) عن عدم رضاهما عن وجوبها إلى جانب جبران تويني وبيار الجميل واضرابهما. وليس مصادفة أن تؤكد النائب بهيَّة الحريري، في خطابها بمناسبة مرور شهر على اغتيال شقيقها، «ثوابته» تيَّارها: عروبة لبنان، ودعم القضية الفلسطينية، وإعادة بناء روابط سورية - لبنانية جديدة وصحيَّة؛ فهذه كلها ثوابت تتعارض تعارضاً صارخاً مع توجهات اليمين الطائفي العنصري داخل المعارضة نفسها. يُصاف إلى ذلك تقبُّل مواقف الوزير جنيلاط بحيث لا يُمكن أحداً الرهان على بقائه في المعارضة (أو في أي مكان آخر) وقتاً طويلاً، وقد سبق أن يدل مواقفه جفرياً بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، ولا يُستبعد أن يعود رأس حربة «المشروع السوري» في لبنان، بعد دعوته العلنيَّة إلى الانتداب.

انسمت المعارضة، بشكل عام، ببؤس بالغ في طرح الشعارات. وبمرؤ هذا البؤس إلى تناقض الشعارات الجديدة التي يطرحها بعض أقطابها مع شعاراتها وممارساتهم السابقة في أحسن الأحوال، أو إلى تناقضها مع المبادئ الوطنية الجامعة أسوأها. حدّ مثلاً شعار «السيادة» إذ يبدو لافتاً هنا أنَّ معظم أطراف المعارضة تُقلِّد السيادة اللبنانية على مزارع شبعا التي ما تزال وازحة تحت الاحتلال الإسرائيلي. كما تُقلِّد

مسألة عودة اللاجئين الفلسطينيين (وهم أكثر من ثلاثمئة ألف في لبنان)، وهي مسألة تشكّل الردِّ الأودع على التوطيئ الذي تؤكد المعارضة أنها تُرفضه رفضاً باتاً. ثم إنَّ المعارضة (في حدِّ علمي) لم تُزعج طوال تظاهراتها الكبرى شعاراً عودته الأسرى اللبنانيين من السجون الإسرائيلية، مع أنَّ بقاها هناك طعنةٌ جليَّةٌ في صميم السيادة اللبنانية. علاوةً على ذلك فقد كشفت الأيام الأخيرة كنية النزعة السيادية لدى أطراف المعارضة: تلك أننا لم نسمع واحداً من قائلتها يُطالب بعدم استقبال دافيد سترافيل (نائب مساعد وزير الخارجية الأميركية والمندوب السامي «الجديد») أو على الأقلَّ يندد بتصريحه في ٢٥ آذار حين دعا القوى (اللبنانية) الحليفة لسوريا وإيران إلى عدم التدخل في شؤون الشعب اللبناني! صحيح أنه «أوضح» في اليوم التالي أنه يُستمد «الأطراف الخارجية» فقط إلا أنَّ «رُلة لسانه» السابقة هي التي تعيِّر فعلاً عن قصده الحقيقي، تماماً مثلما عبَّرت «رُلة لسان» رئيسه بوش عن مشاعره «الصليبية» ضدَّ الإسلام ولا يستغفِر أحدٌ إنَّ غمَّ الحُكْم اللبناني الجديد (بعد فوز المعارضة المرجَّح في الانتخابات النيابية) إلى وضع القيود على حرية التعبير ضدَّ المسيحية والصهيانية (على خطى اتفاقية ١٧ أيار) بحجة الحفاظ على السيادة<sup>(١)</sup>

ويُلقِّع الأمرُ بعض دعاة السيادة في جبهة المعارضة أمثال الأستاذ وليد جنبلاط أن طالبوا بحماية بولية للبنان، وينوع من «الانتداب» عليه فائِة سيادته في تلك التي تُقلِّد أن تُحلَّ احتلالاً أجنبياً أو وصاية أجنبية ما، مكان احتلال أو وصاية أجنبية أخرى؛ لكنَّ الخُجُب سيَّطَل حين نكلُ أنَّ «الجرنومة» (بول وولفويتز) التي تمنى جنبلاط أن تُفكَّ بصاروخ المقاومة العراقية قبل شهر قد أصبحت اليوم، بلسان جنبلاط، مثلاً على «العقل الديموقراطي الغربي». وسيَّطَل العجب أيضاً حين نسمع جنبلاط يُفسِّد مواقفه القومية السابقة من الاحتلال الأميركي للعراق، فيُشدِّد على شائسة LBC (١٣ و ٤ آذار) الديموقراطية الجديدة التي «سمَّختَ لمنايين ملايين عراقيين بالانتخاب». إنَّ، الانتداب لا يتناقض مع السيادة إذا جاء بمرشحي التوبة الجديدة؛ ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يُصرُّ قادة المعارضة على الانسحاب السوري الفوري والكامل قبل إجراء الانتخابات النيابية، مع أنَّ مثل هذه الانتخابات جرَّت - وديموقراطية كما يقولون - في فلسطين والعراق المحتلَّين. ولكنَّ، احتلال عن احتلال يُفرِّق<sup>(٢)</sup> فالاحتلال السوري حين نستدعيه لرفع الغزو اللبناني - الفلسطينية المشتركة عام ١٩٧٦ (كما فعلَ اليمينُ اللبناني) جيِّدٌ ولا يُفسِّد السيادة؛ والاحتلال الإسرائيلي حين نستدعيه ويتحالف معه جهاراً نهاراً لطرُد «فلسطيني يأسر عرفت» (كما فعلَ اليمينُ نفسه عام ١٩٨٢) لا يُنتهك تلك السيادة البتَّة. (الاحتلال السوري) حين نستدعيه لطرُد الاحتلال السوري (كما يفعلُ قائدُ المعارضة، في هذه اللحظة بديهاً) شكَّل من أشكال صون السيادة اللبنانية.

إنَّ الأجنبي - حتى لو اعتدَّرتنا «السوري» كذلك - ليس خادماً عنكم، يا دعاة السيادة، وبها عباقرة التكتيك المرحلي والديها السياسي فلابد من مصالحه الدائمة، وهو لن يُزحل عن أرضه بمجرد أن يمتسَّح السَّيخُ (وهذا من تعبيرات بعض أطراف المعارضة العنصرية)، بل سيُرسِّع دعامته ومناقضه السياسية والاقتصادية والعسكرية كما فعلَ «الاحتلال السوري» طوال ٢٩ عاماً في لبنان، وكما فعلَ الاحتلال الإسرائيلي على امتداد ٢٢ عاماً في لبنان أيضاً، وكما يُفعلُ الاحتلال الأميركي للعراق منذ عام ٢٠٠٣. وكذا نُنظر أنَّ هذا أمرٌ بديهيٌّ لدى جهابذة السياسة، ولكنَّه ليس كذلك على ما يبدو. وما يُؤسفُ له حدُّاً ليس سياسيات السياسيين المتطَّيِّين، ولا السياسيين الثابتين على مواقفهم الاستعلائية والشوفينية، وإنَّما التحاق فئات شعبية واسعة بهم، ومن مختلف الطوائف (باستثناء معظم «الشيعية» والحمد لله!)، ومن المُرَّجَّح

١ - كمال نبيان، جريدة الميَّار، ٢٧ آذار ٢٠٠٥.

٢ - باستعارة من الشهيد غسان كنفاني: «مخيمٌ عن خيمة تُفرِّق».

أن الشعب اللبناني ذاق الأمرين، كما ذكرنا، على يد الخبايا السورية، فاندفعت أقسام كبيرة منه خلف تطاهرات ساحة الشهداء. ولكن ذلك لا يعني أن يستحق العقل النقدي والصبر والصبور تصميده، من توه، وإن يتدفع إلى «تبنّي» هذه الهوية الشبابية «تبنّيًا إيجابيًا»<sup>(١)</sup>، والحق أن ثمة «جوا» من الإرهاب الفكري تمارسه المعارضة<sup>(٢)</sup> هنا. فإن لم تكن مع الجماهير في الساحة (ساحة الشهداء فقط طبعًا) فإن وحيثما وسياسيًا واستقلاليًا ملعون فيها. وهذا الجوّ هو الذي سنخّ بتضييق الأهداف الحقيقية لقرار ١٥٥٩، الذي يشكل أحد نواحي الانقسام اللبناني الحالي (بعد قرار التمهيد للرئيس لحود واغتتيال الرئيس الحريري) وأحلّ مكانها أهدافًا/ شعارات أخرى عن «السيادة والحرية والاستقلال».

إن القرار ١٥٥٩ لا يتوخّى، كما يدوّج قادة المعارضة، تحقيق أيّ من تلك الأهداف/ الشعارات بل هو لا يتوخّى طرد «السوري» من لبنان أو كانت السلطات السورية قد أذعنّت للمطالب الأميركية - الأوروبية، وعلى رأسها: نزع سلاح حزب الله، والتعاون، الكامل مع خريطة الطريق الفلسطينية - الإسرائيلية. إن بعض أطراف المعارضة، كما ذكرنا، كانوا أكثر المتفهمين من «السياسة» السورية، ولا يجوز لأيّ عاقل أن يُسمح لهم بأن يُصمّموا بكتابة «الاضطهاد» التي يُزعمون أنهم سكتوها عنها طوال عقود من أجل «المصلحة الوطنية» فقد سرقوا

القرار ١٥٥٩ لا يتوخّى طرد «السوري» لو كانت السلطات السورية أذعنّت للمطالب الأميركية - الأوروبية بنزع سلاح حزب الله والتعاون، الكامل مع خريطة الطريق

وتُهَيِّبُوا وأُخْرِبُوا واضطهدوا (لا اضطهدوا) بقطار ودع من بعض الأجهزة السورية واللبنانية. بل كان بعض «للمعارضين» كما يقول الوزير المستقل البير منصور، «بين أيدي الأجهزة الأمنية حتى لا أقول بين سيقانها... وكان غازي كنعان «اليسهم»<sup>(٣)</sup> ثم تبدّلت «وجهة الرياح الإقليمية والدولية» (كما يتجسّد كميل داغر)، فقلّبوا لداعميهم وعنايتهم الأوتار ظهر المجنّ، وراحوا يروجون أمام طوائفهم وأمام الشعب عامة كخبة السيادة والحرية والاستقلال، القادمة جميعها على القاطرة رقم ١٥٥٩.

إن القرار ١٥٥٩ لا يُؤفّق إلى إحلال هذه الأهداف والشعارات (النبلية في ذاتها)، بل هو تنمّة لخطّة (أميركية قديمة عُرّ عنها تقرير أميركي شهير نُشر عام ١٩٩٦ بعنوان A Clean Break A New Strategy for Securing the Realm ومؤدّي هذه الاستراتيجية هو حلّ مشاكل إسرائيل عبر «زعزعة destabilising» جيرانها الخطرين فبعد الخلاص من العراق، تُدعو هذه الدراسة إسرائيل إلى «القبض على زمام المبادرة الإسرائيلية على امتداد حدودها الشمالية من خلال الاشتباك مع حزب الله وسورية وإيران...»<sup>(٤)</sup> ويبدو أن الإدارة الأميركية والكيان الصهيوني قد وجّدا الفرصة سانحة للخلاص من المقاومة اللبنانية بعد تواتر الأنباء عن تعاملات الترسنة الإيرانية (التي يُقال إنها ستقدّر ٥٠٠ مصنع في حال استخدامها لأهداف تنموية) وبعد تسرب شائعات عن تمكّن حزب الله أكثر من ١٢ ألف صاروخ متطور، بعضها من طراز «فجر - ٥» الإيراني ويبلغ مداها أكثر من ٥٤ ميلًا، وقد يصل إلى تل أبيب وحيثما! وقد تقلّعت بعض الجرائد البريطانية تفاصيل خطّة إسرائيل - أميركية لضرب المنشآت النووية الإيرانية، ويُنشئ مخاوف إسرائيل من أعمال انتقامية قد يقوم بها حزب الله حال بدء ذلك الهجوم، بما يُعطى إيران ميزة لرّدع أميركا عن ضرب منشآت النووية<sup>(٥)</sup>، ولم يُخفّ وبزّ خارجية العدو ولا رئيس أركان جيشها نوروزها الأساسي في استصدار القرار ١٥٥٩، كيف لا وإسرائيل هي المستفيد الأولّ منه لأنّه يصفّق - في حال تنفيذه - الثامن من عهودها الأبرز (حزب الله) الذي تُهمّه أيضًا بدعم الحركات الفلسطينية المسلحة داخل فلسطين؟

إنّ فضيلة النظام السوري الأبرز (وربما الأحدث) في هذا الصدد، كما أرى، هي رفضه التورّط في نزع سلاح حزب الله. ولذلك تمّ الضغط الأميركي - الأوروبي عليه لمسح جيشه من لبنان فورًا، على أمل أن تتولّى إسرائيل أو الجيش اللبناني تلك المهمة المشروعة (إن لم يتخلّ الحزب طرّفًا عن سلاحه، كما يأمل الأميركيون). والمؤسف أن يتصدّى «اليسار» الديموقراطي، «الذي بات جزءًا من المعارضة وإحدى مبرراتها الفكرية، أيضًا، لموجة تسويق الديموقراطية للقادة بالتساق والتزامن والتصاف مع القرارات الدولية»<sup>(٦)</sup> أو «اللحظة للأولياء المؤتية»، بدل أن يُضخّ الخطة الأميركية - الإسرائيلية القديمة. ولكن ماذا كنا سننتوقع من يسار لا يكفّ منظره «الروحاني» (أمثال الرفيق كريم صروة) عن تردّد إيجابيات الديموقراطية العراقية الحالية مقارنة (ولماذا المقارنة؟) بحكم صدام، ويؤمن قائه الميدانيون استعدادهم للفناء عن «جميع» شخصيات المعارضة<sup>(٧)</sup>، أيّ يمن في ذلك الرئيس أمين

١ - ٢. جوزيف سماحة، السفير، ٥ آذار ٢٠٠٥.

٢ - السفير، ٢ آذار ٢٠٠٥.

٣ - [www.israeleconomy.org/strat1.htm](http://www.israeleconomy.org/strat1.htm) والتقرير من إعداد معهد الدراسات الاستراتيجية والسياسية، وهو نتيجة نقاش جرى في إسرائيل مع صناع قرار أميركيين من بينهم ريتشارد بيرل، وجايس كوكريت، ونشارلز فيريانكس (جونهور)، وبوغلاس فايت.

٤ - حسن الأمين، الرأي الآخر، العدد ١٥ آذار ٢٠٠٥، ص ٧.

٥ - كما جاء على لسان الرفيق إلياس عالا الله على قنّة الجزيرة في ٥ آذار ٢٠٠٥، وذلك في معرض رثه (إن لم تُخسّ الذكارة) على الوزير وئام وكاب

ذلك، فإنَّ مكافئةَ حزب الله على إسهامه الأبرز في تحرير أرضنا عام ٢٠٠٠ لا يكون بتبني رغبة بعض الأطراف المعارضة في تنفيذ القرار ١٥٥٩ القاضي بنزع سلاح المقاومة، أو بتبني رغبتهم في أن يسلمَ الحزبُ سلاحه إلى الدولة من تلقاء نفسه، فاللعنوا مازال على الأبواب، وهو يترسّص بقيادة المقاومة لاقتصاصهم واحداً واحداً، وشيعا مازالت أسيرة، والأسرى ما زالوا أسرى، والطائرات والمدرعات الإسرائيلية مازالت تنهش سماتنا وأرضنا، واللاجئون الفلسطينيون في لبنان مازالوا محرومين من حقهم في العودة إلى بيوتهم في فلسطين.



إن يستقيم نقداً وإن يتجمل إن لم نلخذ في الاعتبار الدور الهام، والسلبى في معظمه، الذي أدته للأسف غالبية المثقفين في لبنان، فباستثناء قلّة قليلة، ولكنّها محترمة ومميّزة، على رأسها جوزيف سماعة وكميل داغر وأسمد أبو خليل وإبراهيم الأمين، انجرف أكثر الكتاب اللبنانيين ما بعد اغتيال الحريري في مواقف تراوحت بين الترويج لسليلة من عمليات التزييف بحق الرئيس الراحل وسياسته بما يُخدم الشعارات التي تُرجم قادة المعارضة أنّه كان يناضل من أجل (السياسة)، رفض الوصاية السورية، بناء دولة المؤسسات، حرية الوطن والموالين من جهة، وبين ركوب موجة المعارضة وتبنيها تبنيّاً ابويّاً يُحوّل دون أيّ تطوير حقيقي وتقديمي لها

ولا فلبداً أولاً بالتزييف الذي أسفّوه على سياسات الرئيس الراحل، مع الاعتذار مسبقاً إلى معيبي: فالحقيقة يجب ألا تطاول قلّة الرئيس الجرمين إذا كانوا فحسب، وإنّما فنكّتها هي أيضاً. إنّ «نكّر خماسين موتانا» مبدأ ديني قد يكون أخلاقياً ونبيلاً، ولكنّه قد يُقوّل تعميماً إن تقوّد إلّا إلى إعادة إنتاج (بل وتعزيز) السياسات الخاطئة والمضرة في المستقبل.

لا شك في أنّ للرئيس الحريري كان ذا إيجابيات لا يُنكرها إلّا المغرضون. فقد أسهم في وقف الحرب، عبّر رعايته (ورعاية المملكة السعودية أساساً) لاتفاق الطائف. وكان ذا دور أساسي في بناء «تفاهم نيسان» عام ١٩٩٦ بين المقاومة الإسلامية والعدو الإسرائيلي، وهو تفاهم شرّع عمّل المقاومة الرُّكعي. كما ساعدَ الحريري (باعتراف السيد حسن نصرالله) في عودة الأسرى من سجون الاحتلال الإسرائيلي، وفي استعادة جثامين الشهداء (وبعض بينهم هادي نصرالله، ابن الأمين العام لحزب الله). ولا يُمكن أن تُنكر دوره في تعليم أكثر من ثلاثين ألف طالب على نفقة مؤسساته، وفي إنشاء مستشفيات وجامعات ومشروعات أفادت من خدماتها كافة المناطق اللبنانية إلى هذا الحدّ أو ذاك، وبغض النظر عن الفوائد (ولاسيّما السياسية والدُعائية) التي جناها منها.

ولكن هل يبرّر ذلك كلّ «أسطرة» الحريري كما فعل كثير من المثقفين اللبنانيين، إلى حدّ دعوة الزميل أحمد زريق إلى «عدم اللزوم بالحريري بكلمة سوء» وإلى «تحرير الناس من «المس برمن وطني» على هذا القدر من الإجماع... لأنّ الرموز لعدّة تُشبه لعدّة الفراغة»<sup>(١)</sup>؟ السنّا هنا إزاء مصارعة ترميحية يتّوّم بها مثقّفٌ جدائي يُقرّض الأ يضع امرأً فوق مستوى النقد، فإذا به يُشرّع «تطوير» [الرئيس الحريري] فليُسلّا لبنانياً بامتياز. كما بلغ الأمر ببعض المثقفين الآخرين، أمثال الحامي مصطفى يوسف حمود، أنّ رفعه إلى مرتبة السيد المسيح (دوماً فيُكرّمه وما فُكّرهُ ولكنّ شيءٌ لهماء)<sup>(٢)</sup>. ولهجة تعبر عن عقيدة تقصّ دويّة غير مبرّرة، صرّخت أسميّة الخليل (أي المغنّة صاحبة الصوت البديع) تخاطب الشهيد الحريري: «ميدو أنك كبير جداً علينا. ما مينيّاهاك!»<sup>(٣)</sup>

الجميل، صانع اتفاق ١٧ أيار «النادر» وهل كنّا سنوقّع غير ذلك من يسار يعتبر أن نموذج التحرير الاستلّج هو النموذج الفلسطيني الرسمي؛ فقد جاء في بيان لحركة اليسار الديموقراطي: «إنّنا ماضون في معركة انتزاع القرار الوطني اللبناني المستقل، وسنُتّج في ذلك كما نُنحِت من فكتنا القيادة الوطنية الفلسطينية، وعلى رأسها ياسر عرفات، في رفض مقولة «فلسطين جنوب سوريا» [جنوب أي بلر، إن؟]، وضخّت في محركها لاسترجاع فلسطين...»<sup>(٤)</sup> - فإذا كان نموذج السلطة الفلسطينية، وقيادة منظمة التحرير، هو الذي يتبعه يسار المعارضة اللبنانية، فهل سنطمح في استرجاع ٢٢٪ من أرض لبنان، وفي تقسيم هذه إلى باتتوسانات دونما توافّق جغرافي، وفي إقصاء «اللاجئين اللبنانيين في الشتات»؟

لسنا متحمّين بحزب الله. وينبغي ألاّ تُنسى أنّ هذا الحزب يتبنّى عقيدة دينية هي أبعد ما تكون عنه، نحن القوميين العرب العلمانيين واليساريين؛ وإنّنا أسهم، عبّر تحالفه مع حركة أمل، في إسقاط رموز وطنيّة وديموقراطية في الانتخابات (على رأسها الأستاذ حبيب صادق)، وفي احتكار المقاومة الوطنية على حساب تنظيمات يسارية وقومية كانت هي المبادئة إلى إطلاق المقاومة المسلّحة عام ١٩٨٢ بل وقبل ذلك أيضاً. وسلسلة اعتراضاتنا على حزب الله لا تنتهي، وأهمّها ارتباطه الوثيق بالسياساتيين السوريين والإيرانيين. ويجب ألاّ تُنسى عن ذلك كلّ بصحة «أولويات» الحركة. ومع

١ - السفير، ٥ شباط ٢٠٠٥.

٢ - السفير، ١٥ آذار ٢٠٠٥.

٣ - السفير، ٢٤ شباط ٢٠٠٥.

٤ - السفير، ٧ آذار ٢٠٠٥.

وإذا انتقلنا إلى المثقفين الآخرين فسنجد أنهم يرون أن العراق هو بلد شامول يصف الحرييري (على نمط برنامج «خليك بالبيت») بأنه «شاعر الحكمة» ويؤمن على حرب على شائنة تلفزيون المستقبل أن تفكير الحرييري «مرتب» «خلاق» «متعدد الوجوه» بل يرى أنه «متفقد ما بعد حديث» (إلى هنا وصل النقاش الأبزر لـ «أوهام النخبة»)<sup>١</sup>، ويتأني رضوان السيد (الذي يؤكّد على شائنة المستقبل أنه كان يكتفٍ خطابات الرئيس الحرييري بنفسه بعد عام ١٩٩٢) في اختيار مفرقاته، فيردّ على المثقفين الذين شككوا في مشروع الحرييري الإصمري قائلًا إن بناء المطار (الذي يسمّى ٦ ملايين مسافرًا) والأوتسترادات الضخمة هو الطريقة المثلى لإطعام الفقراء، مغفلًا حجم الدين التي راكمها ذلك الإعمار (فيضًا أصغر أخرى) على كاهل الشعب اللبناني. ونشدد إحدى المثقفات اليساريات (على تلفزيون المستقبل أيضًا) جو «الحرية» التي تمتع بها المثقفون أيام الحرييري (وهو ما سنناقش صحته بعد قليل)، وتقتنى مني فيض بصمات الرئيس الراحل مستخدمة تعبيرًا إنكليزيًا (self-made man)، متناصرةً أن نقطة الانطلاق الرئيسة لشراء الحرييري البليسوني<sup>(٢)</sup> هي رفض العائلة السعودية المالكة عن سرعة تنفيذه لأحد مشاريعها ويؤمن زاهي وهي بأنه «عربيّ الي» «مزيج فريد ونادر بين الانتماء العربي الأصيل والفتح

لا يجوز لأيّ عاقل أن يسمح لـ «المعارضين» بأن يحدوه بكنية «الاضطهاد» التي يزعمون أنهم سكتوا عنها طوال عقود من أجل «المصلحة الوطنية».

الليبرالي الريح<sup>(٣)</sup> (وكان وهي قد قال لجريدة السفير أيضًا إنه يفكر، بعد اعتياله الحرييري، في ترك الإعلام، والعودة إلى الشعر والكتابة، أو الهجرة). ويرى وجه كوثاني الرئيس الحرييري من «إغراق البلد بالدين الكبير»، راميًا للمسؤولية على ثقافة الهدر والفساد والإفساد والنظام الزبائني المعتمد لدى الطبقة السياسية اللبنانية... على أساس أن الحرييري لا يمت إلى هذه الطبقة بصفة، وإنما «اضطرّ أحيانًا للتعايش والمكابدة مع مسار تسلّمي»<sup>(٤)</sup> ويعتبر الرفيق زياد ماجد أن المشروع الحرييري تحول - مع صعود «المشروع الأمني» - إلى «مشروع سياسي استقلالي وسيادي»<sup>(٥)</sup> وكان الحرييري لم تحفل بسمات زبائنية ولم تحالف مع رموز الوصاية السورية والهيمنة الطائفية!

شو القصة يا إخوان؟

ليس من المفترض أن يكون المثقف حافظًا للذاكرة، أم أن دوره يقتصر على أن يكون برغيًا في صناعة الحرييري، أو أداة في «تصنيع الحرييري»<sup>(٦)</sup> والحق أن الصناعة والتصنيع يسيران متزامنًا، يمتدّان، بل لحظة تولعة، وأحيانًا عبر تلفزيون المستقبل وجريدة المستقبل وإذاعة الشرق - التابعة كلها الرئيس الراحل هكذا، مثلاً، يتباهى بول شاول<sup>(٧)</sup> بأن «الشباب» أتجوا حتى اللحظة ٨٠ شريطًا غنائيًا في رثاء الحرييري والتغني بمزايها، دون أن يتيسر بكلمة عن مستوى هذه الأغاني التي أنتجت خلال أيام (وبعضها رثاء خلال ساعات)، وهو الذي عُرف عنه نقده لفن المناسبات. ليس غريبًا أن تصبح هذه «القصائد» الغنائية محطّ تبنّ حديثي جديد، ومعظمها محض تركيب قافية على قافية فإذا وزّنت كلمة «رفيق» في الشطر الأول فبعتها - دون أدنى سؤال - كلمة «طريق» في الشطر الثاني؛ وإذا وزّنت كلمة «بثروت» في الأول لحقتها - بالتاكيد - كلمة «بثموت» في الثاني؟ هذا ناهيك عن تقبّل معظم هذه القصائد، المفنّاة لكذبة التعايش الطائفي. فنكلمنا ذكر الصليب» نيّة «الهلال»، وكلمنا فرغت أجراس الكنائس جدرانًا على الحرييري زبد صداها - من دون أدنى شك - أذان المساجد ومع ذلك لا نجد المثقف الطائفي، الذي يؤمن بالإبداع والمواطنة والوعي المدني، إلا مدًاك للتسليم... وللشباب، كيفما كانوا.

فلنتجنّب ذاكرتنا قليلًا، أيها الأصمقاء الذين تحمّلون شعارات السيادة والحرية والاستقلال وحقوق الإنسان وبناء الدولة والمؤسسات، ومكافحة الهدر والفساد والزبائنية والوصاية السورية والأجهزة الأمنية، وتروجون أن عهد الرئيس الحرييري قد كافحت من أجل تطبيقها. وهذا ليس مفتاحًا للمفاتيح (بالمعنى الثوري المتأخّر المبكّل)، وإنما المشاركة في إعادة البناء على أسس غير كاذبة. يُدّ أننا لن ننساق وراء التبشير «الكوثري» بأن «الانتهاكات» التي سنأتي على ذكرها لم يكن الرئيس الراحل موافقًا عليها - ولا فقد كان عليه أن يستقيل، أو أن يُضنّخها في أقلّ تقدير، بدلًا من أن يسكت عنها ويمزجها، فيزيّد

١ - قُدِّرَت مجلة Forbes ثروة بـ ٤,٢ بليون دولار عام ٢٠٠٤، ويحلّ المرتبة ١٠٨ بين أغنى أغنياء العالم

٢ - السفير، ٢٢ شباط ٢٠٠٥

٣ - ملحق النهار، ٢٧ شباط ٢٠٠٥

٤ - ملحق النهار، ٢٧ آذار ٢٠٠٥

٥ - التبشير الأول مستعار من كتاب نورمان فنكسكين صناعة الهولوكوست The Holocaust Industry أما التبشير الثاني فمستعار من كتاب نوام تشومسكي: تصنيع الإعلان Manufacturing Consent

٦ - إذاعة الشرق، ١٩ آذار ٢٠٠٥



الفساد فساداً والتسلط تسلطاً. ولينبدأ بملف الحرية وحقوق الإنسان. إن النموذج الذي أرساه الرئيس المغفور له في هذا المجال هو مزيج من نموذجين نظاميين: سعودي وسوري، لا «غربي» كما تظنفس البعض. فلنذكر أنه سيطر على معظم وسائل الإعلام والصحافة، فصورته «مخلصاً اقتصادياً للبنان»<sup>(١)</sup>، وعُد إلى «شراء شريحة واسعة جداً من الانتلجنسيا اللبنانية.. في عملية إفساد شاملة»<sup>(٢)</sup> حتى كاد الجور الإعلامي يبرته يستخد أو يتخلجن. وفي الوقت نفسه، عكست حكومته على الحد من حرية وسائل الإعلام البني من خلال تشريع الوسائل المؤيدة لسورية أو تلك التي تخص زعماء لبنانيين قريبين من دمشق، بحسب البيان الذي أصدرته منظمة «مراسلون بلا حدود» CSF في ١٩ أيلول ١٩٩٦ غسب قرار الحكومة السماح لأربع محطات تلفزيونية وإحدى عشرة محطة إذاعية بسقط من أصل ٤٧ بآب إلى حين «اكتمال دفتر الشروط». وهكذا جاء السماح - بشكل أساسي - لوسائل تابعة لطوائف وجهات سياسية معينة على سبيل المحاصصة الطائفية والزبانية. وبين عامي ٩٦ و٩٨ (أثناء حكومات الحريري) تعرضت حرية الفكر والتعبير لانتهاكات عديدة: فحُذ الأمر العام أكثر من نصف فيلم «متحذرات» للشخرجة رندة الشهبال. وصدر قرارٌ ظني يقضي بحبس مارسيل خليفة بتهمة «تحقير

التقاليد الإسلامية» لغنائه قصيدة تُرد فيها أية قرآنية<sup>(٣)</sup> وفي كانون الثاني ١٩٩٨ صدرت دعوى شهيرة ضد الكفاح العربي بسبب «إهانة» الملك فهد (في اقتلحة كُتبت عام ٩٥) وغرم وايد الحسيني ٢٢ ألف دولار. وفي ٢٢ شباط ١٩٩٨ صدرت دعوى ضد شارل أيوب ويوسف الحويك بسبب عود صحفي في جريدة النهار تنال من التريوكا اللبنانية الحاكمة، وضد إيلي صليبا لرسمه في الجريدة نفسها كاريكاتيراً<sup>(٤)</sup>. ٢٠ أيلول ١٩٩٧ (أيام حكم الحريري) «متحدى» للقضاء اللبناني<sup>(٥)</sup> وفي تشرين الثاني ١٩٩٨ التقى وفد من «الرابطة العالمية للجراند» WAN (التي تضم ناشرين ومحررين من أوروبا وأمريكا الجنوبية وآسيا) بالربك الحريري، وطلب بإلغاء قوانين الصحافة الجائرة، فنفى الحريري وجود رقابة في لبنان، وأكد أن بمقدور المرء أن يُقدد معي ما كان وشو ما كان.. «فرد الوفد بذكيرة بالغرارات المفروضة على كل من يُتقد رؤساء الدول، فاجاب الرئيس أنه يستحيل إلغاء القانون» قبل أن يصيب هناك ديموقراطية أكثر في الشرق الأوسط - أي أن علينا أن نتنزل نزائ مساحة الحريات في السعودية وسورية والأردن وعراق صدام مثلاً قبل أن نسمح لأنفسنا في لبنان بالديموقراطية «الكاملة»<sup>(٦)</sup> وهكذا يرمي الحريري بمسؤولية قانون الصحافة القديم على الأنظمة العربية، متلما يرمي بوجه كوراني مسؤولية الدين والفساد على «الطبقة السياسية اللبنانية» متناسياً أن الحريري جزء منها (بل على رأسها) وأنه موافق على منع انتقاد رؤساء الدول

ومن بين حلقات انتهاك حرية التعبير في السنوات الحربية الأخيرة: سحب جواز سفر الصحفي سمير قصير (٢٩ آذار ٢٠٠١) بسبب انتقاده عبر جريدة النهار للواء جميل السيد (الوزير العام للأمن العام) وقوى الأمن والمخابرات، وتوقيف السيد تحسب خطا (في ٩ كانون الأول ٢٠٠٢) بذريعة «علاقاته بإسرائيل» (في حين أنه يُعرف بمعارضته للرئيس الراحل، ويبد محطته التلفزيونية NTV تقريراً عن فضيحة بنك الدونية، وتقريراً سابقاً «بسي» إلى الملكة السعودية) واقتحام قوات الأمن اللبنانية في ٥ أيلول ٢٠٠٢ لمحطة MTV وراديو جبل لبنان في حقوق اعتبرتها «لجنة حماية الصحفيين» CPI (وهي منظمة مستقلة مركزها في نيويورك) «تهديداً خطيراً لحرية الصحافة في لبنان» (بيان ٦ أيلول ٢٠٠٢) ثم إغلاق المحطتين بدرانغ اعترف وزير الإعلام نفسه آنذاك (الوزير غازي العريضي، أحد قادة المعارضة اليوم) بأنها كانت سياسية أكثر منها قانونية<sup>(٧)</sup> واعتقال د دونيس العترة وسجنه ومصادرة كتابه الناقد للأجهزة اللبنانية والسلطات السورية. وكل ذلك طبعاً، وغيره كثير. حُذ أثناء حكم الرئيس الحريري الذي يتفق بعض المثقفين والمعارضة اليوم باحترامه لحرية التعبير!

والحق أننا لسنا هنا في وارد جرد كل الانتهاكات الصحافية والإعلامية التي حُذت بها سنوات حكم الرئيس الراحل - بتقرير منه أو تفاض - لأن ذلك سيضيق عنه مقال واحد. ولكن يُقينا أن تُصيف إلى ملف الحريات وحقوق الإنسان في لبنان الرئيس الحريري إصداره لقرار منع التظاهر خلافاً للمستور الكافل للحريات، وهو قرار تم تدنيه بمجزر عند جسر المطار عام ٩٢ ضد اتفاق أسلورا حاضيتها عشرة أشخاص. وفي تموز ١٩٩٥ قُعت حكومتها تظاهرة أخرى (كُت مشاركا فيها)، كما قُعت في عام ١٩٩٦

١ - Tore Kjeilem, LexicOrient.com/e/oharin\_r.htm

٢ - دافتر، مصدر مذكور

٣ - سماح إدريس، الأرباب ١١/١٢/١٩٩٩

٤ - Committee to Protect Journalists, 16 March 1998

٥ - ليست المؤشرات العربية الأخيرة مشجعة في هذا الصدد، بما في ذلك داخل الدول «الغربية» مثل الكويت، حيث حكم على د احمد البغدادي بالسجن سنة لانتقاده وزارة التربية زلادة حمس التعليم الديني في المدارس (رابع جريدة الحياة، ٢٧ آذار ٢٠٠٠).

٦ - تقرير «مراسلون بلا حدود» في ٢ كانون الثاني ٢٠٠٢

تظاهرتين عماليتين. وأذكر أننا في ذكرى مرور ٤٠ يوماً على احتلال العراق عام ٢٠٠٣ استُخْصِلنا - كناشطين بجمعيات مدنية - ترخيصاً من محافظ بيروت الأستاذ يعقوب المصرايف لإقامة حفل عزاء للشهداء العراقي في ساحة الشهداء، لكنّ «مُنْ» شركة سوليدير حاولت مُنعاً بحجة أن الأرض تخص الشركة ولا تُخْصَم محافظة بيروت (١)، فأصغرنا على موقفنا بعد أن هُذِّنا بأن نقول أمام كاميرات التلفزيون إن شركة الحريري فوق القانون اللبناني، وأقننا العزاء رغم انظر آمن الشركة. ويؤكدنا أن نضيف، علانية على منع التظاهر، أمراً أخرى ألحقت ضرراً فاحشاً بعلف الحريات وحقوق الإنسان اثناء حكم الرئيس الحريري، مثلّ تليده لعقوبة الإعدام (٢) وإضلال قانون الزواج المدني الاختياري الذي كان سيُشكّل في حال إقراره «أول مسعى جديّ لتقريب الشقة بين المواطنين» (٣).

أما في ملف بناء الدولة والمؤسسات ومكافحة الزبانية ومعاربة الوصاية السورية والمضايقات (وكُلها من شعارات المعارضة اليوم) فالسجلّ الحريريّ ليس ناصباً مهريوياً، هنا أيضاً فالملعون أن حكومات وإدارات الرئيس الراحل كانت تُخْصَم لمصاصات طائفية وزبانية هائلة، ولا يُمكن تبرئته منها بحجة «اضطراره إليها، ولا كان ذلك عدواً اتبع من ذنب بالضمية إلى من يطرح نفسه بديلاً جدياً عن الغلظة: فذهب لئال العامّ كان سنّه كثير من الوزارات والإدارات

أليس من المفترض أن يكون المثقف حافظاً للذاكرة، لا برغباً في «صناعة الحريري» أو أداة في «تصنيع الحرية»؟

العامّة، وذلك في سياق تقاهم وتشارك عميقين مع مراكز المخابرات» (داغر). ولا نعتقد أن أحداً كان يُجبر الرئيس، مثلاً، على أن يعيّن الماعطين في شركاته الخاصة مسؤولين ووزراء في جهاز الدولة التي كان يقول أنه يريدنا منزعاً عن المصالح فالاستاذ بهيج طيارة الذي عيّنه وزيراً للعدل كان أحد محاييه الخاصين، والأستاذ فريد مكاري الذي عيّنه وزيراً للإعلام كان نائب رئيس «أوجيه» التي يملكها الحريري، والأستاذ سهيل يموت الذي عيّن محافظاً لجبل لبنان كان مسؤولاً عن مصالح الرئيس في البرازيل. والأمثلة أكثر من أن تُصمى، بحيث يبدو جلياً أن حكومات الحريري متهمّة بتضارب المصالح conflict of interests لأنه لم يُغرل نفسه حين كان في سدة الرئاسة عن مصالحه التجارية الشاسعة

وأما في ما يخصّ المشروع الإعماري تحديداً، فالعجب كلّ العجب أن يُنسى المثقفون اللبنانيون (أو معظمهم) سلبيات ذلك المشروع بعد استظهار الحريري: ففي الوسط التجاري (حيث المتظاهرون اليوم) صادرت الحكومة الحريريّ هذه الأراضي في ما اعتبره البعض «أثمن الأخطاء» في تاريخ المعاملات العقارية (٤) ذلك أنه في مقابل تمكّل سوليدير كلّ نفقات البنى التحتية في وسط بيروت المجدّد، وتحتّ الحكومة الحريريّة تلك الشركة (التي يملك الرئيس الراحل أكثر أسهمها) معظم أملاك تلك البقعة، وعوّضت كلّ مالك أصليّ بحصة من الشركة بلغت في بعض الأحيان ما لا يتعدّى ١٥٪ فقط من قيمة الأملاك (٥) وحتى لو سينا (ويجب ألا ننسى) المانيّ التاريخية الجميلة التي هُجّت دون مبرر إلاّ ترحي توفير كلّ الترميم (ولنْ حُوْط على بعض المانيّ الراقعة)، فعلينا ألا ننسى أن إعادة إعمار الوسط التجاري والمطار والأوتوسرودات ومعظم إنجازات الحريريّ الإعمارية الأخرى لم تأت من جيبه الخاص، كما يظنّ عامة الناس للأسف الشديد، وإنّما جزءاً دون هائلة يُكفّرها وسيُفكّرها الشعب اللبناني ويُلغّ أكثر من ٢٠ بليون دولار قبل خروج الحريري من رئاسة الحكومة وهذا الرقم هو من أعلى أرقام المديونية في العالم نسبة إلى عدد السكان، علماً أن كثيراً من هذه الديون تُلغ إلى الدائنين بخدمات دينّ عالية جداً (٦) وتُجعل لبنان في القريب العاجل لقلعة سهلة البيع لصندوق النقد الدولي (٧).

لكنّني لم يكتفِ بعض المثقفين اللبنانيين بأنشطة وتجميل السياسات الحريريّة لخدمة «المعارضة» وتوحيد صفوفها المنتفضة بالانتهازين الجدد، تحت راية الرئيس الراحل، بل رُجّوا أيضاً جملة من الإيهامات السياسية في سبيل ذلك الغرض، كان أبرزها:

– الإيهام بأن خروج «السوري» جاء نتيجة للتظاهرات العاشدة في ساحة الشهداء وأما الحقيقة، كما زعمنا، فهي أن القوات السورية انسحبت تحت الضغط الأميركي العام، خوفاً على مستقبل السلطة السورية نفسها فالطوم أن الدخول السوري عام ١٩٧٦ إلى لبنان جاء بموافقة أميركية، واستمرّ الوجود السوري المسلّح عننا بمباركة أميركية، وكان يُمكن

١ - Robert Fisk, *The Independent*, March 8, 2005

٢ - داغر، مصدر مذكور

٣ - Richard Carlson, *The Weekly Standard*, May 12, 2003

٤ - Garry C. Gambill & Ziad Abdelnour, *Middle East Intelligence Bulletin*, July 2001.

٥ - Richard Carlson، مصدر مذكور.

٦ - نهلة الشوّال، *الحياة*، ٢٧ شباط ٢٠٠٥.

أن يستعمر (بل أن يزيده) لو وافقت سورية على ضرب حزب الله ومسابرة «خريطة الطريق» كما ذكرنا، حفاظاً على «وعد» أميركا. وهذا، بالتأكيد، لا يُلقي صدقاً ونزاهةً ووطنيةً القسالبية العظمى من المظاهرات (لا القاذبة الذين انغمسوا إلى الساحة تبرُّساً من الوجود العسكري والمخابراتي السوري وتوقاً إلى معرفة حقيقة مرتكبي جريمة اغتيال الرئيس الحريري والمواطنين العشرين الآخرين، ولكن كان يُمكن ألا تُحدث هذه المظاهرات أصلاً لو منعت قوى الأمن والجيش (بضمير أخضر سوري - أميركي) التجمُّع منذ البداية - وهو ما لم يحدث لحسن الحظ. ولذلك فإنَّ اجتِهَاد الأستاذ العزيز حبيب حسان بأن المعارضة الداخلية استغرقت انتباه الخارج «فوق الشان المحلي»<sup>(١)</sup> إنما هو قلبٌ للشارع؛ ذلك أنَّ القرار ١٥٥٩ جاء قبل الانتفاضة الجماهيرية المحلية، لا معكسها لها.

- الإيهام بأن المظاهرات الشعبية الكبيرة في ساحة الشهداء تعبيرٌ عن «انتصار العلمانية على التفرقة الطائفية»<sup>(٢)</sup> لماذا المجرّد أنَّ اللبنانيين، «مسيحيين ومسلمين»، اجتمعوا في تظاهراتٍ واحدةٍ المجرّد أنَّ البعض حَمَلُوا الصليبَ والهلالَ متعاقفينَ بصراحة، يا إخوان، كلما رأيتَ هُناَّ متناقضينَ رأيتَ الطائفية (لا العلمانية)، بل تراعي، يا شيخُ حزب

أهلية - وهذا بالتأكيد عكسُ انطباع الرقيق إلياس عطاالله الذي رأى في هذه المظاهرات «تجسُّراً» لذنوب الحرب الأهلية.<sup>(٣)</sup> فالعلمانية في تحديدٍ ما يتجاوز هُناَّ الرمزَيْن في عملية البناء الوطني، وكلُّما أَعْتَدْنَا التركيزَ عليهما سَنَمُنَّا الاتفاقَ أمام ما يتخطاهما (أي المواطنة اللبنانية). و«سَنَمُنَّا التفرقة بين اللبنانيين، وأَبْرَزْنَا مدى بُعْدنا بعضنا عن بعض، بل وغَرَزْنَا عمليةَ التكاثر (لللقبة عنيش بـ «التعاليش»)» إِنَّ اللبنانيين مواطنون، لا مَجْرَدَ «مسلمين ومسيحيين». وتغني المعارضة بتوافق الطوائف في صفوفها يُناقض شعاراتها هي نفسها: فالحرية والسيادة والاستقلال شيئٌ نظام «الطوائف»، انتقاصُ سيادةٍ وحريةٍ واستقلالِ الوطن والمواطن معاً، وإِعْلَاءُ لرؤساء الطوائف ولـ «سيادتهم» همٌ على بقية اللبنانيين.

- الإيهام بأن نقادَ الحريري قبل اغتياله الشنيع قد حَرَّضُوا على قتله. وهذه أطروحةٌ قاذِرةٌ المعارضة أساساً، ولكنَّ تبناها بعضُ المثقفين أيضاً. يقول الصديق زياد ماجد، مثلاً، إِنَّ تخوينَ الحريري والأتهاَماتِ الموجهة إليه بالعمالة هي «في السياق اللبناني تحريضٌ واضحٌ على القتل والاعتقال»<sup>(٤)</sup> وقد يكون ما نكره صحيحاً لو اقتصر الأمرُ على التخوين والأتهاَم بالعمالة. غير أنَّ بعضَ مثقفي المعارضة راحوا يَسْتُخْمنون هذا المنطق لإدانة نقادَ الحريري «بمفعول رجعي»، ولتغليبِ كلِّ خطايا سيادته السابقة من أجل تعزيزِ قِيادته نقادَ المعارضة. فصارتِ «جرحٌ» للقول بتساوق مواقف الحريري قَبْلُ اغتياله، في قبولها للقرار ١٥٥٩، مع المخططات الأميركية - الأوروبية، اتِّهاَمًا بالتخوين والتحريض على القتل وتسويقاً لمواقف المعارضة؛ ولكنَّ ألم يكن ثمة تساوقٌ حقاً؟ المعارضون أنفسهم يتحدثون عن انتهاك «الحظة الدولية المواتية» للقيام بهِجَتهم الحالية، بل ويَشْتَرِفون بلقاءاتهم مع الكونغرس وغير ذلك، فلماذا يُدَّان «الموالون» إِنَّ تحدثوا عن تساوقٍ بين التحريكِ الدولي وتلك الهِجَة؟ ألا تمارس المعارضة والمثقفون المعارضون، في هذه الحال، نوعاً من الديكتاتورية المسبقة على حرية الرأي والسُّجَال بحِجَّةِ أنَّ هذه الحرية تؤدِّي إلى... القتل؟

- الإيهام بأن تسليمَ حزب الله سلاحه إلى الدولة حمايةً له، وإنَّ «حاضنة» حزب الله الحقيقية هي الشعبُ اللبناني والدولةُ اللبنانية<sup>(٥)</sup> بل والمعارضةُ الحالية<sup>(٦)</sup> والهدف من هذا «الحرص» الشديد على حزب الله إنما هو - في حقيقة الأمر - رغبةٌ المعارضة في تجاوب هذا الحزب مع تظاهراتها، وفقاً «تبعيته» لسورية. وتجاوزُ «الشيعية» لقصورهم عن الانضباط في المخا السيادةِ العام للبلاد،<sup>(٧)</sup> ولكنَّ، بعضُ النظر عن اتِّهاَم الشيعة في سياستهم (وهو ما استدعى بياناً مرتبكاً من «مُثقفين شيعية» أمثال جودت فخر الدين وجميل مروءة، مغزاه الأساسي الميَّان أنهم، كشيعة، ليسوا مع حزب الله أو أمل بل مع تلك «الفاخ» اعلاه)، كيف يُمكن إقناعُ المقاومة بتلك المنطق؟ فلو كانت الدولةُ حاميةً للبنان من الاحتلال، لما نَشَطَّت المقاومةُ أصلاً منذ أيام «الحرس الشعبي» أوائل السبعينيات؛ أمّا عن «حماية» المعارضة للمقاومة، كما يقول الأستاذ فادي توفيق<sup>(٨)</sup> والحامي ريمون بولس<sup>(٩)</sup> فنسأل: هل يحميها أمين الجميل و«وحيي» سمعون وسبير جعجع وبشال عون وجبران التوحيي مثلاً؟ هل منْ عُدَّ اتفاقُ ١٧ أيار ضدَّ المقاومة عام ١٩٨٣، ومازال يُدَّعى ويدافع عنه، يريد أن يُضمَّنها اليوم؟ وهل منْ تحالَّفَ مع العدوِّ

١ - ملحق النهار، ٢٧ شباط ٢٠٠٥.

٢ - راضة مرغام، الحياة، ٤ آذار ٢٠٠٥.

٣ - جريدة النهار، ٢٥ آذار ٢٠٠٥.

٤ - ملحق النهار، ٢٧ شباط ٢٠٠٥.

٥ - زياد ماجد، المصدر السابق.

٦ - د. لحد فنت، تلفزيون المستقبل، ١٤ آذار ٢٠٠٥.

٧ - غسان جواد، ملحق النهار، ٢٧ شباط ٢٠٠٥.

٨ - ٩ - ملحق النهار، ٢٧ شباط ٢٠٠٥، جريدة النهار، ٢٥ آذار ٢٠٠٥.

الإسرائيلي، على امتداد عقد كامل، ضيقاً بالمقاومة، وهل المحرض على استصدار القرار ١٥٥٩ الذي يمتهدد إرأس المقاومة بالبرجة الأولى راغباً حقاً في حماية المقاومة، وهل مُحَقَّرُ «الأنغام» والكثيرة غير النوعية، مُقَرَّمُ الشيعة المسلحين، ثم كيف «نُحِم» المقاومة ونجرها من سلاحها في الوقت نفسه لقد قال لنا د. عزمي بشارة أثناء زيارته بيروت إن ذلك يعني أمراً واحداً لا غير: تحويل حزب الله إلى أسرى في غوانتانامو! إنه لمن الصحيح جداً أن لا سيادة مع بقاء سلاح غير سلاح الجيش اللبناني؛ قد «الدولة لا تُستكمل مقومات سيادتها وشرعيتها من دون أن تُحتكر وحدها العنف» (١). لكن إذا وضع حزب الله جناحه العسكري «في تصرف الدولة اللبنانية» (كما يدعو زياد)، فإن أي سكرتير رسمي لبناني عن أي استخدام إسرائيلي سيُعتبره اللبنانيون خيانة لبنانية رسمية واضحة. أما إذا ردَّ الجيش على مثل تلك الاعتداء، فستُحتكر إسرائيل ذلك بمثابة قرار رسمي لبناني يُخولها حق الرد على لبنان بأسره. إن إسرائيل لن ترعى عن انتهاك لبنان، ولا عن تصفية قيادات المقاومة واحداً واحداً، إن لم يكن ثمة من يُؤتِها - والمقاومة فعلاً (كما يقول ياسين) - «عنصر ردع حقيقي» لإسرائيل، بل هي «الصيغة القسوى حاليًا لحصانة لبنان وسيادتنا وميادنا...» (كما يؤكد السيد نصر الله في المنار، عيشة ١٦ آذار) إذن، يجب إرساء نظام رسمي - شعبي لبناني على إبقاء سلاح المقاومة من أجل الدفاع عن لبنان، على الأقل إلى حين نموذج «سورية» إقليمية مؤقتة. ما ومن جدير نكر أن لا سيادة حقيقية بوجود سلاح غير سلاح

لم يكتف بعض المتخفين اللبنانيين بأسطورة السياسات الحزبية لخدمة المعارضة، بل روجوا أيضاً سلسلة من الاتهامات المياسوية في سبيل ذلك الغرض من مثل: انتصار العلمانية، والقول بأن «المعارضة، حاضنة حزب الله

الجيش والأمن الداخلي اللبناني، غير أنه ثمة ضرورة اليوم، في هذا المناخ الذي تمثّل فيه الإدارة الأميركية وحشاً كاسراً، للدفاع عن المنطقة والدفاع عن المدافعين عنها» (٢).



انتهيت من كتابة الصفحات السابقة في ٢٨ آذار، ولم يكن الرئيس كرامي قد نجح في تشكيل حكومة لتحار وطني أو غير ذلك، بل كان يعمل إلى الاعتذار عن رئاسة الحكومة وصنّ قراراً بقررت لجنة تقصي الحقائق في جريمة اغتيال الحريري والضحايا الآخرين محملاً «محقق» المسؤولية الأولية عن التوتر السياسي الذي سبق الاغتيال، وطلب بتشكيل لجنة تحقيق دولية ولكن بعد «إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية اللبنانية» التي جعلها التقرير (هي والاستخبارات السورية) المسؤولية الأولية عن نقص الأمن والحماية والقانون والنظام في لبنان. ويذكر التقرير صراحةً: «إن الأجهزة الأمنية اللبنانية خفّضت عدد فريق الحماية الخاص بالمرحوم الحريري من ٤٠ شخصاً إلى ٨ أشخاص، بعيد تركه رئاسة الحكومة، فوُزّرت بذلك «بيتة» ملائمة لاغتياله» عبر تفجير «فوق الأرض». ويؤكد التقرير الأجهزة بسبب إعطائها الأولوية للحفاظ على «الألة» بدلاً من إنقاذ الضحايا، وبسبب سماحها لأشخاص «مجهولين» بالدخول إلى موقع الاغتيال دون تسجيل أسمائهم، وبسبب وضعها أجزاءً من شاحنة ميتسوبيشي (تُشتبه الأجهزة بملووعها في العملية) داخل حفرة التفجير بعيد الاغتيال ولكن بغض النظر عن نتائج لجنة التحقيق الدولية العتيدة، وبغض النظر عن تركيبة الحكومة القادمة ونوعيتها، فإنه يبدو لي أن علينا أن نضبط باتجاه عقد مؤتمر وطني للحوار يُشرف على تنفيذ اتفاق الطائف بشقيه: الانسحاب السوري «الائق»، والإصلاح الداخلي - ولاسيما عبر قانون انتخابي قائم على النسبية خارج القيد الطائفي

ومن مهام هذا المؤتمر (الذي يُقترح الحزب الشيوعي اللبناني أن يتم في مجلس النواب ويدعوه من هذا المجلس) طرح موضوع الخيمات الفلسطينية في لبنان تحت سقف القرار ١٩٤ الخاص بعودة اللاجئين، بحيث يُقفل على ثامن حقوقهم المدنية الكاملة إلى حين عودتهم، وربما على تشكيل قوة فلسطينية تحمي الخيمات وتكون جزءاً من الجيش اللبناني (كما هو الوضع في الخيمات الفلسطينية في سورية) - وهذا هو اقتراح السيد حسن نصر الله. ومن مهام المؤتمر الوطني أيضاً الاتفاق على حماية المقاومة الوطنية اللبنانية، بعدما جزءاً لا يتجزأ من السياسة الدفاعية اللبنانية. ومن المُقرَّر أن يَكرَّم وليد جنبلاط قبل ثلاثة أيام من إرسال هذا العدد إلى المطبعة أنه ضد فتح ملف سلاح حزب الله قبل تحرير شيعا (وتسمى أن يُثبت عند هذا الموقف). وأخيراً لا أخراً، على هذا المؤتمر أن يطرح أسس علاقات لبنانية - سورية جديدة، ثقافية واقتصادية وأمنية... قائمة على الأخوة والالتقاء والتحالف الوثيق لمواجهة المخططات والاعتداءات الأميركية والإسرائيلية.

هذا... أو للزيد من الأخطار التي تهدد حريتنا وسيادتنا واستقلالنا في لبنان وسورية معاً!

بيروت

سماح إدريس

كاتب من لبنان

١ - ياسين الحاج صالح، ملحق المنار، ٢٧ شباط ٢٠٠٥

٢ - جوزيف سماحة، السفير، ٥ آذار ٢٠٠٥

# الوصية

## . عامر الدبك .

قلت وقد علمت	وأهلنا يتآمرون	ولا تقل شيئاً عن التاريخ
بأنني سوف أحيي مهرجانات	ولا تلم أحداً على شيء مضى	أو عن مرارات الزمن.
من كلام:	كي لا تلام.	كن طيعاً مثل العجينة
كن هادئاً	لا تكن متسرعاً	لا تقل « لا »
ومهادناً	واعقل لسانك وابتمس،	حتى ولو كنت الوحيد
ومسالمًا	فلعلمهم	بلا رقيب في الظلام.
ودع السياسة للسياسة	برضون عنك بالابتسام.	كن مثل كل النائمين
والبلاد لمن أراد.	وأدع لكل القائمين	الأمين،
دع عنك أخبار الحروب	بان يظلوا سالمين،	الحالمين،
وما تلاها من هزائم	وإن ينالوا -	الصامتين،
أو مذابح للعباد.	بعد طول العمر - حسناً في الختام.	الحاضرين،
قل إنما للبيت رب،	ولا نقل	الغائبين.
وانسحب مثل الفراغ من الفراغ،	« مات السلام »	لا ترفع الصوت الحزين؛
وانثر على عينيك بعضاً من رماذ،	قل كلما قالوا: سلام	فانكسر الأصوات في الشرع الجديد
ولا تقل - حتى ولو في السر -	« يا سلام ويا سلام! »	هو الكلام.
« حي على الجهاد! »	♦ ♦	
كن طامعاً	كن آخرساً	ولا تفكر بالوراء وبالأمام،
كن فائعاً	ودع الشهامة	ولا تفكر بالخلال وبالحرام،
كن خائفاً	والرجولة	بل قل إذا ما واجهتك مصيبة
كن مثل قط أحول	والحديث عن الشهادة	وعجزت عن حل لها
حتى ترى نصف الحقيقة.	والتححرر	وعجزت عن فهم لها
لا تناقش،	والوطن،	وشعرت أنك لا تنام،
لا تحاور،	وانس بانك من سلالات البشر	قل: « يا سلام ويا سلام! »
لا تقل « أعداؤنا يترصون	وارقص إذا رقص الجميع	♦ ♦

حطت على روحي غمامات الأسي

وشعرت أن الجمر

في دمي اشتعل،

فرميت أوراقتي جميعاً

وانسحبت من الكلام.

قال الجميع بهدشة:

«أنقذتنا بالصمت من هذا الملل.»

صغقت.

قالوا:

«يا سلام ويا سلام!»

والمشيرة للحجل،

ولسوف أضحك مثل كل الضاحكين،

ولسوف أعلن أنني مثل البساطة

لا أمل إلى الجدل.

حتى ولو أخرجت سوف أقول

«إنني متعب ولدي آلاف العلل.»

وكتمت ما في القلب من هم كبير

ونسيت - أو أنني

تناسيت - الأمور

ووقفت قدأماً الجميع.

ووعدها أنني سأقرأ

ما كتبت من القصائد

في الغزل،

وبأن لا همأ لدي

سوى التواصل والقبيل،

ولسوف أنسى كل أخبار المهازير

في فلسطين الحزينة والعراق،

ولسوف أنسى ما يطلق ولا يطلق،

ولسوف أنسى

قمة العرب الحجرلة

حلب



جان اشمينوز، من مواليد اورانج (فرنسا) عام ١٩٤٧.

من أعماله: شيروكي والحملة الماليزية، بحيرة، نحن الثلاثة، إنني ذاهب (الصادرة عن دار الآداب أيضاً وحازت جائزة «دونكور»، أبرز الجوائز الأدبية الفرنسية).

# كل شيء جديد

. سامي مهدي \*

أسمعُ الآنَ هذا الدبيبُ	إلى أي شيء؟	سرقوا تاجها وحلّوها
غامضاً وخفياً،	إلى ..	زَيّفوا ختمها الملكيَّ
أرى في رمادِ الغروبِ	لستُ أدري،	وبالوا على عرشها
شفقاً يتقدّم في عجلٍ	فذي لحظةٍ للتيهِ والانتظارِ	ومسلّاتها
وعصافيرُ صبحٍ قريبٍ.	وذي فسحةٍ بينَ يومٍ ويومٍ	وتماثيلها
وأرى حجراً تتغيّرُ ألوانه	ونارٍ و نارٍ.	ودُمَاهَا.
وأظافرُ نبتٍ تشقُّ الحجرَ	حسنٌ..	غيلةٌ قتلوها
وأرى شجراً طالماً ليس مثلَ الشجرِ.	لا حينَ إلى جيلٍ فارقه الغيومُ	ولم يبكها حزناً من بكائها.
الرصاصُ دموعُ	أو تماثيلٍ شمعٍ إذا شَبَّتِ النارُ فيها	المليكَةُ ماتت
الرصاصُ توابيتُ مفتوحةٌ للجميعِ	عَدَّتْ نُهْباً للمسوخِ ومبخرةً للمسومِ.	وذا بعضُ ما قالَ عنها الغزاة:
هو ذا موسمُ القتلِ،	لا حينَ إلى طللٍ دارسٍ أو بقايا رقيمٍ	سَجَى الجسدُ الملكيُّ على صخرةٍ
فليحتفرْ كلُّ ذي نسبٍ قبره	لا حينَ إلى أفقٍ غاطسٍ	عارياً في الفلاة،
وليودّعْ من الأهلِ مَنْ يستطيعُ،	لا حينَ إلى عالمٍ ناقصٍ	جثةٌ ينهشُ الذئبُ والضبيعُ أحشاءها،
وقَفَ أنتَ..	لا حينَ إلى أيِّ أيقونةٍ أو جمالٍ قديمٍ.	والغلاةُ
قفْ حينما ينشظى عقيقُ النجيجِ.	المليكَةُ ماتتُ	يُدوسونها هيكلاً تنفكُّ أوصالُه،
لدموعي دخانُ	وذا بعضُ ما قالَ عنها الرواةُ:	وعظاماً رماديةً،
ولقلبي سلاسلُ من ذهبٍ	غيلةٌ قتلوها	تُرِكْتُ لليلِ حيثُ كانتُ،
ولخنجرتي سكينُ	ونعاهوا إلى قومها من نعاهوا	فلم تَكْ ثمّ مراسيمُ للدفنِ
ربما كان هذا حيناً..	جَدَعُوا أنفَها	أو لغةً للصلاة.

\* - تصويب من الآداب: في العدد ٩/ ١٠، ٢٠٠٤ احتجبت الآداب في وضع عنوان لقصائد الأستاذ مهدي، فاحتارت قصائد عراقية من معنى موقت، ظناً من المجلة أن الأستاذ مهدي يعيش الآن في القاهرة. وأما الحقيقة فهي أن هذا الشاعر العراقي ما يزال في بغداد. فالتقتني التوضيح. (الآداب)

المليكة ماتت	له في الغياب حضورٌ	ثم خلقٌ جديدٌ
وذا ما تبقى من الذكريات:	وفي الموت نبضُ الحياة.	ثم صوتٌ جديدٌ
طيغها السومري		كل شيءٍ جديد:
وظلُّ ابتسامتها	الدموعُ رصاصٌ،	الهواءُ
وشذا عطرِها	والتوايوتُ قنطرةٌ للمعبور	الترابُ
وسناها،	ومركبةٌ للخلاصُ،	المياهُ
وما استودعت من وصيتها	وذا موسمٌ لا مناصُ لنا من غبارِ عواصفه،	الشجرُ،
وتماثها ورقاها،	لا مناصُ.	كل ما ألقته الحياة وأصبح أيقونةً من
ونحبُّ المحبين من قومها	فليقيم كلُّ ذي نسبٍ ساتراً	حجر،
ورثاء ربابِ رثاها.	ليُقي ما يصلي له من خواص	كل شيءٍ جديدٌ
	ويرى ما يرى من خلال الحصاص.	وذا ألق يتكشفُ عن قادمٍ من سفر.
المليكة لمّا تمت بعدُ،	أسمعُ الآنَ هذا الدبيبَ	ظُلها شجرٌ وخطاها مياه
بل لم تَمُتْ قطُ،	غامضاً، وخفياً،	تاجها ذهبُ الصيفِ،
قال الشهودُ الثقاة.	أرى في رمادِ الغروبِ	أثوابها سَحَفٌ وعساليجُ
عَدَتْ قمراً ذاتياً في المدار.	شفقاً يتقدمُ في عجلٍ	مجدولةٌ بدموعِ الجباه،
عَدَتْ أَيْلاً هالماً في التخوم	وعصافيرُ صبحٍ قريبٍ،	وتحريشةُ صدرها
ولولوهُ في المحار.	وأرى شجراً بين رملٍ وماء،	تتطأير منها النجومُ،
عَدَتْ غريباً في المياه.	ثمراً يستحمُّ بضوءِ السماء،	وتخرُّ الغيومُ
عَدَتْ بذرةً،	جسداً يتكونُ في الظلِّ	رُكماً لعناقيدها،
غيمةً،	ينبجسُ الآن من رحِمِ الصخرِ	أو تحوُّمُ
سُلماً للسماء.	مثلُ أنبجاسِ الينابيع	حولها كاليعاسيبِ..
عَدَتْ محضُ نورٍ ونارٍ،	كي يستوي بشرًا في الحفاء.	صدرٌ رؤومُ
عَدَتْ لهاً أزلياً		



صدرُها،	من الحيزِزان	ختمُها
مُترَعٌ بحليبِ الصباح	وافرشوه لها بالقرنفل والأفحوان.	ومسلاُتها
صدرُ أم إذا قاربَتْها الرياح		وتغاثيلُها
خَجَلَتْ من مهابتها	أمنأ ومليكُتنا هذه،	ودماها
وانحنت وانزوت كي تمرَّ	وهي صاحبةُ الحتم والصولجان.	ومراسيمُها
وتنقلُ خطوتها حرّةً في البطاح.	أمنأ ومليكُتنا هذه،	وتغاثمُها
أمنأ، ومليكُتنا هذه،	وهي تحملُ تاريخُها معها	ورثاها.
فاغمروا دربها بالورود	بدمٍ ملكيٍّ جديدٍ وبوشٍ جديد.	كلُّ شيءٍ جديد
واصنعوا عرشها الملكيَّ الجديد	كلُّ شيءٍ جديد :	كلُّ شيءٍ جديد!

بغداد



أمام منطلقات وريقاتي، يا إخوتي في الأسر، ثم يتعب المفككون والمؤولون  
المأجورون في حل شفراتها ورموزها، ولم يترددوا في ردِّ دهاننها وهواجسها  
إلى رغبة شديدة اكيدة لئدي في إعادة فتح الزمن اليهي المجدي، الصاعد  
ترياقاً لغسارات الزمن الأسن المترسب في مستنقعات الحياة المسودة...

وجاءت الافصاحات والتوضيحات مستندة إلى آخر تقارير الشرطة لتقول:  
إن المدعو عيسى بو وريقات إنما يتستّر بالحلولية وفلسفة وحدة الوجود  
ليشيع بين الناس نظرية الحزب الواحد والفكر الوحيد وكتاتورية المعوزين  
والصمّال والعبيد. والحجج على ذلك، الرمزية منها والمادية، أنه كان لا  
يمشي إلا بمنعل واحدة، ولا يصفق إلا بيد واحدة، ولا يعشق إلا فصلاً واحداً،  
ويدعو إلى الزواج بالواحدة.

# قطار المسارات التعب

. عبد الجواد العوفير .

- ١ -  
 اين القطار السريع  
 الذي يمضي تحت بيتي؟  
 القطار الخشبي الصغير  
 الذي تشبَّنا به  
 ومضينا ولم نعد؟
- ٢ -  
 لم اكن اعرف  
 اني ساسافر  
 في قطار اللعبة  
 الذي نام طويلاً  
 في غرفتي،  
 إلا بعد ان صرْتُ  
 لعبة في يديك.
- ٣ -  
 سيدي القطار،  
 المجنون بالسرعة وعشيق النساء،  
 السريع في الشرب والاحلام،  
 الم تحلم بمدينة صغيرة
- وانت ملقى  
 تستريح على جفوني؟  
 لا تمنعني  
 حين يسقط قطارٌ من دموعي؛  
 فاننا اعشق الليل والموتى.
- ٤ -  
 من شخير القطار المتعب  
 يصعد الشعر،  
 ونحب الله أكثر.
- ٥ -  
 اين تمضي، أيها القطار،  
 بمطفئك الأسود  
 وقبعتك السوداء  
 ولم تكمل بعد شكلنا،  
 ولم تكمل هذا العالم في الخلق،  
 ولم نستطع حمل كل ما لدينا  
 من الحب والذكريات؟
- ٦ -  
 كنت حزينا وداعم العينين  
 وانت تنظر إلى المرأة.  
 أيها القطار الشاحب،  
 هرست كل النساء التي عشقتها  
 ولم تهزم انت.
- ٧ -  
 كنت اعرف أنك الزلزال  
 حينما كنت تزورني  
 كل ليلة في بيتي الصغير.
- ٨ -  
 قبل ان ننام  
 سترتدي حزنا، كما تعودنا،  
 أيها القطار.  
 وغدا سنسافر إلى أي مكان،  
 سريعا كما تعودنا.
- ٩ -

- ١٠ -

القطارُ السريعُ

ليس لديه وقتٌ

لنزع قُبْعَتِهِ وإلقاء التحية .

اعذريه ،

ولا تهرحي إحساسه .

- ١١ -

القطار منفي ؟

لذلك يَسْقُطُ كُلُّ مرةٍ

في امتحان اللباقة ،

ومطارِدٌ من شرطة الآداب .

- ١٢ -

كنتُ مخطئةً

حين عشقتُ القطارَ المجهنون .

فلن ياتي لك

بنجمة السماء الوحيدة .

فقط سيَقْطِفُ لك ازهارَ الحزن

ويَجْمَعُ لعينيك الجميلتين

رمادَ الشعراء .

- ١٣ -

القطارُ - اللعبة الصغير

كنتُ أحطِّمه ؛ صار يحطِّمني !

- ١٤ -

انا وانت زهرتان متوحشتان

نَنبِتُ في مقاعد القطار .

- ١٥ -

القطار سمكة بيضاء فارغة

تغوص عميقاً في البحر

وتتنفس هواء الطحالب .

- ١٦ -

انا ضائع ،

وانت ضائع مثلي ،

أيها القطار الساري .

فحاول أن تفرق داخلي

كي تشعر بالأمان .

- ١٧ -

انت تضحك من الموت ،

أيها القطار التعب ،

لأن هذا الكون مدفقة لرمادك .

- ١٨ -

ستحتسي كأساً أخرى ،

يا قطار الليل والضياح والطر .

ستحتسي كأساً أخرى

كي يضيع أكثر .

- ١٩ -

أعرف أنك شاعرٌ

أيها القطار ،

والأ فلاماذا انت

سريع هكذا ؟

ربما تبحث عن قصيدة هاربة .

- ٢٠ -

عذراً أيها القطار الطيب

لأنني لم آت لموعذك

كما اتفقنا ؟

فقد صرتُ قطاراً بدوري

وسافرتُ وحدي .

المغرب

**مؤسسة عبد المحسن القطان**  
**(برنامج الثقافة والعلوم ٢٠٠٥/٢٠٠٤)**  
**تُعلن عن**  
**مسابقة الكتاب الشاب للعام ٢٠٠٥**  
**جائزة الرواية وجائزة الكتابة المسرحية**  
**وجائزة القطار للصحافة ٢٠٠٥**

**جائزة الرواية وجائزة الكتابة المسرحية**

استحدث برنامج الثقافة والعلوم جائزة الكاتب المسرحي الشاب لأفضل نص مسرحي متكامل، كما أنه سيواصل تجهيز جائزة الرواية. ويتوجب أن يتراوح عمر الكاتب/ة ما بين ٢٢ و ٢٥ عاماً (مواليد ما بين ١٩٧٠/١/١ - ١٩٨٧/١٢/٣١) ويجب على المشارك/ة أن يكون فلسطينياً/ة ضمن النظم عن مكان إقامة/ها، شريطة أن يكون العمل الأدبي باللغة العربية. ولن تقبل الأعمال المنشورة سابقاً. يحصل الفائز/ة الأول/ى في كل مجال من مجالَي الرواية أو الكتابة المسرحية على جائزة نقدية تبلغ ٤٠٠٠ دولار وتحتمط إدارة البرنامج بحق نشر النصوص المشاركة خلال العامين ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ في المجلات، أو الصحف، أو على الصفحة الإلكترونية الخاصة بمؤسسة عبد المحسن القطان، أو في كتاب خاص، مع حفظ حق المؤلف لكاتبها.

على الراغبين في المشاركة إرفاق الوثائق التالية (مطبوعة باللغة العربية) ١ - صورة ذاتية منفصلة ٢ - صورة شخصية حديثة ٣ - صورة عن بطاقة الهوية أو جواز السفر: ٤ - العمل الأدبي المشارك (٦ نسخ).

فترة الترشيح: تُقبل إدارة البرنامج طلبات الترشيح لهذه الجائزة قبل تاريخ ٢٠ آذار/مارس ٢٠٠٥. ويتم الإعلان عن أسماء الفائزين في حريف ٢٠٠٥.

**جائزة الصحافة ٢٠٠٥**

تقدم مؤسسة عبد المحسن القطان، ضمن برنامج الثقافة والعلوم للعام ٢٠٠٥، مسابقة في مجال الصحافة تُستهدف فئة الشباب من العاملين في هذا المجال حتى عمر ٢٥ عاماً (مواليد ١٩٧٠/١/١ وأصغر). وسُيُمنح لأعمال متميزة أُدمجت وُشِّرت في هذا المجال خلال السنة التقييمية المنتهية في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٤. تشمل المسابقة على ثلاث جوائز موزعة على ثلاثة حقول:

«جائزة لقصة الصحافي أو الريبورتاج (Feature Story or Reportage)»: يوفّر البرنامج جائزة قيمتها ٢٠٠٠ دولار في هذا الحقل الذي يركّز على قصص صحافية أو ريبورتاجات ظهرت في صحف يومية أو أسبوعية تصدر باللغة العربية. وتُسلّم الأفضلية في الحالات جميعها للأعمال التي نُشرت أولاً في صحف، وتميّزت بجودة عالية في الكتابة، وبتراء معلومات القارئ، وبالأمانة الصحافية، وعمق التحليل. كما تُمنح الدقة والموضوعية وامتلأهما، بمد سبق الصحافي، عوامل مقررّة أيضاً في هذا الحقل.

«جائزة للمقالة أو التحليل الصحافي (Article or News Analysis)»: يوفّر البرنامج جائزة قيمتها ٢٠٠٠ دولار في هذا الحقل الذي يتناول المقالة أو التحليل الصحافي، مما ظهر في صحف يومية أو أسبوعية أو مجلات تصدر باللغة العربية. ويُنتظر من المواد المشاركة أن تمكّن مستوى عالياً لشغافة الكاتب في ما يتعلق بموضوع مقالته وأبحاثها النقدية، ومدى مساهمة هذا المقال أو التحليل في خلق حالة من الحوار في المجتمع.

«المصورة الصحافية (News Photography)»: يوفّر البرنامج جائزة قيمتها ٢٠٠٠ دولار في هذا الحقل الذي يركّز على التصوير الفوتوغرافي الصحافي، وما ظهر من صور في صحف يومية أو أسبوعية عربية وغير عربية، والتي تميّزت بحودة فنية عالية وقدرة متمكّنة على عرض الموضوع بشكل بصري مميز وبأسلوب يتجاوز المألوف.

المشاركة وشروطها، الرجاء الكتابة إلى المتعاونين اهذه

محسود أبو هشيش- منسق برنامج الثقافة والعلوم  
mahmoud@qattanfoundation.org

أو العنوان البريدي التالي:

عمر القطان - معبر البرنجان/ لندن  
A.M. Qattan Foundation, 5 Princes Gate, London SW7 1QJ, UK  
omar@uk.qattanfoundation.org

يتم الإعلان عن أسماء الفائزين في حريف ٢٠٠٥

**كما يتضمن البرنامج مسابقات ومنحاً أخرى في مجالات الأدب، الصحافة، الموسيقى، المسرح والفنون الاستعراضية**

لمزيد من المعلومات الرجاء مراجعة موقع المؤسسة: <http://www.qattanfoundation.org/csp>

مؤسسة عبد المحسن القطان - في دعم التربية والثقافة في فلسطين والعالم العربي

# نقد الخطاب الامازيغي

ملف من إعداد وتقديم: عبد الحق لبيض  
(مراسل الأزاب في المغرب)

## المشاركون

(الفبائيًا)

جمال بندحمان

رشيد الإدريسي

العربي بيلوش

محمد الولي

رأى الحركة الامازيغية في المغرب منذ أواسط الستينيات خطابًا ثقافيًا وسياسيًا واجتماعيًا بنبيرات مميزة تؤثر على موقف فكري يستدعي القراءة والنقد. فالخطاب الامازيغي ليس خطابًا ثقافيًا يسعى إلى التنبيه إلى ظاهرة أو معطى ثقافيتين، بقدر ما هو نسق من المفاهيم والاليات يمتزج فيها الثقافي بالسياسي والاجتماعي: الأمر الذي يحسب بأنه مقاربة له إلى التسلح بالكفاية العلمية والصرامة المنهجية للوصول إلى النتائج الموضوعية التي تُقضي النقاش حول الإشكالات التي يُقرضها الخطاب الامازيغي

ونقي صعوبة مقارنة الخطاب الامازيغي من أنه خطاب حول الذات، من جهة، ومن أنه خطاب احتجاجي يسعى إلى إعادة الاعتبار إلى فئة اجتماعية يدعي تفردًا تاريخيًا وتمييزًا عرقي واللغوي ضمن تشكيل مجتمعي وحركية تاريخية انشعبت بالتفاعل والانفتاح والتمازج، من جهة ثانية إضافة إلى أنه خطاب يحتمي بشرعية المنظومة الديمقراطية المعاصرة، التي تتخذ من حرية الذات في تقرير مصيرها أهم الدلائل إلى ترسيخ مبدأ حقوق الإنسان.

اشتد الجدل في الفترات الأخيرة حول المسألة الامازيغية، فتعقدت المقاربات وتنوعت المواقف. وضمن هذا المناخ العام وجدنا أنفسنا امام خطابين يتكلمان أزمة السلوك الديموقراطي في المغرب: وهي أزمة أخلاقية في المقام الأول. انكشف أولى علاماتها في التراجع الكبير لأصحاب الموقف المعارض للاعتراف بالمسألة الامازيغية. فبعد خطاب اجدير ٢٠٠٠ الذي أعلن فيه الملك محمد السادس الاعتراف الرسمي بالامازيغية ودعا إلى تأسيس «المعهد الملكي للثقافة الامازيغية»، راح المتعصبون ضد الامازيغية يُشيدون بالقرار الملكي ويمالون الصف - بدون استحياء - بمقالات تتحدث عن مغرب التنوع والتعدد؛ وفي المقابل، وجدنا الرابكيين من المناضلين الامازيغ يلبنون من حدة خطايم ويرضون بما جادت به الدولة عليهم من «إكراميات المعهد الملكي». وهذا كله يلوح بإمكانيات التنازل والتنازل المضاد، من كلا الطرفين، في مستقبل الصراع حول المسألة الامازيغية.

في ظل هذا الوضع الذي يتميز بانهايار القيم الحقيقية التي من المفروض ان يتضمنها موضوع الامازيغية، نتوخى تقديم ملف ثانٍ (بعد الملف الذي صدر في العدد السابق من الأزاب بعنوان «العروبة يمين امازيغية») يتضمن دراسات لأصوات ثقافية تقارب الخطاب الامازيغي من منطلق القناة العلمية والرصانة الفكرية وسلامة الخلفية والإيمان بالقضية الامازيغية كقضية وطنية وقيمة تنتزعه عن كل مزايده وإسلاف

ويبقى موضوع الامازيغية قضية تهم كل عربي يسعى إلى المصالحة مع ذاته ويهدف إلى رسم مستقبل للأمة العربية قائم على مبادئ الديمقراطية والحق في الاختلاف والتعددية. ويحظن من يظن أن الامازيغ شعب داخل شعب؛ ذلك أن مستقبل المغاربة بكل تنوعاتهم لن يكون إلا ضمن المنظومة العربية التي ختمت وجودهم منذ آلاف السنين، والتي لم يتعرفوا من عمق حضاري سواها

العمار البيضاء

## الأمازيغية: تصحيح المفاهيم والتأسيس لهوية مؤشحة

○ رشيد الإدريسي

### المفاهيم انوات صراع

معلوم أنّ أيّ صراع يتخذ، قبل أن يتجسّد على أرض الواقع، شكل خطابات متضادة، يُعمل كلّ منها على التزهين من الآخر باستحضار الحجج المضادة التي سكّنت عنها، أو بالكشف عن ضعف تلك التي اعتمدها أو تنافض بعضها مع منطلقاتها. وفي حالات أخرى ينقل الصراع إلى واجهة المفاهيم والاصطلاحات، حيث يُعمل كلّ طرف على بنائها بالشكل الذي يُخدم أهدافه، ويُعمل خطابٌ يلقي بالقبول لدى المتلقي بتوافقهِ مع آفق انتظاره أو بخلفته له. ونهج هذه الخطة ليس اعتباطيًا، بل ينطلق من الوعي بأن سلطة الكلمة انفذّ واكثر تأثيرًا، وأن قوة الاصطلاح لا تقل في فعاليتها عن قوة السلاح.

### تعدد الخطابات واختلاف الأهداف

وعيًا منّا بأهمية هذا البعد المفاهيمي للخطير، فإنّنا التزمنا في تناولنا للكثير من الأفكار المرتبطة بالامازيغية مجموعة من المفاهيم التي كانت لها وظيفة العالم المميّزة لأشكال الخطابات في هذا الموضوع. ونقدّم سينصبّ هنا على ما سمّيناه بالخطاب النزوعي أو النزوع الامازيغي أو النزوعية لا غير، وهي كلّها مفاهيم تحيل على ما سمّيناه، في دراسات سابقة - بالتصوّر المنقول. وهذا التصوّر يقف على طرفي نقيض من التصوّر للموصل الذي نتبناه، والذي يُمكن استخراجه مختلف عناصره من الرؤية التي خطّتها المغاربة منذ فجر الإسلام، كيفما كانت لغة تواصلهم اليومي.

مسوّمات اختيارنا لمفهوم «النزوع» يتّبع إلى كونه يوفّر حيزًا واسعًا للاستشكال، إذ يُمكن ربطه بمعانٍ بعيدتها وتحييده عن أخرى. فمن معانيه المعجمة نجد: «الميل إلى الشيء»، وهو في ذلك لا يختلف عن «الزعة» أو «المنزع»، ولذلك فإنّنا نضيف إليه، تمييزًا له وإسبالًا له في الاصطلاح، معنى آخر ليُصبح النزوع هو «الميل كناية إلى الشيء والإعراض عما سواه ممّا هو من نوعه». فنقولنا «النزوع الامازيغي» معناه: الميل إلى الامازيغيات

بشكل مُطلق، والإعراض كناية عن اللغة العربية، وطرح الإشكال اللغوي في المغرب عن طريق خلق تضاد بين اللغة العربية واللغات الامازيغية عبر استثمار تطبيقات السوسيوولوجيا الفرنسية الاستعمارية التي افادت فهمها للمغرب على ثنائية «عرب/بربر» إيفالاً منها في التجزئة والتفريق.

ومن لواحق هذا الفهم، التي يُمكن إضافتها إلى ملول مصطلح «النزوعية»، بعضٌ معاني الجذر (ن ز ع) من مثل الاقتلاع، نقول «نَزَعَ الشيء»، أي اقتلعه واجتثّه من أرضه؛ فيكون عمل الشخص النزوعي أشبه بمحاولة نزع اللغة العربية من التربة المغربية وتقليص حيز وجودها - وهو ما أصبح يدعو إليه النزوعي صراحةً بعد أن كان يمارس نوعًا من النقيّة تجاهه في مراحل سابقة. كما أنّ من معاني هذا الجذر معنى التفريق، وهو ما تلمّسه في خطاب للنزوعيين الذين يركّزون على اختلاف العربي عن الامازيغي في السكن والملبس والهئية، هاتفين من وراء ذلك إلى التأسيس الطائفية والعمل على بناء ذاكرة مشدّبة من الشوائب العربية، في حين أنّ الاختلافات حاضرة بين كلّ المغاربة سواء اكانوا ناطقين بمختلف الامازيغيات أم بالعربيات الدارجة.

وأخيرًا نَسْتَخْصِرُ جانبًا نفسيًا لهذا اللفظ، حيث يقال: «نازعني نفسي إلى هواها، أي غلبتني». فالنزوع، بالشكل الذي سنراه فيما بعد، يجيء بالدرجة الأولى لسد فراغ نفسي لدى الشخص النزوعي، فبِال تفكير في إقامة تهيئة لغوية تُضَمّن الاتسجام والتلاحم الاجتماعيين وتُراعي مبدأ الكلفة والفائدة. وإذا علمنا أنّ النزوعية قد ازدادت تاجسًا بعد انهيار الإيديولوجيات، وسيادة نوع من الفراغ الفكري، وانتشار ما سُمّي بـ «نهاية التاريخ»، فإنّ الجانب النفسي لهذا النزوع يتكبد أكثر. وأضح، إذن، أنّنا في تحليلنا هذا لا نَقْصِدُ نقد الخطاب الامازيغي بكلّ مكوناته جملةً وتفصيلاً، بل نَقْصِدُ نوعًا من التعاطي مع الظاهرة يتميز بالنزوع الموضح اعلاه.

إن من يطرح القضية الأمازيغية من خلال «المصفاة الكردية، يغيب عنه عمق الإحساس بانتماء المغاربة جميعا إلى الأمة العربية الإسلامية

### الإمازيغ/العرب: ثنائية الوهم

يُكثر الحديث عن الشعب الأمازيغي مقابل العربي في المغرب. ويبدو هذا التقسيم لدى الكثير من التزويعيين، ولدى الكثير من المهتمين بهذا الموضوع غير الواعين بخلفيات هذه التسميات. ومرء هذا التقسيم هو الرغبة في تهميس كل «فئة» بأن لا علاقة لها بالآخرى، عبر التوسل بالاختلاف اللغوي الطبيعي والمقبول لتبرير أفكار غير مقبولة تُفقر الهوية المغربية.

إن هذا التقسيم المفضل يُعتبر الطريق الأمثل لإنتاج سلسلة من المفاهيم الخاطئة حول هذا الموضوع الحساس. وهو مفضل لأن الأمر لا يتعلق بشعبيين، لكنّ منها مجاله الجغرافي ومجاله الثقافي التداولي الخاص. وهذا النفي الذي نُطرحه مفضلاً لنقد هذه المعالجة ناتج عن استقراء الواقع المغربي الذي فاجأ المستعمر ذاته عند دخوله المغرب، ويتلّس على التفاعل والتلاقح والتآلف وتمزج العربي «الفق» وتعريب الأمازيغي «الخالس». وهذا ما اكده المؤرّخ الأمريكي روم لاندو بقوله: «مهما تكن الفروق المزاجية بين العنصرين قوية فقد مرّ عليهما اثنا عشر قرناً وهما يعيشان تاريخاً واحداً وتقاليداً واحدة». وفوق ذلك، فإنهما يشتركان في الإسلام بيتاً... على أن محاولة التعرف على العربي أو البربري على أساس الصفات الجسمانية هي محاولة يُفكّر عليها أن تُؤبّد بالفشل وتزداد الحالة تعقيداً بسبب التزاوج مع السود، الأمر الذي أُلغى الناس منذ قرون<sup>(١)</sup>. وللملاحظ للواقع المغربي عن قُرْب ليس في حاجة إلى أي نص لتثبت من ذلك، بل تكفيه الملاحظة المجرّدة لتي لا تحكمها الخلفيات الإيديولوجية من أجل التوصل إلى ما نحن بصدد تجشّم غناء إيجاباته، فالقضية هي قضية مسافة جغرافية

لا أكثر، إذ بقدر الابتعاد عن الواقع المُتخَنّت عنه ترتفع درجة ضبابية الرؤية، وسيطرة عناصر واقعٍ آخر في فهم الواقع المغربي.

وهذا بالضبط هو ما ينطبق على الملاحظ المشرقي، الذي يُشتمد على واقع آخر في منطقة أخرى من العالم لفهم حالة المغرب. والمسألة الكردية في الشرق العربي تُعتبر المصفاة التي يمز من خلالها للملاحظ عن بُعد للواقع المغربي، إذ يتصور الأمر ويتناوله بواسطة العناصر المحيطة بالقضية هناك، وهي عناصر شغلها وروجتها وسائل الإعلام. وهذا الفهم المتسرع والقاتم على الإنسقاط اللاعلمي هو ما نفّخ الكاتب العراقي الراحل هادي العلوي<sup>(٢)</sup> إلى الحديث عن جمهورية مستقلة للبربر لها قيادة، وعن ضرورة تاصيل خطها القومي بتبني مبادئ حركات التحرر!

إن من يُطرح القضية من خلال «المصفاة الكردية» يغيب عنه عمق الإحساس بانتماء المغاربة جميعاً إلى الأمة العربية الإسلامية. ويكفي هنا أن تُذكر بأن شعار ثورة الريف، ولا أحد يستطيع أن يزياد على عيد الكرم الخطابي، كان نشيد «اليوم هيوو للعرب هيوو». كما أن فكرة الأصل اليمني للأمازيغ كان لها دورها في زرع هذا الإحساس وتعميقه، والذي يجب وعيه بالنسبة إلى هذه النقطة هو أن المسارات تختلف تمام الاختلاف. فممن أن طرَح الاستعمار هذه القضية في المغرب من زاوية تجزئانية، عمّد العلماء والوطنيين إلى مواجهتها كما انعكس ذلك على المواطنين الذين ألقنوا أن المغاربة شعب واحد، ورتدوا جميعاً دعاء «اللطيف»<sup>(٣)</sup> الذي يُكثف عن إحساس قوي بالوحدة لا نجد له نظيراً إلا لدى الشعوب التي سهرها التاريخ والأحداث والثقافة.

١ - تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نيقولا زيانة (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٠)، ص ٢٧ - ٣٩.

٢ - عز الدين المناصرة، المسألة الأمازيغية في الجزائر والمغرب - إشكالية التعددية اللغوية (عنان دار الشرق، ١٩٩٨)، ص ٧١.

٣ - داء اللطيف الذي رثته المغاربة احتجاجاً على الظهور البربري الذي حاولت فرنسا أن تفرّق بيننا وبوسطه، هو كالتالي: «الهم يا لطيف سلكنا اللطيف فيما جرّبت من القانير، لا تفرّق بيننا وبين إخواننا البرابر».

الشخص أو ذلك، وهذا هو ما يؤكده محمد عابد الجابري وهو يتحدث عن نفسه فيقول:

«إن كاتب هذه السطور، مثلاً، وهو من منطقة يتكلم أهلها الامازيغية (الجنوب الشرقي للأطلس)، لم يبدأ بتعلم العربية الفصحى إلا ابتداءً من الثامنة من عمره عند دخول المدرسة. أما الدارجة المغربية فكان يتجملها جهلاً تاماً. ومع ذلك فقد كان يحفظ القرآن لأنه أحسن المسيد (الكتاب) حوالي السنة الرابعة من عمره. ولم يبدأ بتعلم العربية الدارجة المغربية إلا حينما غادر قريته للانتحاق بالمدرسة الثانوية... أما الكبار من أفراد عائلته فلم يكونوا يتقربون من العربية الدارجة المغربية إلا كلمات، وكان منهم من بقي يتجملها إلى أن توفي في سن السبعين أو التسعين وهو يحفظ القرآن ويصنع النصوص أيضاً. ومع ذلك، فلقد كانت هذه العائلة، وما زالت، تملك شجرة نسب 'مؤقّنة' تجعل أفرانها من نوبة فاطمة بنت الرسول: العربية القرشية. ولا يتعلق الأمر هنا بـ 'حالة خاصة' بل تلك حالة سائدة في جميع جهات المغرب السهل من والصحراء والجبل.»<sup>(١)</sup>

### تجاوز منطق الاثنية والأغلبية

نجد في الكثير من الدراسات العربية حول أوضاع الأقليات في العالم العربي<sup>(٢)</sup> إبراجاً للبربر والامازيغ في خانة الأقليات، وذلك من دون أي مسوّغ ملموس. وهذا الإحساس نفسه يستشعره المثقّل عند قراءته للكثير من كتابات النزوعين، إذ إن لهجة الكتابة تشدّرك بل إن المتحدث عنه ألقية موضوعاً الحقوق، في مواجهة أغلبية مهيمنة، يبدعها القرار النهائي - سياسياً

وهناك حقيقة أخرى خُفيت على أساتذة السوسولوجيا الاستعمارية ويحاول النزوعيون اليوم إخفاها بشكل متعمد، وهي أن التداخل والترباط - بالزواج أو بالتجارة أو غيرها من الروابط الاجتماعية - قد كانا بين «العرب» و«البربر» أقوى منهما بين أصناف «البربر» بعضهم مع بعض. ذلك أن «البربر» أو الامازيغ في المغرب ثلاث فئات سكانية متميّزة، ليس بمناطق سكنها فقط بل بلهجاتها أيضاً. وهذا التباعد اللهجي والجغرافي «جعل علاقة التداخل والترباط وحركة الاندماج الاجتماعي تتم، على جميع المستويات اليوم كما بالأمس، في اتجاه: عرب ← بربر، بربر ← عرب، وليس في اتجاه بربر ← بربر.»<sup>(٣)</sup>

لذلك، فإنّه بكلّ المبالاة الحادة بين «العرب» و«البربر»، كما يفعل النزوعيون، يُؤزّنا بالأحرى الحديث عن مفارقة ناطقين بالعربية وآخرين ناطقين بالامازيغية. والحق أنّه ليست بين هؤلاء وأولئك اختلافاتٌ بامتدّ، وذلك راجع إلى أن الساكنة المغربية «الامازيغية»، في الكثير من الحالات ذات أصول عربية وقد مُزّجت بفعل التفاعل: كما أن الساكنة «العربية» ذات أصول بربرية وقد تمّ تعريبها شيئاً فشيئاً على مرّ القرون - ولم يحدث ذلك عن طريق إرغامها على ذلك، بل عن طريق آلية التبادلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، خاصة في المدن الكبرى التي كانت تؤدّي للعروبة منذ البداية.

إنّ هذه الصقائن المزيّكة هي التي تهبّ الهوية المغربية خصوصيتها وتميّزها. ذلك أن المعرفة أو الجهل بالعربيات (الدارجة) أو بالامازيغية ليسا مقياساً للحكم على انتساب هذا

١ - محمد عابد الجابري، المغرب المعاصر - الخصوصية والهوية، الحداثة والتنمية (لدار للبيضاء: مؤسسة بشرة للطباعة والنشر، ١٩٨٨)، ص ٩٧.

٢ - الجابري، ص ٩٦.

٣ - انظر محمد الدين إبراهيم، الملل والنحل والإعراق: هموم الاقليات في الوطن العربي (القاهرة: مركز ابن خلدون، ١٩٩٤). وانظر كتاب أزمة الاقليات في الوطن العربي لمحمد إبراهيم علي وميلاد حنا (بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٢)، حيث تمت معالجة الموضوع بشكل يعتريه التسرع وعدم الإنالام بالمعليات - وهو ما يتكلّف إلى جانب الأكراد والسيميين، وهو ما يؤكّد ما قلناه أعلاه من أن مثل هذه المقاربات تفكر عن طريق تزييف آلية «الاستقطاب» الأمر الذي يشرعها من فهم الموضوع



مفهوم الاقلية، لا ضرورة لاستحضاره عددياً، او دلالياً، او ثقافياً، في حالة الامازيغ

بتمايز واختلاف ذلك الآخر. قد يكون شعوره بسبب اللون او الشكل أو اللغة أو الهيئة أو السلوك. وقد يتبلور هذا الإحساس أو الشعور داخل جماعة ما، ثم تبدأ الجماعة في إعطائه شكلاً ومحتوى عقلانياً، بمعنى خلق وتكوين الأسباب والبررات المقبولة الكامنة خلف هذا الشعور تجاه الآخر أو القريبة خاصة لو أخذت العلاقة المتبادلة شكلاً عدائياً.<sup>(٦)</sup>

الملاحظ أن هذه السيرة لم يكتب لها أن تتجذر في المغرب بفضل إحساس الكل بالانتماء إلى أصل واحد، وبسبب وحدة الدين والمذهب، وتمكن الناطقين بالامازيغية من التواصل بالدواجر المغربية، ونتيجة أيضاً للشعور بالانتماء إلى الأمة العربية الإسلامية. ومما يزكي ذلك أنه لم يُحدث قط في تاريخ المغرب أن شخَر فريق من سكانه أنهم يشكلون أغلبية أو أقلية. يقول الجابري:

«نعم، إن الذي يُنظر إلى الأمور من الخارج، كما كان يفعل أصحاب السوسيولوجيا الاستعمارية، قد يقرأ له أن في المغرب 'أغلبية' تتكون من 'البربر'. لكن لو أن هذا الملاحظ وضع نفسه بين صفوف هذه الفئة أو تلك من فئات البربر، لما وجد مفهوم الأغلبية أي أثر ذلك أن 'الأنا' هذه المرة، لا يتحدد بـ 'الآخر' الذي يُوصَف بأنه 'عربي' بل بـ 'الآخر' من ذوي فلان أو ذوي فلان من القبائل البربرية نفسها... وهذا يعني أن كل من يفكر من الفارسية سواء أكان ممن وصف ضمن 'البربر' أم ضمن 'العرب'. بأن يجعل نفسه 'أغلبية' سيكتشف في الحين أنه 'أقلية' سواء على مستوى اللغة، أو على عدد من السكان، أو المساحة من الأرض، أو على مستوى الخصب والفنى... وهذا التوازن الذي يجعل من التعدد وحدة لا تغيب الانقسام هو ما يشكل جوهر الحقيقة المغربية»<sup>(٧)</sup>

اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. وإذا كان الموقف الأول يرجع إلى الجهل بمعطيات تاريخ المغرب وواقعه، فإن التناول الثاني يمكن إدخاله في إطار الاستراتيجية الرامية إلى إشعار القارئ بأن هناك فئة متميزة عرقياً وثقافياً، ومنسجمة في مطالبها، تعاني التهميش والإقصاء.

إن مرامي معالجة الموضوع من هذه الزاوية تتمثل في تقصص وضع الضميمة، والترويج - بأسلوب آخر - لما تُوحى به فكرة «شعوب الاندجين» التي ستبين خلفياتها وتكشف عن أبعادها فيشكل عام، يرى أصحاب هذا التصور أنه لكي يكتب للضميمة ما أن تجد لها صدق لدى الرأي العام، فإنه يجب الظهور بمظهر المضطهد، وفرض صورة عن الذات شديدة البؤس، بإمكانها هي وحدها أن تكسب التعاطف. وعلى هذا المستوى، فإن أي تمثيل لا يُقد مفرطاً، ويلوغ التطرف في إبداء الرأي شيء مطلوب، وأبني مُشكل بسيط يجب تضخيمه ليتحول إلى إهانة عظمى.<sup>(٨)</sup> مرة أخرى، فإن الواقع غير ذلك تماماً.

وحتى لا نُدخل في التعقيدات المتعلقة بتعريف «الأقلية» و«الأغلبية»، والنتيجة عن كثرة العلوم التي تناولت هذا الموضوع<sup>(٩)</sup>، وعن اختلاف البيانات المروسة: وبعيداً عن التناول العدي الذي يُستمد الإحصاء ولا يُصمد أمام اللقد: فإننا نكتفي بالإشارة إلى معنى أساسي يحدد «الأقلية» بدقة. وهذا المعنى يتطرق بالإحساس النفسي العميق بالتمييز عن الساکنة الأخرى، ووجوب حاجز نفسي يعطي لكل طرف شخصيته المتميزة، والتي يأتي الدين واللغة والتاريخ والعادات والقانون لتثبيتها وزيادة من أبعادها.

والإحساس بوضع الأقلية يبدأ في التشكل عن طريق الشعور بـ «الجن» في مقابل الآخر. وهذا الشعور يبدأ عفويًا وثقافياً ولاعقلانياً: فالفرق حين يواجه غريباً يتولد لديه إحساس...

١ - Pascal Bruckner, *La tentation de l'innocence*, éd. Grasset, 1995, p. 134

٢ - *Droits des minorités et des peuples autochtones* (ouv coll), éd. PUF, 1996.

٣ - أزمة الاقليات في الوطن العربي، مصدر سابق، ص ١٨.

٤ - الجابري، مصدر سابق، ص ٩٦.

مفهوم الأقلية، إذن، لا ضرورة لاستحضاره عددياً، لأنّ التحدّث بالامازيغية يتحدث العربية كذلك - فهو حاضر في خانتين لا واحدة. كما أنّه لا ضرورة لاستحضار ذلك المفهوم دلاليّاً، لأنّه يستعدي مفاهيم أخرى مثل المجموعات العرقية؛ في حين رأينا أنّ الامازيغ يتّشرون عن المرقّق مثّلهم في ذلك مثل العرب، إذ يلاحظ في هياكلهم خصائص متنوعة جداً، بل متباينة أحياناً. أما ثقافتنا فالامر متعلّق كذلك: ذلك أنّ الثقافة العربية التي يراد لها - من وجهة نظر نزوعية - أن تضادّ الامازيغية، هي الأخرى في جزء كبير منها من إنتاج الامازيغ! إنّ الوضع في المغرب، إذن، شديد التركيب، وكلّ المكونات متشابكة ومنصهرة، لذلك فهي تستعصي على التحليل السطحي البسيط.

#### الظهير البربري: قلب المفهوم ووظائفه

ما الذي يعنيه «الظهير البربري»؟ وما الداعي إلى طرحه بوصفه مستجاباً إلى تقويم وتصحيح بداية تشير إلى أنّ الظهير البربري هو مجموعة من القوانين التي أصدرها الاستعمار الفرنسي بتاريخ ١٦ ماي ١٩٣٠، وتُعدّ لتنظيم المحاكم في المناطق الامازيغية، وجعل الاعتراف أساساً لها. ويُعتبر الظهير البربري محطة فارقة في تاريخ الاستعمار الفرنسي للمغرب، إذ أدّى إلى أن تشنّ القوى الوطنية عليه حرباً لا هوانة فيها، معتبرة إيّاه تهديداً للفرقة بين المغاربة. كما وجد ذلك الهجوم صدها في الصحافة العربية، على نحو ما تشهد به أعداد لغزير والفتح والشعوري والمؤيد في القاهرة، وصحيفة الجامعة العربية في فلسطين والعهد الجديد في بيروت... إضافة إلى الصحف اليسارية الفرنسية التي قاومتها هي الأخرى بوصفه مساً بوحدة المغرب وتجنّيداً للاستعمار الفرنسي والإمبريالية بصفة عامة.

والشائع اليوم لدى كل المغاربة أنّ هذا الظهير استعماريّ الخلفيات، وأنّ من بين أهدافه اللعب على التمايز «الامازيغي» و«العربي»، وتجنّده من أجل التأسيس للطائفية بالمغرب، كما سنّق أن أسس لها في الكثير من الدول الإفريقية. فهو يُخرّج قسماً هاماً من السكان عن القضاء الشرعي، ويحوّل جانباً من المسائل القضائية في المناطق الامازيغية إلى المحاكم الفرنسية، ومن ثمّ يُقلّ على تمزيق وحدة السلطة المغربية. وتبيّن ذلك فقد قدّم أعضاء الحركة الوطنية المغربية مجموعة من المطالب تتمحور حول إلغاء هذا الظهير، وإقامة قضاء موحد لجميع المغاربة، وحصر الألبان القومية في المغرب في الإسلام واليهودية، ومنع التبشير بالديانة المسيحية، واعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية للبلاد واعتمادها لغة أساسية في التعليم

الآن سنقرض لعملية قلب هذا المفهوم من طرف النزوعيين بشكل يتجاوز كلّ التوقعات، فالظهير البربري حسب تصوّرهم ليس حقيقة، بل خيال صنعته الحركة الوطنية من أجل تجييش المغاربة وتليبهم ضد الامازيغية. وهو نصّ يُشمل (في رأي النزوعيين) مضموناً إيجابياً يتمثّل في الفلسفة الجديدة التي أتى بها، والمتعلّقة بالهوية واللامركزية والديموقراطية الاجتماعية السكانية، كما أنّه يشكّل مفهوماً جديداً لإشراك المواطنين في تسيير شؤونهم وحلّ نزاعاتهم؛ بل إنّ «الأكثر ديموقراطية بالنسبة لكلّ ما صنّ من قوانين وتشريعات وأنظمة سياسية في تاريخ المغرب»<sup>(١)</sup> لذلك فإنّ أصحاب هذا التصور المتهاافت يُدعون إلى «إحياء وتطبيق هذا 'الظهير البربري' الفرنسي، أي الذي أصدرته فرنسا»<sup>(٢)</sup> محاولين تمييزه عن الظهير كما تحدّث عنه الوطنيون المغاربة. وعليه، يُقدّش النزوعيين الظهير الأخير أسطورة واكثوية لم يسبق أن وجدت، وهو ما سمّح لهم بالحديث عن «بهتان واكاذيب الحركة الوطنية التي «مارست القسوة والتخريف»<sup>(٣)</sup>

١ - عبد الحفيظ ككنوش، انظر مقاله بالفرنسية في العدد ٥٧ من Tawiza

٢ - Tawiza 62, Juin 2002.

٣ - نفسه. وجموع هذه الآراء الشاذة رُجّع لها محمد بوعمان، وحسن وعزي، وعبد الحفيظ منيب وأحمد عصيد، وغيرهم كثير.

الخطاب النزوعي الأمازيغي لا يعمل سوى على إعادة إحياء أطروحات السوسيولوجيا الاستعمارية حول المقاربة وتاريخهم وهويتهم

وطنية. فيمقتضاه، أن يخضع الأمازيغ للقانون الفرنسي، ونتيجة لذلك أن يخضعوا للسلطان [محمد الخامس] على أساس أن سلطة هذا الأخير كانت دينية وتتضمن تطبيق الشرع. إن هذا النظام القضائي الجديد كان سيؤدي إلى التفريق بشكل عميق بين الناطقين بالعربية والناطقين بالأمازيغية، تطبيقاً للفكرة السائدة في بعض الأوساط الاستعمارية الفرنسية التي تنهب إلى أن البربر قابلون للاستتباع بشكل مطلق، بشرط أن يتم تطهيرهم مما له علاقة بالعربية.<sup>(١)</sup>

إن ما تمارسه النزوعية تجاه هذا الحدث الخطير هو أشبه بمن يشمل عينيه لكي لا يرى الحقائق الواضحة التي قد تفرض عليه تغيير استراتيجيته. فالسياسة الفرنسية تجاه المستعمرات كانت تقوم على مبدأ «فرق تسد» الذي اعتمدته روما، ليصبح فيما بعد ثابتاً من ثوابت فرنسا. وقد اعتمد بوناپارت في حملته على مصر: إذ أعلن في البدء أنه «سيحرر الشعوب الخاضعة لظلم المماليك»، لكنه بعد ذلك سيعتمد على بعض الأقباط لتوجيههم ضد الأتراك، بل سيشكل ما سُمي بالفيالق القبطية. والخطة ذاتها ستعتمدها فرنسا في الجزائر، إذ إن الجنرال De Bourmont سيعلن في بداية الاستعمار أن الجيش الفرنسي جاء ليُطرد الأتراك، وسيُعمل خلفاً على استدعاء أمراء أسرة الباي بتونس، وسيُجهّد بعض القبائليين الجزائريين لضرب الوحدة. والخطة ذاتها ستكرر في المغرب من طريق تلقيب جهة ضد جهة أخرى. وهذا ما أكدّه المستعمر الفرنسي اليبيني بقوله: «إذا كانت هناك أخلاق ونزعات يجب احترامها، فهناك أيضاً أحقاد ونزاعات يجب معرفة كيفية فرزها واستغلالها لصالحنا بمصادمة بعضهم ببعض، وباعتمادنا على بعضهم لهُزم الآخرين بشكل أفضل»<sup>(٢)</sup>

لنلاحظ كيف تم قلب كل التصورات اعتماداً على قراءة سطحية للتاريخ، واستحضار حسن النية في التعامل مع المستعمر، وسوء الظن تجاه الحركة الوطنية التي اضطهد أعضاؤها من طرف الاستعمار الفرنسي ونُقلوا إلى منازع ثانية بعد فضحهم لهذه المؤامرة. وبذلك خُفّفت إلى إعطاء مضمون إيجابي لهذا الظهير، وإلى إخفاء شعور الإحساس بالنقص والدونية تجاه الآخر واحتقار الذات (الظهير الأكثر ديمقراطية في تاريخ المغرب) فالمغاربة، بحسب هذا المنطق، عاجزون عن التشريع لأنفسهم، وعاجزون عن تسيير ذواتهم. وهذه هي الفكرة نفسها التي اعتمدها المحتل لتسويق استعمارهم للمغرب. ألم نقل بأن هذا الخطاب النزوعي لا يعمل سوى على إعادة إحياء أطروحات السوسيولوجيا الاستعمارية حول المقاربة وتاريخهم وهويتهم؟

ولإحاطة بفداحة هذا القلب، فإنه يكفي أن نتصور اليوم فرنسياً يُكلم من شان المارشال بيتان الذي تعارض مع ألمانيا النازية، ويضفي قيماً سلبية على المقاوم جون مولان والجنرال دوغول. إن هذا الموقف يعطي صورة واضحة عما يُشمل أصحاب هذه الرؤية على تجذيره، وهي رؤية سطحية تُفزع الظهير من سياقه، وتُفقد عن إدراجه في السياسة العامة التي كانت تُنهجها فرنسا في التعامل مع مستعمراتها آنذاك، والتي تقوم على شعار «فرق تسد». كما أنها تُعمل على اختزال الظهير البربري في مجرد شائون، في حين أنه هو سياسة متكاملة كانت تُشمل القضاء الذي يُعتبر القمة البارزة في هذه السياسة، والتعليم الذي سيفير من خلاله التاريخ والعادات والتقاليد والمعتقد، والجغرافيا التي تُعتبر الهدف النهائي لجموع هذه الخطة، والتي ستؤدي إلى إخضاع المغاربة جميعاً.

وقد وعى خطورة هذه الخطة الفرنسي قبل المغربي. يقول المؤرخ الفرنسي بيرنار لُوغان: «إنّ [الظهير البربري] يُعتبر بحق كارثة

١ - Bernard Lugan, *Histoire du maroc des origines à nos jours*, éd Perrin, 2000, p. 272.

٢ - Charles-Robert Ageron, "Du mythe kabyle aux politiques berbères," in *Le mal de voir*, Cahiers Jussieu/2, Université de Paris VII, éd. 10/18, 1976, p. 332.

العالم، لذلك فقد كان يتم تعويضه بالفاظ أخرى تدل على ذلك مباشرة مثل «سكان المغرب القديم أو الأوائل» فالأصلي في مثل هذه الفاظ يُفهم في إطار زمني لا غير، ولا يتضمن أية حمولة إيديولوجية كذلك التي أصبحت له بعد تضمينه في تلك الإعلان العالمي.

واليوم، بعد تبني الأمم المتحدة لهذا اللفظ، يمكن القول بأنه قد فقد دلالة الجمعية الأصلية الدالة على الزمن، وأصبح ذا معنى ثقافي وسياسي يُحرف تاريخ المنطقة ككل، ويوجه المظلي إلى تبني فهم للتاريخ يقوم على الصراع بين ساكنة المنطقة، ويُنفعه - نتيجة لذلك - إلى اتخاذ مواقف قَبَلية تجزئية ومائفية. وهذا المنعطف المفاهيمي الخطير الذي عرفه هذا اللفظ لم يُعْمَم من فراغ، بل جاء نتيجة صياغته انطلاقاً من قراءة تاريخ شعوب وأماكن أخرى لا علاقة لها بالمغرب. والدليل على ذلك أن تبنيّه من طرف النشطاء التزويعيين جاء في مرحلة تالية، أي بعد أن اكتملت صياغته بحيث لم يكن لهؤلاء أي إسهام في تأسيسه والتتظير له!

وتجدر الإشارة إلى أن ترجمة «الشعوب الأصلية» ترجمة غير موفقة لأنها لا تقي بالملحول الحاضر في اللغات الفرنسية والإنجليزية على وجه الخصوص. فالإنجليزية تتحدث عن *les peuples indigenes*، والفرنسية تتحدث عن *les peuples autochtones*. والمهم في هذا السياق هو أن اللفظين الإنجليزي والفرنسي محمّلان بدلالات خاصة تُلمسها في المعجم اللغوي وحده دون اللجوء إلى تاريخ هذا اللفظ وإيحائاته السياسية: ففي معظم المعجمات والموسوعات يُعرّف «الأتيميّج» بوصفهم سكان منطقة اجتاحتها المستعمرين أو سكان منطقة واقعة تحت تأثير المستعمرين، ويقدم كمثل توضيحي تعبير «ثورات الأتيميّج». إن المعجم وحده، إذن، يكفي للدلالة على خطأ الترجمة العربية. وعدم ادائها للمعنى المقصود في اللغات الأخرى: ف «الشعوب الأصلية» ترجمة مشوهة ومشوهة للواقع والتاريخ للغربيين: ذلك لأن الأصلي هنا ليست له أية علاقة بما للأصل من دلالات إيجابية، بل

إن هذا الإطار الإمبريالي الذي يضفي عليه التزويعيين، اليوم، مختلف القيم الإيجابية هو وحده الذي يمكن أن تُدرج ضمنه السياسة البربرية لفرنسا تجاه الجزائر والمغرب - وهي سياسة، كما يقول شارل روبير أجيرين، «لوست شرة صدفة إثنوغرافية» بل هي نتيجة حتمية تاريخية، أي أنها من صنع فرنسي صرف إنبثاقاً وتنشئة. وهي السياسة نفسها التي سلكتها فرنسا في الهند الصينية وفي مدغشقر وفي سوريا: ففي هذه الأخيرة اعتمدت فرنسا سياسة البلقنة، وجزأتها إلى دويلات صغيرة هي دويلة دمشق ودويلة العلويين ودويلة جبل النور ودويلة حلب... كما عملت على تاجيع الأقليات، فصانعت الموارنة والدرزي والشيعية والأرمن والشركتين والسنة...

#### من الشعوب الأصلية إلى شعوب الأتيميّج

من بين أكثر المفاهيم المستعملة من طرف الخطاب النزوعي مفهوم «الشعوب الأصلية». وفي المفهوم استُعمل في الدراسة المغربية في وقت جد مبكر في كتب التاريخ، والكل يُحفظ عن ظهر قلب التعريف المسكوك: «إن سكان المغرب الأصليين هم البربر، وقد هُجروا إلى المغرب من اليمن عن طريق الحبشة ومصر». ولم يكن هناك أي اعتراض على هذا التعريف ولا على استعمال لفظ «الأصليين»، بغض النظر عن حقيقة التاريخية أو عدمها: فتضمن هذا التعريف لاصل البربر الأول، التمكن في القدم من اليمن، يعني عن نمن اللغوي أي اختلال بين اللغوية الناطقين بالعربية والناطقين بالامازيغية برغمًا إلى أصل واحد، وهذا ما تنهك اللغوية وعاشوا عليه إلى اليوم. ولكن ما يُفرض اليوم مراجعة هذا المفهوم وإخضاعه للتفكير من الاختلاف الجذري بين ما كان يعنيه في التعريف المدرسي، وبين ما يعنيه اليوم بعد إصدار الأمم المتحدة للإعلان العالمي للشعوب «الأصلية» وانخراط الكونغرس الأمازيغي فيه، وتبني أفكاره من طرف الكثير من النشطاء الأمازيغيين الذين تصدق عليهم صفة «النزوعي» بامتياز. فلفظ «الأصليين» في السياق المدرسي كان ذا مدلول معجمي يُحيل على أقدم من استوطن هذه المنطقة من

مفهوم «الأنديجين» غير صالح لتوصيف حالة  
الأمازيغ، لأنّ علاقتهم بالعرب ليست صدامية ولا  
استنصالية

الأميركية وكندا وأستراليا وأمريكا اللاتينية وجنوب إفريقيا  
وزيلاندا الجديدة... حيث أبيد الهنود الحمر وأوروبيين أستراليا  
وغيرهم ممن عانوا الإقصاء والقتل المنهج<sup>(٧)</sup>

هذه العلاقة الصدامية والاستنصالية التي أقامها الأوروبي مع  
هذه الشعوب، والتي تسوّغ لها تبني هذه المعاهدة، بإقبالها سلوك  
مختلف تماماً لما ساد في المغرب. وهذا ما يؤكده القدم نحر في  
تعميد الهوية المغربية في تاريخ المغرب الإسلامي، والذي زلّعه  
أعيان قيس وأشراف زناتة مع القائد العربي حسان بن النعمان  
الازني، وجاء فيه: «هذا ما شهّد به أجداد قيس عيلان لأخوانهم  
زناتة من ولد بر بن قيس عيلان بن شُحْر بن نزار بن معد بن  
عدنان، فلتتم، والحمد لله، إخوانتنا نسباً وأصلاً، ثرؤفينا ونركم.  
نجتمع في جدّ واحد، هو قيس عيلان؛ فلكم ما لنا، وعليكم ما  
علينا، لم نرُكّل نُكرّف ذلك ونتوارث علفه وصمغته عن أبائنا  
ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالأنساب منا، يأخذ  
كابر عن كابر وعادل عن عادل، فليعرفوا ذلك ويكرّموا أنفسهم  
وبوالهم معرفته...»<sup>(٨)</sup> ففي مقابل التعامل المهني واللائق  
الذي طوّق تلافى شعبين، والذي يعطي اليوم الأنديجن الحق في  
الصديق عن الشعب الأصلي بكل مخلولاته وإيهاماته، نجد في  
المغرب تعاملًا رافقًا بتعمد التكتل والتقدّ والوثبة وتقرير الأفع  
والسلف الواحد والمشاركة في المنافع والمضار.

ليس هدفنا هنا تزيين التاريخ وتلميعه والقول بأن الأمر كان  
خطأ متصلاً؛ فقد حكّم العلاقة المذّ والجزر. وقد تمثّل الجزر في  
الصراع الذي كانت تحكّمه مرة العقيدة، ومرة الغنيمة، ومرة  
أخرى القبيّة، وكان يضمّ أمشاجاً عربية وأخرى أمازيغية.  
ولكنّ التعميش وتوبيان طرفه في الآخر وانصهار الكلّ، كلّ ذلك  
ظال هو القاعدة التي يمتدّ هذا التاريخ.

يشمل دلالات تاريخية وسياسية وإيديولوجية، ويكرّم متبني  
النظر إلى المغرب بكونه مشكلاً من مستعمر ومستعمر. كما  
أنّه يطرح فكرة إبادة شعب لشعب آخر كمشكلة لا تُقبل  
النقاش. وهذا وحده يحكّم تعريب اللفظ بدل ترجمته،  
والصديق عن «معاودة شعوب الأنديجن» [لا للشعوب  
الأصليّة] للرفاء بالمقصود.

إنّ الأصليين الذين كنّا نتحدث عنهم فيما مضى ليسوا هم  
السكان الأصليين الذين يتم الحديث عنهم اليوم. فقد تمّ تحويل  
جزري للمفهوم الذي أصبح يحمل دلالات سكان أراض أخرى،  
هي أميركا وأستراليا وكندا وجنوب إفريقيا... وهو مفهوم لا  
مقابل له على أرض الواقع، إذ إنّنا عاجزون عن معرفة الأصلي  
على أرض الواقع المغربي؛ فالاستزاج بين «العصري»  
وهو الأمازيغي، وتبادلهما للمواقع، واختلاطهما بالسود  
والصقالبة.. كلّ ذلك يؤكّد أنّ وضع المغرب يمزق أطر هذا  
المفهوم الضيق ويتطلب الحديث عن شعب واحد.

ويزداد هذا الملح تأكيداً عندما ننلّع على التعريف الذي رجّة  
اشغال لجان الأمم المتحدة. فهذا التعريف يشدّد، هو الآخر،  
على الشعوب المنحدرة من سكان قدماء، طرّفهم من أرضهم  
شعب آخر مستعمر عمل على الهيمنة عليهم ومعاملتهم بشكل  
لاإنساني، وهم اليوم يعيشون تبعاً لمعادتهم الخاصة وتقاليدهم  
الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، أكثر من اتباعهم لمؤسسات  
الدولة التي ينتمون إليها رافعا<sup>(٩)</sup>.

من خلال هذه المعطيات، وغيرها كثير، نتضح لنا عدم صلاحية  
هذا المفهوم لتوصيف الحالة المغربية، وانحصار إجرائيته في  
فهم تلك المجتمعات التي ادى فيها تلاقى شعبين إلى تهميش  
الوافر للمقيم وإلى سطوة وإبادة، كما وقع في الولايات المتحدة

١ - Isabelle Schulte-Tenckhoff, La question des peuples autochtones, éd. Bruylant, Bruxelles, 1997, p. 7.

٢ - انظر. Yves Lacoste, Dictionnaire de géopolitique, Paris, Flammarion, 1995.

٣ - صالح بولعيد، في المسألة أمازيغية (الجزائر دار هومة، ١٩٩٩)، ص ٧٦.

وأسهامات وتلاقيات متنوعة تتكامل فيما بينها. ومن ثم، فإنّه يصعب حصرها في انتماء واحد. وحتى إنّ أسكن ذلك، فذلك على المستوى النظري، ومن باب تسهيل التسمية والتعيين وتمييزها عن الهويات الأخرى؛ أما عند إنزالها إلى أرض الواقع، فإنّها سرعان ما تنكسر وتتشتت، كاشفة عن العناصر التي يراد إخفاؤها ومطمئنها.

إنّ المكوّن العربي يسري في كلّ تظاهرات الأمازيغية، وهذه هي الحقيقة التي يرفض النزوعي التسليم بها. وهو يطن عن رفضه لها بلغة عربية فصيحاً، فيكتب نفسه ويتناقض مع ذاته بتصريحه هذا، إذ يطن - من خلال ذلك - أنّ الثقافة واحدة ومتنوعة، وأنّ الفرد واللغات والإنسانية كلّها تنطق عليها هذه القاعدة. إنّ الهوية كما يريدها النزوعي واحدة بدون تعدد، مخترقة في أحد مكوناتها الذي يتم تضخيمه على حساب المكونات الأخرى التي يتم تغييبها وتزويرها وإجتنائها للحصول على هوية منفصلة وهذا وحده كاهل دفع هذا التصور الفقير إلى إنتاج فكر فقير، وإلى الحديث عن العرق والأقلية، وتحويل المغاربة إلى شعب أنيجيين، وقلب مؤامرة الظهير الجبريري، وتحويل الوطني إلى خائن... وذلك كله من أجل تحقيق هدف واحد: القطع مع المكوّن العربي جملة وتفصيلاً، والتأسيس للجزنة، وجعل المغرب منطقة فراغ تاريخي رهيب.

وغنيه الإبريسمي

باحث متخصص في المسألة الأمازيغية، عضو المركز المغربي لحوار الثقافات.

بناءً على ما سبق نقول إنّ الانخراط في «معاهدة الشعوب الأصلية» من طرف بعض المغاربة النزوعيين هو إجراء في حق المغاربة، وإهانة لهم جميعاً، وتشويه للتاريخ المغربي. وهو أيضاً تُكرأ للثقافة الأمازيغية ولرموزها ومثقفها الذين فكّروا في المغرب كمجموعة ثقافية متكاملة، وارتنوا لأنفسهم الانخراط في الحضارة العربية الإسلامية، وساهموا في صنعها ونقلها إلى مناطق أخرى من العالم. فتمزيق عروب «أحاح» وتعريب «أمازيغ» خلّص، يعلنان الحديث عن شعوب أصلية وهما أسطورة وخطأ فادحاً في حق المغاربة جميعاً؛ ذلك أنّ الشعب الأصلي يكثر وجوده ذاتين متميزتين غير متمازجتين، تقيمان بينهما علاقة يحكمها الصدام والعزلة والعنصرية أحياناً.

#### من أجل هوية مؤشّحة

وأخيراً، فإنّ هناك عاملاً آخر يُحسّن بنا أن نقف عنده، وهو تبني أغلب النزوعيين لتصوّر عن الهوية خُصص لعملية تفكير متدرجة، فالنزوعي، يلقبه للمفاهيم بهذا الشكل الدائم، وسجنه لنفسه في لوائر هوياتية شديدة الضيق، وإعلان عدائه لكلّ مكونات الثقافة العربية، ومطالبة بالقطع مع المشرق... انتهى إلى بناء هوية على غرار تلك التي اعتمدها بعض المثقفين المصريين الذين نغّوا في الضميين والستينيات إلى البحث عن الجدد الفرعوني وكلّ ما يتصل بالصصور السابقة على الإسلام باعتبارها المرحلة المنقطة لهوية ووجدان الشعب المصري الذي عُثره الإسلام وطمس أصوله الحقيقية!

وهذه الاستراتيجية تنتهي بالنزوعي إلى تشكيل صيغة للهوية ذات بعرو واحد، وهي في الحقيقة هوية لا وجود لها في المغرب. والنزوعي هو أكثر الناس وعياً بذلك، لكنّه يثبّ نفسه بصحة تصوره ويعيش على هذا الوهم. وأما الهوية فهي في حقيقتها مؤشّحة، على غرار المؤشحات الانطسية التي كانت مزيجاً من المكونات تقاطعت فيما بينها لتصلب متوجّهاً جيداً. إنّها مجموعة من الانتماءات المتعددة التي أمكن تقاطعها وتمازجها عبر مراحل التاريخ الطويل والهجرات المتتالية، وهي من صنع روافد

## في الخطاب الأمازيغي: وجهة نظر نقدية

محمد الولي

اقيموا، يي امي، صُورن مطيكنم / إلاني إلى قوم سواكم لأمل

التسفرى

### الأمازيغية... فضائلا

في هذا الوضع، الذي تبدو فيه العربية والأمازيغية مظلومتين بنسب متفاوتة مقارنة بالفرنسية، فإن أغلب خطاب الحركات الأمازيغية يسندُ ضريكتها الظالة للعربية لا للفرنسية، رغم أن هذه الأخيرة هي التي تهيم في غير موطنها ولها في المغرب بجة استعماري رغم أهميته العلمية. ومع هذا، فإن وضع الأمازيغية صعبٌ جداً بسبب هذا الحرف الجديد (تيفيناغ) على الشعب. إلا أن أحد عوامل الإحباط هو أن مؤسسات التدريس والبحث قد قررت أن تضع حداً للتعدد «اللهجي» - وهو التعدد الذي يجعل متحدثاً من جنوب المغرب في سوس والأحر من الشمال في الريف لا يفهمان إلا بنسب ضعيفة جداً. صحيح أن أصل هذه «اللهجات» واحد وهو الحماية السامية (نقطة من الأصول المختلفة الاستعمارية الباسكية أو المالتية)، إلا أن العزلة التي عرّفت قروناً جعلت كل فرع يشق طريقه باستقلال عن الفروع الأخرى، حتى وصل إلى درجة التميز شبه التام. يقول ليونيل غالان Lionel Galand: «ترتبط لهجات السكان البالغة الاختلاف فيما بينها سمات لغوية مشتركة تؤمن وحدة الأمازيغية. غير أن واقعها يوكر فيضاً من اللهجات المحلية تصل إلى أربعة أو خمسة آلاف لهجة حسب التقديرات، لكل قبيلة ولكن قرية لهجتها...»<sup>(١)</sup>

والحق أن التوحيد المستهدف اليوم يعتمد على التدخل الإرادي الذي يُلجّزه الباحثون اللغويون للمتحدثين بتركية ما، وهذا بدوره يستجيب لضغط الجمعيات الأمازيغية. يقول أحد أقطاب هذه الجمعيات السيد إبراهيم أخياط: «الوطن بالنسبة إلينا يتبدى من سيوة بمصر حتى جزء الكنازي... وشعبنا هو الشعب الأمازيغي، ساكنة هذا الوطن الذي تعرّف واشك بعدة ثقافات أثرت فيه وأثر فيها. ولكن في النهاية هو شعب له خصوصيته وهويته. لذلك فنحن بالطبع سنولّج كل التوجهات الرافضة في سلب هذه الهوية أو احتوائها أو إقصائها كثقافة، كهوية، كحضارة.»<sup>(٢)</sup>

### الأمازيغية بين العربية والفرنسية

الأمازيغية هي إحدى اللغات السامية الحامية، والركيزة الأساسية للهوية الأمازيغية في المغرب والجزائر خاصة. كما تتمتع بوجود محدود جداً في تونس وإيبيا ومصر وموريطانيا والسنغال ومالي ونيجيريا. إلا أن المفاجئين الأمازيغ عن هذه اللغة قلما أشاروا إلى أن الهوية الحقيقية في شمال إفريقيا هي للفرنسية: فهي في المغرب لغة العلوم والطب والصيدلة والهندسة والإعلاميات ومدارس التدبير الإداري. وهي اللغة المعتمدة في جزء هام من شُعب كليات الحقوق في المغرب كله. إضافة إلى وجود حوالي أربع عشرة شعبة للغة الفرنسية في كل كليات الآداب بالمغرب وهي لغة الجزء الأكبر من الإدارة العمومية، ولغة «الجريدة الرسمية» المغربية إلى جانب العربية. والفرنسية هي لغة نصف التعليم الابتدائي والثانوي الجامعي. وهي تحتل مواقع رفيعة في الإعلام التلفزيوني والصحافة اليومية والرائد. وهي اللغة التي يعتمد عليها كثير من أدباء المغرب في الشعر والرواية والنقد. بل اللغات أن القوميين العرب والإسلاميين على اختلاف مذاهبهم، والأمازيغيين بمختلف تيّملهم، متفقون على هذا الأمر: «الفرنسية أولاً» وفي بعض الأحيان «الإنجليزية أولاً أو ثانياً»؛ وبعد ذلك تأتي العربية لأجل التواصل مع... العامة!

وعلى كل حال، فإذا كانت العربية تتمتع بمكانة أدنى من الفرنسية، فإنها تحتل مكانة أرفع من الأمازيغية؛ وذلك لأن العربية - طبعا - هي لغة القرنين والطبوس الدينية. وهي اللغة الرسمية للوطن بحكم القانون. وهي فوق هذا وذاك لغة التدريس في مجال الإنسانيات وكليات الشريعة، وهي لغة القضاء والأدب والشعر والصحافة والتلفزيون... إلخ. وهي اللغة التي يخاطب بها الملك الشعب.

ويغادروا إلى الأبد، وليسستقروا بفلسطين أو العراق أو أفغانستان، التي هي مواطنهم الروحية، مادام المغرب يستحيل أن يكون هو فلسطين أو العراق أو أفغانستان [١].

أقل ما يمكن أن يوصف به هذا الخطاب هو الإقصائية والتلويح بما لا تُحمد عقباة: أي المطالبة بإعلان المغرب مملكة أمازيغية، والتنكر التام للانتماء المتعدد للمغرب - وأعني إلى العروبة والأمازيغية والإسلام. وإن من يقرأ الكلام السابق لا يمكن أن يصنق صاحبه وهو يتحدث في سياق آخر مع مجموعة من مناضلي الحركة الأمازيغية الموقنين على «البيان الأمازيغي» سنة ٢٠٠٠، ويرد فيه: «نحن الأمازيغ إخوان العرب حيثما قطعوا، بحكم انتمائنا إلى الأمة الإسلامية، وبحكم الأواصر القوية التي تربطنا بهم، وبحكم التاريخ المشترك المطبوع والتأزير في السراء والضراء، تقاسمهم آمالهم وآلامهم، ونناصرهم في كل قضية عائلية. أما مواطنونا المغاربة الذين يعتزّون بعروبتهم، كما نعتزّ نحن بأمازيغيتنا، فنحن وإياهم ذات واحدة. لا ينبغي أن يُقنَّح منا ولا منهم بالنسب أحد، لأن الاعتداد بالأثرمة دليل على الضمور وتحايل من أجل نيل الرفعة والجاه والمال دون جهد ولا عمل.» [٢]

وكثيراً ما سمعنا أن العروبة مفروضة على شعب المغرب الذي هو في جملته شعب أمازيغي ولا علاقة له بالعروبة والشرق. يقول أحدهم: «إن الصراع في بلدنا يدور بين ما هو معاش وبين ما هو بيوتوبية معقسة. العروبة ليست لغة أي أحد. وتعلّسها يمرّ عبر الإكراه المدرسي...» [٣]

لكن السيد أخياط لم يتسأل عن عدد المتكلمين بالأمازيغية، فالحال أن لا أحد يتكلم بها بل بالإسبانية؛ على أن الأمازيغ هو هذا الخطاب يتناول الأمازيغ وكتفهم وحدهم أغلبية السكان، ولا حديث عن المكان العربي إلى جانبهم. بل الأغرب هو أن يمتد وطن أمازيغ المغرب، في تصريح أخياط، من شاطئ الأطلسي إلى سبيوة غرب مصر. فما قوله، إذن، في حرب المغرب، إلى أين امتدادهم؟ الواقع أن مقتضى هذا الخطاب هو ألا وجود للعرب في المغرب؛ ويقول أحد المتشددين الفلاة: «كل المغاربة أمازيغ» [٤]. ولكننا نشير إلى أن أكثر الباحثين يقدرون عدد الأشخاص الذين يتحدثون الأمازيغية لغة أولى بـ ٤٠٪ (غالان) [٥] أو ٤٥٪ (بوسكيه) [٦]. وحينما نستند على هذا، لا يمكن المرة إلا أن ندهش أمام خطاب المناضلين الأمازيغيين الذين يتحدثون عن الهوية الأمازيغية للمغرب وكتفها هوية كل المغاربة. هذا الخطاب ادعوه كلّنا لتجاهل التمدد الهوياتي في المغرب تجاهلاً تاماً واعتباره العربية مجردة كسور قابلة للإهمال. فلنتأمل قول أحدهم: «وإنّ ما ينبغي على السلطة بالمغرب القيام به، حتى لا تبقى رهينة لأبتراز التيارات القومانية والإسلاموية، هو الانسحاب مما يسمى 'الجامعة العربية' التي لا وجود لها على مستوى الأثر والفعل والنتاج، والإعلان رسمياً وبستوريات على أن المغرب مملكة أمازيغية. أما هؤلاء الذين يطمحون الأسبقية للمشاكل الشرق على المشاكل الداخلية للمغرب، فما عليهم - حتى يكونوا منطقيين مع أنفسهم - إلا أن يرحلوا عن المغرب

Mohamed Boudhan, "Tmazight entre le culturel et le politique," in *Amazighité, débat intellectuel* (Rabat: Centre Tarik ibn Ziad, 2002), p. 11.

Lionel Galland, "Les Berbères," *Universalis*, p. 1009.

G.H. Bousquet, *Les Berbères* (Paris: PUF, 1967), p. 19.

٤ - «لا ممارسة الأبتزاز على المؤسسة للكتابة باسم فلسطين» في جريدة *تاويرا*، أكتوبر ٢٠٠٢، ص ١١.

٥ - بيان بشأن ضرورة الاعتراف الرسمي بامازيغية المغرب، مارس ٢٠٠٠.

٦ - موجا مخلص، «العربية الرسمية رمز الأبارتايد لغوية مقبلة»، جريدة *أكرار* العدد ١٢٨، ٢٠٠٤، ص ٧.



لا يمكن مرة إلا أن يندبش أمام خطاب المناضلين الأمازيغيين الذين يتحدثون عن الهوية الأمازيغية وكأنها هوية كل المغاربة

الأمازيغية، والباحث الحضيف حسن أوريد، الناطق الرسمي باسم القصر الملكي. يقول الأول: «ليس هناك تنافس بين الأمازيغية والإسلام والعربية بتاتاً: فكلاً مكونات أساسية تشكل هويتنا الوطنية. علينا أن ننظر إلى الصلات بين هذه المكونات نظرة مستقبلية مؤسسية على روح المواطنة والتسامح»<sup>(١)</sup>. ويقول الثاني: «إن المغرب لغتين وطنيتين، لا ثالث لهما، هما العربية والأمازيغية. وإن مقتضى الوحدة يقرض أن تكون لبلدنا لغة رسمية واحدة، وأرى أنها اللغة العربية»<sup>(٢)</sup>. وقد فتح هذا التصريح الأخير المناضلين الأمازيغيين وأثار حفيظة حَمَلَة الإيديولوجيا الشمولية أو الكليانية، فتوجهوا إليه عبر الصحافة مسألتين إِنْ كان يعبر عن رأي شخصي أم أنه يعبر رسالة لجس النبض؟

ومن مظاهر هذه الانغلاقية في خطاب الإيديولوجيين الأمازيغيين تعصّبهم لاستعمال الحرف اللاتيني في كتابة الأمازيغية. وقادهم هذا الهياج إلى شن حملات مسموعة على الحرف العربي الذي جربوه من تسميته لكي يضعوا له تسمية «الحرف الأمازيغي»، نكبة في العرب وإنكاراً لحقيقة كون الحرف العربي حرفاً نبلياً من حيث الترتيب التاريخي. وسَمَك عليهم هذا القذوران العاطفي للطلبة بكتابة الأمازيغية بالحرف اللاتيني، الذي فسّده بـ «الحرف العالمي» أو «الكوني»

ولقد كان يوم ٢ أكتوبر ٢٠٠٢ حاسماً في التنبؤ الفنهاني لاستعمال الحرف اللاتيني خلال الاجتماع الوطني للجمعيات الأمازيغية وصدر بيان مكتاس، الذي «دعا إلى وصف الحرف اللاتيني بالحرف العالمي، ودعا إلى إدراجه في التعليم العمومي وتعميده وتغييره كحرف رسمي للتدريس والكتابة وحمل أعضاء المجلس الإداري للعهدة المسؤولية التاريخية في الدفاع عن جميع الاختيارات الاستراتيجية المنبثقة عن الحركة

صحيح أن مثل ذلك الكلام الانفعالي ليس له أي أثر علمي، ولكن ما تروّجه الصحافة موجبة إلى العامة المستهدفة بالتحريض والتعبئة. ومثل هذا الرسائل الدعائية يمكن، بتواتره وشيوعه، أن يثبث بالعامّة وتقوّمها عبر اللسارات العدمية وغير الإنسانية. ويؤكد الفكرة نفسها صحافي آخر مشهور بمثل هذه التدخلات المحمّلة بالنعرة العرقية: «أول خطوة يقرضها هذا القطع مع الإرهاب الذي ياتينا من المشرق هو الاعتراف الكامل والدستوري والشجاع للهوية الأمازيغية للمغرب، والإعلان رسمياً أن المغرب مملكة أمازيغية: مع ما يرافق ذلك من رد الاعتبار للأمازيغية كلفة رسمية للدولة المغربية، ووضع حد نهائي صريح، وشجاع كذلك، للتعريب الذي تمزّ عقول أبائنا وخوفهم إلى قتال موقوتة يفسّرها الوهابيون عن بعد كمأرادنا ذلك»<sup>(٣)</sup>.

وعليه، فإن العربية مرفوضة، في هذا التصور، لتوهم احتلالها مكان الأمازيغية؛ والإسلام مرفوض لأنه منقول عبر اللغة العربية. ولكن هل المطلوبة بالانفصال عن الشرق، وتطبيق اللغة العربية والإسلام والجامعة العربية، واستبدال اسم المغرب العربي بأخر غير عربي: هل كل هذا مبرّر من مواقف الدفاع عن الهوية الأمازيغية؟ هل يليق بالأمازيغ إعلان العداء للعربية، وهي لغة نصف ساكنة المغرب؛ وعلى من يراهن للمناضلون الأمازيغ لحماية الهوية الأمازيغية؟ لن ستمرس الأمازيغية اليوم وغدا؟ ليس العرب في المغرب في النهاية، هم حملة الأمازيغية، كما كان الأمازيغ - وما زالوا - حملة العربية

وللملاحظ أننا حينما نبتعد من مجالات تداول الخطاب النضالي ونقترب من المتكلمين من مواقع الكفاءة العلمية والسياسية والإدارية، نواجه خطاباً معتدلاً وروياً ومتسامحاً. وهذا ينطبق على كلام د. أحمد بوجروس، عميد للعهدة الملكي للثقافة

١ - في جريدة، تاويز، ج ٨٥، ماي ٢٠٠٤، ص ١٩.

٢ - «الأمازيغية والإسلام والعربية كلها مكونات أساسية في هويتنا الوطنية» (حوار) في جريدة القنجد، فاتح يناير ٢٠٠٤، ص ٥

٣ - في جريدة تاويز، ماي ٢٠٠٤، ص ١٩.

الفاصلة فوق كل اعتبار، أرى حقّ الأمازيغي يتلخّص في الغالب بدعوى لا علاقة لها إطلاقاً بمطالب الأمازيغيين الشرهاء.<sup>(١٦)</sup> ولكنّ الأهمي هو تشويه الوقائع من قبيل «اختلاق» أصول للأمازيغية غير الحامية السامية، والسعي إلى تطهير الأمازيغية من كل الملامح التي تدلّ على هذه الأصول المشتركة مع العربية. والحقّ أنّ للعجم العربي الذي تجذّر له امتدادا في الأمازيغية ليس ناتجا عن الآثار العربية المرافقة للفتوحات الإسلامية، التي يتوصّفها المناضل الأمازيغي، بل إنّ تاريخ تلك التقاطعات والتواشجات العائلية أقدم مما يتوصّفه فلنتأمّل قول بوسكيه.

«لقد طرح السؤال منذ زمن عَمَّا إذا كانت اللغة الأمازيغية الوحيدة الباقية من مجموعة من اللغات التي تعرضت كلّها للانقراض، أم أنّها تتمتع بأواصر قرابة مع لغات أخرى معروفة مئة أو حية. لقد طرحت في الواجهة أنواع من الأفكار التي لا تحظى بالقبول (مثل قرابتها مع اليونانية أو الباسكية أو اللغات القوقازية) والتي لا تنتمس بأية أهمية غير غريبة. إنّ الأطروحة الأكثر جدية، التي تتمتع في نظر البعض باليقينية، والتي عُولجت منذ زمن بعيد، هي أنّ الأمازيغية قد تشكّل فرعاً من اللغات الحامية – السامية... ومن جهة أخرى فإنّ عدداً كبيراً من جذور الكلمات مشترك بين اللغتين. كذلك هو الحال بالنسبة إلى الطوارقية. والحال أنّها اللغة الأقلّ تأثراً بالغزو اللغوي العربي. ولا يتعلّق الأمر هنا بالافتراض المتحقق في عصر متأخر. إذ إنّ الكثير من هذه الجذور تمّ استعمالها في نقاش تعود إلى أكثر من ثمانية قرون قبل الغزو العربي.<sup>(١٧)</sup>

هذه الأواصر العربية لا ينبغي أن تُترك لعبث أيّ كان؛ فالأمر يتعلّق بذاكرة لغوية عميقة وغائرة في التاريخ المسحيق، ذاكرة مشتركة بين العربية والأمازيغية. فلننصّت إلى أصداء هذا الرنين: كلمات أمازيغية في المعود الأول، وفي المقابل الكلمة العربية أو شرحها وتوليها المعجم. ولننظر إلى التقاطعات المنمّشة ما بين الصنفين:

الأمازيغية وتنظيمات المجتمع المدني للسانة لها.<sup>(١٨)</sup> وغني عن البيان أنّ ما يقدم لغة ما ليس «الحرف»، بل ما يُرصد لها من إمكانيات مادية ومن مجموعات بحث ومختبرات ومشاريع ابتكار وخلق تُدرج ضمن مسطحات عامة للدولة في كل المجالات. وكلّ هذا لا يتسنى إلّا للدول ذات المشاريع الكبرى المؤهّلة لمنافسة الدول المتقدمة في شتّى المجالات، ومنها مجالات الابتكار العلمي. ولا يبدو لي أنّ الحرف اللاتيني، حتى لو سمّناه «عالمياً» أو «كونياً»، قادرٌ – لمجرد تسميته – على اجتراح هذه المهام، وعلى النزال الميداني.

وعلى كلّ حال فإنّ التحزب العاطفي للغرب، عبر الدعوة إلى الانفصال عن الشرق العربي والإسلامي، دون أدنى مراعاة أخلاقية لمواظف المواطنين المغاربة المتعاطفين مع منّ يشاركونهم اللغة والدين والتاريخ والتطلّع إلى المستقبل، أُنْهَ عمل يستأنف مشروع الغزاة الفرنسيين الذين عملوا بكلّ ما أوتوا من قوة وذكاء لفصل البربري (أي الأمازيغي) عن العربي حتى يتمكنوا من الاستفراد بكلّهم وتحتسّر لهم سبيل الهيمنة. إنّ «تشجيعهم» الأمازيغية لَمَنَعْ مشيوي؛ وكذلك اعتبرهم البربر أو الأمازيغ ذوي علاقات بالباسك أو السلّت. ولو كان الفرنسيون يُعطّفون حقاً على اللغات المحلية أو الهامشية لَوَجَّهوا ذلك العطف إلى لغاتهم الملهمة مثل الباسكية والكورسيكية والبروتونية. الا ينهل فاعاشهم في للغرب عن الأمازيغية، وتكميم أفواه الباسك في الوقت عينه، سلوكاً منحطاً من الناحية الأخلاقية؟

على أنّ المناضل الأمازيغي الذي يلخّص مثلياً شريعاً، مثل إعادة الاعتبار للغة والهوية الأمازيغية بالتعلّق ببعض الأوامر الإيديولوجية الاستعمارية، إنّما يساهم في عرقلة تسوية مثل هذه اللغات بحكمة. ولقد سبق لي أن انتهت على هذه الزايق الاستثنائية. وإنّني، كمازيغي أضاع الانتساب إلى الإنسانية

www.attajdid.ma - ١

٢ - الدكتور محمد الرابي، «الرموزات الحجاجية الكبرى في الغرب»، في مجلة علامات، العدد ١٩، الغرب، ٢٠٠٢، ص ١٣٦-١٣٧.

٣ - G.H. Bousquet, "Les berbères," op cit., 1967, p. 21-22.

لو كان الفرنسيون يقطعون حقاً على اللغات المحلية أو الهامشية لوجهوا ذلك العطف إلى الباسكية والكورسكية والبروتونية

لمقاومة العرب «العدو المشترك» لقد قام أحد «مناضلي» الحركة الأمازيغية خطيباً في الكنيست الإسرائيلي قائلاً: «نحن وإياكم نواجه عدواً واحداً، هو العدو العربي المشترك» (٢٤) فها هنا من رددت فعل منطحة تلك التي تناصر الصهيونية تكأياً في العرب والعربية: إنها أحط أسلوب للدفاع عن الهوية الأمازيغية.

وقد عُبر أحد الإسلاميين عن هذا الموقف حينما قال: «هناك اليوم ترويج لخطاب أن العرب مستعمرون للمغرب، وخطاب عدائتي عنصري تجاه اللغة العربية. وأخشى أن يكون تبني دعوة الفصل بين الدين والسياسة المقصود منه إبعاد العربية، بحكم أنها هي الوعاء الذي مرّ عبره الإسلام إلى المغرب والعكس صحيح... إننا نلحس تصاعد خطاب عنصري، الهدف منه إرياء الإجماع الوطني وخلق مشاكل عرقية داخل المغرب» (٢٥)

لنلاحظ في الخطاب الهوياتي الأمازيغي أن الجزء الأكبر منه لا ينصب على الهوية حقاً، بل ينصرف إلى الحط من العرب والعروبة والإسلام وإلى تمقن الغرب وفرنسا بالخصوص، بل والصهيونية. وإنني كعازمي أجد لفتي الأمازيغية تنطبع في كل لحظة عبر خطبها بهمو لا علاقة لها بالهوية. بل أجدني أتكلم من كون الأمازيغ المعرّضين لكل أنواع المعاناة (البطالة) الأمية، الفقر، التهميش، هدر الكرامة الإنسانية) لا يحفظون من المتناضلين الأمازيغيين بأدنى اهتمام أو عناية، بمعنى أن البعد الاجتماعي يكاد يغيب في هذا الخطاب.

#### محمد الولي

استعاد التعليم العالي في البلاغة والنقد من مزاياه الصورية الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي له عدد كبير من الترجمات في النظرة الشعرية

#### المقابل العربي أو شرحها

مفرد  
ما يتركب في النساء  
دمنة  
انثى  
باب (ربما لأنها تواري)  
خطأ (لأنه يوراي)  
السقوط أو الوطء  
تبعه، أرفقه  
الكلب (من الخرق)  
ينظر ملياً (من الملة)

#### الكلمة الأمازيغية الريفية

أُرْمَدُوْة  
أَمْسَس  
أَشْمُتْ  
تَوَمْتْ  
تَوَرْتْ  
شَمَوْرْتْ  
وَلْ  
يَزِيكْ  
أَخْرَقْ  
يَسْمَعْلْ

والواقع أن هناك سجلاً طويلاً من هذا الجنس من الكلمات المتقاطعة مع أخوات لها في العربية، وهي تمثل تلك الإرث المشتركة والذاكرة الجماعية التي تستغل بالاصول السامية (٢٦) وإن المحاولات الحمولة الآن لتطهير الأمازيغية الريفية من هذه الكلمات ستؤدي في الأجل المنظورة إلى لمس تاريخ هذه اللغة ووشائجها باللفات التي ترتبط بها في شجرة اللغات السامية. والحق أن إبطال هذا التاريخ سيجعل من هذه اللغة كياناً ليقطع عديم الأبوّة التاريخية والأمومة المشتركة مع عديد من اللغات الحامية السامية.

#### على طريق طرح إنساني

إذا كانت الأمازيغية قضية عائلية، فلماذا تلطيخها بدمت الصروية؟ ولماذا التكاية في الشعب الفلسطيني؟ ولماذا شد الرجال إلى الكيان الصهيوني وعرض الدخول معهم في تحالف

- ١ - يذهب O. Rössler إلى حد إنجاح الأمازيغية ضمن الفرع السامي الذي تعتبر العربية جزءاً منه، ويتبعها عن موقعها للشان بين المصرية القديمة والقبيلية. نقلاً عن ليونيل غلان في Les berbères في الموسوعة Universalis.
- ٢ - القرقر الإسرائيلي أبو زيد، مجلة الفرقان، العدد ٤٦، آذار أليشاد، ٢٠٠٢، ص ٤٩.
- ٣ - حوار مع مصطفى المصمم، الأمين العام لحزب البديل الحضراري، في جريدة الصباحية، ٢٢ - ٢٩ يناير ٢٠٠٤، ص ١٩.

الليس في مفهوم إدماج الأمازيغية في النظام التربوي، إذ لا يميّز بين تدريسها كلفة، وبين التدريس بها. والأمّر يختلف بالنظر إلى الاختيارين.

فإذا كان المقصود بالإدماج تدريس اللغة الأمازيغية، فإنّ السؤال المشروع سيكون كالتالي: عن أيّ أمازيغية نتحدث؟ أهي تشلحيت، أم تمازيغت، أم تريفيت؟ وأما إذا كان مفهوم الإدماج يعني التدريس باللغة الأمازيغية، فإنّ السؤال هو: من سيُدّرّس بها؟ هل سيقصّر الأمر على المتعلّم الناطق أصلاً بالأمازيغية، لما لذلك من انعكاس إيجابي على تطوير قدراته الإدراكية والمعرفية، أم أنّ التدرّس سيُشتمل كذلك غير الناطقين بها؟

بالنظر إلى السؤال الأول، يبدو أنّ اللغة الأمازيغية، بوضعها الحالي، لا تزال في حاجة إلى دراسات تركيبية ودلالية ومعجمية دقيقة. وبالتالي، فإنّ وضع برنامج لتعليمها في المدارس الوطنية يقتضي بدءاً بتعريبها حتى تصبح موحدة - وهذه العملية لا يمكن أن تتمّ بين عشية وضحاها.

أما إذا اعتُمد تدريسها انطلاقاً من لهجاتها الموزعة عبر المغرب، فإنّ المتعلّم المنتمي إلى الشمال سيتلقّى تعليمه الأولي بالريفية، والمنتمي إلى منطقة الجنوب سيتلقّى تعليمه باللغة الأمازيغية أو تشلحيت - وهو أمر يُصعّب معه إنجاز عملية التواصل بين سكان المنطقة الشمالية وسكان المنطقة الوسطى أو الجنوبية؛ الأمر الذي يحتمّ توحيد اللغة تركيبيّاً ودلاليّاً ومعجميّاً، والتقييد لها، وتحديد خصائصها الداخلية لتتمكّن من إدخال مفاهيم حديثة.

فالحق أنّ الأمازيغية تعاني، كذلك، ضعفاً معجميّاً يلاحظ خصوصاً في الحديث اليومي عن موضوعات معرفية معينة. ففي مثل هذه الحالات لا يُمكن المتحدث الأمازيغي أن يسترسل في حديثه دون اللجوء إلى العربية أو الفرنسية لافتراض مصطلح ما أو لتفسير ظاهرة علمية معينة. وهذا النقص لا يُمكن تداركه إلا بتحديد قيود تكوين الكلمات في الأمازيغية.

يلعب التعليم دوراً مهماً في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للأمم، إذ تُعتبر نسبة التمرّس ونسبة الأمية من المؤشّرات الأساسية للنمو الاقتصادي للبلد: فكلما انخفض معدّل الأمية وارتفع عدد التمرّسين، ارتفعت وتيرة النمو. لذا، فإنّ كل سياسة تعليمية لا بدّ وأن تأخذ في الاعتبار، أولاً، الإمكانيات والوسائل الهيدراغوجية والثقافية لتطبيق أيّ برنامج تعليمي، وثانياً انعكاس ذلك على المتعلّم وعلى الاقتصاد الوطني.

سنحاول، في هذه المقالة، تبيان بعض الإشكالات التي تُطرحها عملية تدريس اللغة الأمازيغية بشكلها الحالي، ومدى انعكاسها على النمو الاقتصادي الوطني.

مرت السياسة التعليمية في المغرب بعدة مراحل منذ الاستقلال إلى اليوم. ومع نهاية التسعينيات من القرن الماضي كان لا بدّ من إعادة النظر في النظام التربوي المغربي الذي أفرزته اللجنة الملكية المكلفة بالتربية والتعليم. وكان ممّا أقرّ ضرورة إدماج الثقافة واللغة الأمازيغيتين في المنظومة التعليمية المغربية، لتمكينهما من لعب دورهما كاملاً في التنمية المحلية والوطنية. وجعل المتعلّمين يخرطون بفعالية أكبر في مختلف مجالات الحياة، والإلام بالبعد الأمازيغي للثقافة والحضارة.

ومنذ بداية السنة الدراسية ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤، بدأ تدريس اللغة الأمازيغية في ما يقارب ٣٠٠ مدرسة، ويتأطّر ١١٠٠ مدرّس. إلّا أنّ هذه العملية ما زالت تُشهد عدة مشاكل بيداغوجية وعملية، أثّرت حولها نقاشات تداخلت فيها الشقائيّ السياسي ويدايدولوجي، في معزل عما هو اقتصادي تنموي.

أولى هذه المشاكل تتمثل في مدة تدريب المدرّسين، إذ تمّ ذلك في وفترت زمني قصيرة بالنظر إلى المهام المطلوبة منهم. كما أنّ عدد المدرّسين، الذي بلغ ١١٠٠، لا يَكدّ يغطي كافة التمرّسين على الصعيد الوطني، وهو ما قد ينعكس سلباً على نتائج التدريس.

تتضاف إلى ذلك مشاكل أخرى تتعلّق باللغة نفسها، من جهة، وبمتعلّميها من جهة ثانية. فبخصوص اللغة، نجد نوعاً من

يبدو أن إدراج تدريس الأمازيغية ابتداءً من سنة ٢٠٠٣ كان اختياراً ارتجالياً تنقصه الأرضية الپیداغوجية والرؤية الواضحة

#### العربي بيلوش

باحث في اللسانيات، الرباط

يضاف إلى هذه المشاكل الداخلية للغة مشاكل أخرى تتعلق بتعلم اللغة الأمازيغية في علاقته بوسائل تدريسها، التي يمكن أن تعمل عملية التدريس. ونعني بالوسائل، أساساً، الخط المعتمد في ذلك. فبعد أن اعتمد «المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية» حرف تيفناغ لكتابة اللغة الأمازيغية، فإن المتعلم - سواء الناطق بالأمازيغية أو غير الناطق بها - سيكون مجبراً على تعلم وتشفير ثلاثة أنظمة للكتابة: خط تيفناغ، والحرف العربي، والخط اللاتيني، على اعتبار أن تدريس الأمازيغية في المراحل الأولى سيكون للاستئناس وأخذ المعارف الأولى بلغة الوسط أو اللغة القريبة منه. وإلى جانب الأمازيغية سيتبرز في مرحلة موازية أو تالية اللغة العربية باعتبارها اللغة الرسمية للبلاد، إضافة إلى لغة أجنبية هي اللغة الفرنسية، لتتوهم الإنجليزية أو الإسبانية. عندها سيكون المتعلم ملزماً بتشفير أنظمة الكتابة الثلاثة، بقواعدها وطرق رسمها. الأمر الذي قد يحدث له تشويشاً على قدراته الاستيعابية، ويؤكس سلباً على مسيرته الدراسية.

أما إذا كان المقصود بالإلماج هو التدريس بها، فإن الأمر يحتاج إلى كثير من الجهد والوقت: لتعريب اللغة أولاً، بما في ذلك تحديد خصائص مفرداتها، وقبول تكوين الكلمات، من أجل إدخال مفاهيم وتصورات جديدة تُضاف إلى معجمها، أيتها، ثانياً، نقل المعارف والعلوم إليها. وهذه العملية لا يمكن أن تتم في ظرف سنة أو أقل، وحتى لو توفرت بعض الدراسات والبحوث الجامعية، لأن أغلب هذه الدراسات كانت مركزة على لهجة منطقة معينة من المناطق المغربية.

لذا، يبدو أن إدراج تدريس الأمازيغية أو التعلم بها في المنظومة التعليمية المغربية ابتداءً من السنة الدراسية ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ كان اختياراً ارتجالياً، تنقصه الأرضية الپیداغوجية والرؤية الواضحة. وهذا ما قد ينكس سلباً على اقتصاد البلاد، الذي يخص نسبة مهمة من الميزانية العامة للتعليم، دون الوصول إلى النتائج المرجوة لتحقيق الإقلاع الاقتصادي والتنموي المنشود.

## انساق الهوية المغربية: البنيات والوظائف

جمال بندحمان □

### مقدمة

تتميز المجتمعات النشيطة بتشعب مكوناتها الثقافية ذلك لأنها تعيد تشكيل ذاتها باستمرار، وفق ما تمليه الحاجات الحضارية والتحوّلات الفكرية والاقتضات الجماعية، اعتماداً على الياث تعاقدية تضمّن التفاعل وتُبعد القطيعة. ومن ثم، فإنها نسق دينامي يفتني بتساقفه الفرعية التي يُخضعها للمراقبة الذاتية (المناعة للفوضى والعماء).

ينطبق ما سبق على المجتمع المغربي الذي عرّف تفاعل ثقافات متعددة (عربية وأمازيغية وأندلسية وزنجية ويهودية ورومانية وغيثية...) لكن هذا التعدد لم يخلّ دون ضبط النسق لثوابته البنيوية التي تُسّمع له بالاستمرار والانتظام، إذ نواته الصلبة هي الإسلام والعربية مادام التعاقد حولهما ظلّ يتجدد عبر الأجيال والمصور. وعندما كانت الأمور تُزيج ببعض الفروع، كانت قوة النسق وفتائله تعيدانه إلى رشده، وعليه، فإنّ النسق المغربي لم يكن مغلفاً، وهذا ما سمح له بتقدّض عميقة كانت تمكّنه من تجديد نشاطه: غير أنّه لم يكن نسقاً متسبباً، لأنّ ذلك كان سيفرضه للتلاشي والعماء<sup>(١)</sup>. وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ دراسة مسار هذه الثقافة، والتحقّق لها، يتكلّبان استحضار المكونات جميعها، وتتبع حدود علاقتها بالنسق الشامل<sup>(٢)</sup> لكننا سنقتصر هنا على الأمازيغية ومطالبتها، وحدود تفاعلها مع أسس النسق، فما طبيعة هذه المطالب وما خلفياتها؟ وما مستنداتها النظرية؟ وما موقعها من باقي مكونات الهوية

المغربية؟ هل تُعتبر نفسها نسقاً شاملاً أم فرعياً؟ وهل ترتبط بمشروع مجتمعي، أم تُترك للتطورات والصف الفياث بذلك؟ وما الآفاق التي تُرسمها لنفسها؟ وما حدود دورها في ترسيخ أسسٍ بيداغوجية بيموقراطية تُقبل بيمدّ التعاقد الرافض للإكراه؟ يمدّنا الخطاب الأمازيغي بنصوص تُسّمع بالإجابة عن هذه الأسئلة ومحاورتها. فلقد مرّ بمرّاحل متعددة، انتهت به إلى الخوض في قضايا محددة، مثل اللغة وتعبيرها وأبجديّاتها وديسترتها وتعليمها. وهي قضايا تقنيّة في مظهرها، حضارية في مظهرها، لكنّها شتتلت بالفرع الوارفة للخطاب السياسي المطاطي والمكتسب والقابل للأخذ بالتقيض، في إطار برغماتية غير مبدئية مستعملة لتغيير الافتقاعات العلية من أجل ريج ظرفي يُرضي أطرافاً ولا يُخضع أخرى لذلك سنشمل على دراسة مسار هذه المطالب وتناجها، بهدف تأكيد اقتنارها بالمجالات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والنفسية والدينية، واقتنارها إلى تصور شامل يزيّلها بمشروع مجتمعي متكامل يحقّق شعارها: «الوحدة في التنوع»<sup>(٣)</sup>.

### تاريخ اللغة أو تمثّلات الماضي

يدعو الخطاب الأمازيغي إلى إعادة كتابة التاريخ العلي، وتاريخ اللغة أيضاً، باعتباره تاريخاً مخفياً عن قصور وسبق إصرار. غير أنّ ذلك يُؤنّ بشملاّخر لا تُسّمعها الوقائع والمعطيات. ولعلّ ما يزيّد ذلك هو السعي إلى كتابة تاريخ جدير بالاعتماد على

١ - أسس هذا التحليل مستندة من نظرية الانساق الدينامية التي نمّل لها بيمض المرجع مثل.

Bernard Walliser, *Systèmes et modèles, introduction critique à l'analyse du système*, Seuil, 1997.

- Gregory Bateson, *La nature et la pensée*, Seuil, 1984.

- Gerard Tonnadre, *Le principe d'homogénéité*, Presse de l'Université de Paris-Sorbonne, 1988.

٢ - انظر الدراسات الطبية التي انجزها محمد مفتاح والاقتراح الذي قّمه لتجيب التاريخ المغربي في: التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية (المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦)، وفي: التحققيق الطبيعة، السيرةورة (مشتورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٧، ص ٩٤).

٣ - لمرة إجراءات هذا الشعار يُراجع ميثاق تكدير ٥ غشت ١٩٩١، ورسالة الجمعيات الثقافية الأمازيغية إلى الديوان الملكي بتاريخ ٢٢ يونيو ١٩٩٦ المنشور في المزمري (٣ غشت ١٩٩٦).

الخطاب الأمازيغي يقدم التاريخ باعتباره تهميشاً مقصوداً للأمازيغيين، وهذا حكم لا يؤيده المعطيات والوقائع

إيديولوجيا يكتنفها اللبس. غير أن هذا التحقيب لا يخضع لأساس منهجي مضبوط، إذ هو يجمع عصوراً وزمناً في حقبة واحدة. لذلك نجده مرفوقاً بصيغ اضمالية (مثل «ربما»)، أو استدلالية (مثل «فيما أن التمن كان بطياً...»). وقد انتقد عبد الله العربي<sup>(١)</sup> منذ زمن، هذه المنهجية التي تبناها مؤرخون استعماريون، فقصوا ما اعتقدوه حقائق لم يعملوا على تنسيبها أو تكييفها بالحجة والوثيقة

ولإذا تجاوزنا الأسس المنهجية، وبحثنا في مضمون الخطاب، وجدنا أحكاماً تحمل عدة دلالات. فالمرحلة الثانية من «استعرا ب المغرب» تقسم هكذا: «تشن هذه المرحلة، عن غير قصد، عهداً للمومن الموحد باستقدامه إلى المغرب [الانصاف] القبائل العربية التي كان الفاطميون، من قبل، قد أباحوا لها غزو إفريقيا انطلاقاً من الصعيد المصري»<sup>(٢)</sup> وتوصف المرحلة الرابعة بكونها كانت تهدف إلى طمس العالم الأمازيغي في التنسيق الحضاري للمغرب<sup>(٣)</sup>. وهكذا «أصبح الأمازيغيون، لأول مرة في تاريخهم الإسلامي، يشعرون بأن هناك إرادة غير إرادتهم الذاتية تدعهم إلى الاستعرا ب بالحجة العرقية الملوقة في لافانف الحجة الدينية»<sup>(٤)</sup> ولقد كان لهذه التصورات أشباه ونظائر، بل كان بعضها أكثر غلوً في تأويلاته. ولما أن تحكم على أقوال مثل هذه: «وقد برهنت العقود الأربعة النضرة على أن التعريب لا يري إلى مواجهة اللغة الفرنسية ذات الهيمنة في الإدارة ومجالات الاقتصاد والتعليم التقني، ذلك لأن تعريب أسماء الأماكن والساحات العمومية التي تحمل في الأصل أسماء أمازيغية، ومنع أسماء المواليد الأمازيغية في مكاتب الحالة المدنية، ورفض شهادة المواطنين بالأمازيغية... كل هذا لا

مصادر اعتمدت بدورها تأويلات تفكيكية، وغرقت نتائجها إلى حقائق مؤكدة. ومن يقرأ كتاب د. محمد شفيق لمح من ٣٣ قرناً من تاريخ الأمازيغيين<sup>(٥)</sup> يجد هذه المراجع بارزة دون الشك في ما تقدمه، أو دون اعتبارها مجرد اجتهادات محكمة بمقاصد أخرى. هكذا يصبح شارل دوفوكو ومارسي وباسي وغيرهم حجة لا مجرد قراء ارتبطوا بمشروع استعماري ذي أهداف معلومة. ولما أن نقدر ما الذي سيحدث مستقبلاً حيث ستحول هذه الكتابات إلى نماذج «مطلعة» على حقيقة الأمازيغ ولحقتهم، إذ التاريخ «عالم ممكن» من بين عوالم أخرى، فما أنجزه الإغريق في مستعمراتهم بليليا (من القرن التاسع إلى القرن السابع ق. م)، والفينيقيون بقرطاج وسواحل إفريقيا الشمالية، ومخلقات الرومان، كل ذلك يصبح إنجازاً أمازيغياً. والهند: التأسيس لتاريخ مجيد سابق على الإسلام بهدف تأكيد مبدأ «الهيمنة» القبلية والحج للصعود».

وفق هذا المنظور، يصبح تعريب المغرب «استعرا ب» ويصبح ما قام به المرابطين والموحدين والمرينيين انعكاساً للعبقرية الأمازيغية ويؤيد دورهم في تعريب المغرب أو يؤيد تأويلاً مغرضاً وضبابياً. فليد قسم د شفيق مراحل «الاستعرا ب» إلى أربع<sup>(٦)</sup> هي: المرحلة الأولى التي استغرقت عهد الأدارسة والمرابطين والعقود الأولى من عهد الموحدين؛ والمرحلة الثانية التي تبشئ بمعهد عبد المومن الموحدي وتنتهي بطلع القرن العشرين؛ والمرحلة الثالثة التي تبشئ مع مطلع القرن العشرين، حيث أخذ الاستعرا ب وسيلة ثقافية لمقاومة الاستعمار؛ والمرحلة الرابعة، وهي مرحلة الاستقلال، حيث تسارع الاستعرا ب وأصبح التعريب مقصوداً في نطاق

١ - محمد شفيق، لمح من ثلاثة وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغيين (منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي، ٢٠٠٠).

٢ - المرجع نفسه، ص ٨٨ - ٩٧.

٣ - عبد الله العربي، مجمل تاريخ المغرب (المركز الثقافي العربي).

٤ - محمد شفيق، مصدر مذكور، ص ٩٠، ٩٤.

٥ - المرجع نفسه، قارئ هذا الحكم بالبحث عن عبد المومن الذي غرّب عن غير قصد، كي تلاحظ وجهة التناقض.

يُمكن أن يُنسب في شيء لغة فولتير وينال من حظوتها لدى اللغارية، بمن فيهم دعاة التعريب الأكثر تطرفاً. (١٤)

وقد يبدو هذا التخلُّط والعلب لآله يتم وقائع يومية ويستند إلى ثقافة «حقوق الإنسان» ومشتقاتها؛ لكنه عندما يُربط بالحكم على الأمازيغيين يصبح غير ذلك. بل إننا نجد معجماً وتركيباً مثيرين يمتدحان عن «قومية أمازيغية» و«أمة أمازيغية» وتقرير المسير، (١٥) ضمن كتابات أخرى تُعتمد - أحياناً - على استعارات تُضمر أكثر مما تُكَلِّم، مثل «صرب الصرّاء» أو «معارك فكرية».

يقدم التاريخ، إذن، باعتباره تهميشاً مقصوداً للأمازيغيين؛ وهذا حكم لا يؤيده المصطلحات والوقائع؛ فالدول التي حكمت المغرب كانت أمازيغية بالأصل أو بالتمسك، واختياراتها الفكرية والقومية لم تكن موجّهة من أحد، بل كانت اختيارات استراتيجيّة محكومة بما يُخدم الهوية الدينية ويقوّيها - وبالأحرار أن الصرب لم تُشهر على أيّ لغة من لغات هؤلاء الأمالي. كما أنه لم يتم التمييز على استعمالها، ولم تُكلّ دون التفرُّق أو الفواصل بالنسبة للمغرب الداخلين أو المستوطنين على الإطلاق. (١٦) وهذا يعني أن الاستنتاجات التي تقدّم حول علاقة العربية بالأمازيغية تحتاج إلى ما يؤكدها، لأنّ العكس يجعلنا نتساءل عن مسؤوليات الانتفاذ الذي تتعرض له لغة الأمازيغية وفق سجلّال لم يشهد تاريخ العرب الإسلامي مثيلاً له. إذ لم يُشرك الأمازيغ العربية لأنّها لغة عرقيّ، بل ارتباطها - في تمثّلهم الذميمة - بالقرآن الكريم؛ وهو شيء يُمكن أن نُظهِم في ضوء مقارنتنا له بما حدث لدى شعوب أخرى أصرّت على الارتباط بالحرف العربي، والاحتفاظ ببنيات لغاتها الصوتية والمعجمية والتركييبية والدلالية دون أن تُرى في الأمر ارتباطاً وضموراً لهيمنة المجال العربي. وهو ما يُمكن أن يُلمّح أكثر باستحضار

الدور الذي قامت به الدول التي حكمت المغرب، أو ما قام به علماء متفوّون مثل المختار الموسوي، أو عبد الصمد بن باديس والبشير الإبراهيمي والعربي تيمسي بالجزائر. فالعربية لم تحارب اللغات الأخرى، بل نافستها في سوق رمزية تُضمر البقاء للفصاليّة المتقرّنة بحاجات الناس التواصلية والروحية. وبالأحرار فكيف نفسّر استمرار الفارسية والتركية والأرمنية والأمازيغيات أيضاً؟ ومن يستطيع تأكيد ما يروج عن «المكر» الذي يستبطن الناطق بالعربية بل يصبح الموحّدون والمرابطون جزءاً من ذلك، وإن تُشفع لهم أمازيغيّتهم، لأنّ الكلّ - بحسب هذا التصور - ساهم في «التأمر» على الأمازيغية. ولكن كيف يتمّ الجسد على أعضائه؟ وكيف يعلّق القول بأنّ حركة التعريب كانت مشروع حركة وظيفية وأنّ وجهها صوب الشرق - وكأنّها حركة تفسيرية مشكّلة من أعراق وطوائف، تُخدم مصالح أجنبيّ وافد محمّل بالضيق وجشع الهيمنة وثقافة المحو، لا حركة مجتمعية نابعة من عمق التاريخ المغربي ذي الهوية المركّبة، التي تفاعلت عبر العصور وامتزجت فيها الأصول؟

#### ملاحظة

إذا كان ما حدّدناه في الفقرات السابقة يحتاج إلى استدلال من قبيل من أضعاف وجنى منه نتائج مرحلية، فإننا سنسلّك مسلكاً آخر يبيّن أن الحديث عن اللغة وحرف الكتابة ليس سوى الدخول الأسفل لحالباً أخرى، بل إنّه دعوة إلى إعادة تفسير تاريخ آخر يرد الاعتبار إلى من أدرجوا خارج «أمة التقوى». وبكي يكون كلاً من مطلقاً لقرآن ما كتبه عبد الله بن يونس بعنوان «عقدة اللغة» حيث تحدّث عن تجريبتين معارضتين للفتوحات الإسلامية، يقدمهما الاتجاه التبشيري من خلال نموذج كابوس (تونس)، ونموذج للدولة البورغوازية بالمغرب: «هكذا استطاعت دولة

١ - أحمد عصيد، الأمازيغية في خطاب الإسلام المعاصر (مشتورات الجمعية المغربية للبحث والتأليف الثقافي)، ص ١٠٥.

٢ - انظر على سبيل المثال العالم الأمازيغي (١٨ أكتوبر ٢٠٠١)، و (٢٠ نونبر ٢٠٠٢)، و (سبتمبر ٢٠٠٢)، و (٢٠ أكتوبر ٢٠٠٢).

٣ - زقناني، محمّد جعفر الرضخ الثوري الحالي بالمغرب، مجلة الغنفل، ج ٦٢ - ٦٣، ٢٠٠١، ص ٨٦.



العربية لم تحارب اللغات الأخرى، بل نافستها في سوق رمزية تضمن البقاء للضغالية المقترنة بحاجات الناس التواصلية والروحية

لحقائق التاريخ. فمن يُقرِف اللغة التي كُتِبَ بها البرغواطيون؟ ولماذا يَقرَنُ كتابُهم (بفتحهم) بكتاب المسلمين (القرآن الكريم)؟ ولماذا الحديثُ عن فعل التنزيل (وتركل على مصالح، بالطبع، قرآن...؟) إنها التساؤلات التي سَتُجِيبُن أجوبتها. ولذلك نؤكد أن اللغة ليست إلا أداة لصياغة العقليات، وأن الخلفيات غير المباشرة قد تساهم في خلق وتوجيه تصورات تخالف ما استقر عليه رأي الأمة.

وإذا انتبهنا إلى جذور هذا النقاش احتطنا من كل النتائج المحتملة: فالمسألة لا تتجاوز حدود الفترة الاستعمارية التي خلّفت شرعاً لغوياً جَهِشَتْ له المنطَيرين، وغَلَقَتْه بغلاب المعرفة الطمعية. ألم يقل لويجي: «إن اللغة العربية تعمل في أعين هؤلاء البربر ما حاربوا ضده منذ ثلاثة عشر قرناً، أي الاندماج العربي»<sup>(١)</sup>؟ أَوَلَمْ يُرَبِّط بين العربية والإسلام بقوله: «ليس علينا أن نطمع بالعربية لجموعات من الناس استغفروا عنها دائماً. إن العربية عنصرٌ إسلامي، لكنها عُقْن في القرآن...»<sup>(٢)</sup> بل إن إحدى دورياته الموجهة إلى رؤساء الجهات تؤكد ضرورة «متجعين الأهالي، والمحافظة بكيفية غير مثيرة للانشباه - مع مراعاة الصرامة اللازمة - على الفروق اللغوية والدينية والاجتماعية القائمة بين بلاد المُحَرَّن المسلم والمُعَرَّب، والجبل البربري للتخمين بكيفية وثنية والجامع باللغة العربية»<sup>(٣)</sup>.

إن الخاتمة من سرد هذه النصوص هي التذكير بأسس مشروع استعماري ينفي الأ تَسَنُّيَات رَهائات اليوم بطبيعته وأهدافه. وهي نصوص لم تُشْطَلها الحركة الوطنية، بل ونُفِّها مؤرِّخون غربيين، واستند إليها آخرون ليُخْرِجُوا باستنتاجات مثل: «ومن أجل تثبيت التلاميذ من البربر في قبائلهم وحمائهم لحظة وصولهم

أمازيغية حقيقية أقيمت على أساس كتاب مقدس مكتوب بالامازيغية أن تدوم أربعة قرون في السهول الأطلسية بالمغرب. ويتبين من خلال هاتين التجريبتين أن الهدف كان إنشاء دولة خلافة... مع انهوض باللغة الأصلية التي هي اللغة الأمازيغية كلفة دولة وعبادة»<sup>(٤)</sup>. تُقَرَّن اللغة، إذن، بمشروع دولة تُخْصَر في الدولة البرغواطية بخلفياتها التي تناولتها كتب التاريخ، حيث تتحول إلى نموذج إيجابي يُخْصَر مقومات هوية مفترضة. هذا الموقف نجده بوضوح أكثر في نص يقول:

«وقد تركل على مصالح، بالطبع، قرآن باللسان البربري، يشمل ثمانين سورة مقابل أربعة عشرة ومائة بالنسبة للخالص ونموذجه العربي، ومثلما لاحظنا سابقاً، فإن القرآن المنسوب إلى صالح يُقدَّر كلياً إلى الأصل إذا حوِّكَ بعنوانين بعض السور (الزيب، يونس، قمرسون، ياجوج وماجوج، العجل، الحنف... الخ) والمقتضيات التي احتفظ لنا بها البربري، وتلق أهميته في مكان آخر: ذلك أن صاحبه كان مضطراً بلغات البربر التي يُقرِف منها أكثر من لسان. ومن ثم، كان نصه ينافس القرآن، ليس بضمونه فحسب، وإنما بإتقانه أسلوبه كذلك. ولم يكن بإمكانه ألا يضع في اعتباره خصوصيات مختلف السنة الناس الذين كان موجهاً إليهم، بل اقتضى أن يُصاغ ضمن لهجة مشتركة بهذا القدر أو ذاك بين مختلف القبائل المجمعة في مملكة تاسنا، والتي لم تكن من نفس الأرومة الإثنية. وعليه، لو أن التجربة نجحت كلياً، لتوفر البربري، دون شك، على لغة وطنية موحدة»<sup>(٥)</sup>.

لا نحتاج إلى توجيه القارئ إلى المعبارات الدالة التي تُقرأ بمضمراتها، إذ تُحْمَل لغة التحني والاتبها مضموناً مخالفاً

١ - عبد الله بونفوس، مجلة الهوى، ج. ١٠، ١٩٩٧، ص ١٥.

٢ - محمد الطائي، البرغواطيون في المغرب (الدار البيضاء، تانسيف)، ط ١.

٣ - انظر ذلك في محمد الأوراني، التقدم اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي (الرباط - منشورات كلية الآداب)، ص ١٠٨ - ١٠٩.

٤ - محمد كتيبي، يهود المغرب ١٩١٢ - ١٩٤٨، ترجمة إدريس بنسعيد (الرباط - منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٨)، ص ٤٨. ينقل النص عن شارل أنتري جويان.

سنُ الرشد الثقافي من كلِّ تشبُّع باللغة العربية. ومن كلِّ تأثير إسلامي، بل وحمائهم حتى من نتائج الاتصال مع أوروبيين غير مرغوب فيهم، نصَّ برنامجُ العمل الذي وُضِع لهذا الغرض سنة ١٩١٤. وتَمَّت مرلجته سنة ١٩٢٢ بمساعدة لوي مَسِينِيُون على حذف دراسة اللغة العربية والقرآن في هذا الصنف من المدارس [١] (٢). وإذا كان الأمر كذلك، يصبح عداءُ العربية مرادفًا لعداء الإسلام. فمَنظُور الفترة الاستعمارية كانوا يَعرِفون جنوة الترابط بين اللغة والعقيدة، لذلك نَعُوا إلى فَكِّ الارتباط بينهما. هكذا نقرأ: «إذا كان أهمُّ ما ساهم به العربُ في الحضارة الإسلامية التي ورثت الحضارات السابقة هو اللغة والدين، فإنَّ الدين الإسلامي بقي عربيًّا، ولا يُمْكِن أن يستغني عن لغة العرب، لأنَّ القرآن - وهو كتاب عربي مَبِينٌ - لا يُمْكِن نقلُه إلى لغة أخرى دون المساس به». ذُ «العربية جزءٌ من ماهيته» كما يقول علماء الأصول. (٣)

بهذا تكون العربية نتاجًا تاريخيًّا وحضاريًّا، يَحمِلُ تصوُّرات وأراءً ومعتقداتٍ، ويشكِّلُ منظومةً مرجعيةً للموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي والنفسي والنظرة إلى العالم، وأبست مجرد لغة فقط. وهو ما يعني أنَّ القُطْعَ معها هو قُطْعٌ مع كلِّ ذلك. لذلك نَظَّههم جيِّدًا هذا الإصرارُ على الاستنجاذ بتاريخ البورغواطين: فهذا الاستنجاذ يَنصَحُنَّ القولُ بوجود اجتهادات رائدة للانفصال عن العربية وتَمِيزُ الإسلام، واعتبار ذلك إيداعًا بظهور نماذج أخرى كالرابطين والموحَّدين. غير أنَّ هذا الربط لا يستقيم: فنُكْبِ التاريخ تتحدث عن مشروع تقضيهِ حاليه الأدارسة والفاطميون والزيديون والمرابطين والموحَّدين. فهذه الدولة، التي استمرت أربعة قرون، اختلف اللزُومُون في نسبة جنيتها إلى مرجعية يونانية (كالْمُؤَرَّع ذي سالان)، أو رومانية مسيحية (كدوزي ومارسي)، أو يهودية (كتناحوم سلوش

وبفردان). (٤) وإنَّ مَن قام بهذا الربط ليس ابن عداري أو ابن حوقل أو البكري، ممن يَظْهَمُون بالتحامل والمبالغة في وصف تشويه البورغواطين للإسلام والاعتراف عنه. وإذا طُعن في موضوعية مَن سَبَقَ، بَرَزَ اسمُ المدافع عن الفزعة الوطنية لدى البورغواطين، إذ يتحدث الطالبي عن أصول بطل قضية البورغواطين طريف، فيقول: «إنَّ إمام البورغواطين، أبا صالح زمر، هو الذي يسجل أنَّ طرف مَن ولد شمعون، سلف إحدى القبائل الاثنتي عشرة المنحدرة من يقوب بن إسحاق». (٥) وهذا الأصل المفترض قد لا يكون استدلالًا كافِيًّا للتأكيد على ابتعاد المرجعية البورغواطينية عن أن تكون «شاهدًا أمثل» لإسلام أمازيغي. ويتأكد ذلك من خلال استقراء مشروعاتها الذي ابتداء مع «طريف»، ويُعَلِّق اكتماله مع يونس بن إلياس: «كان من اللازم انتظارُ حكم حفيد صالح، يونس بن إلياس (٢٢٧ - ٢٧١)، (٨٨١ - ٨٤٢)، الذي كَفَّ عن الصمت بشجاعة، وراح بالسرِّ الذي ظَلَّ... مكتومًا بصرامة وإحكام طيلة قرن، وأُغْنِ جَهَارًا أنَّ جنَّة كان النبيِّ المذكور في قرآن محمد، لَيُثَمِّعُ البريز دِينًا خاصًا بهم». (٦) ولا شكَّ في أنَّ مثل هذا الاستنتاج، الذي انتهى إليه مؤرِّع معاصر دعا إلى إعادة تحيين تاريخ البورغواطين، يَحمِلُ رِيطَهُم بالإسلام مستعصيًا، إنَّ لم يُقْتَمَد تأويلًا تفكيكيًّا.

إنَّنا لا نصادر التاريخ، ولا نَجْصُ الناسَ حَقَّهُم في الانتقاع بما يرتضونه لأنفسهم. لكنَّ توضيح المرجعيات ضروري: إذ لا يُستَسَاع منهُ المشروعية للبورغواطين عبر بوابة الموحَّدين، وجعلها مشروعًا واحدًا يَعرُف عن هوية أمازيغية، لأنَّ مَن مارس السلطة من داخل الدائرة الإسلامية لا يَقرُّن مَن كان مَن خارجها. وعليه، فإنَّ مرجعية البورغواطين أو كسيلة أوكالانة ممكنة من خارج المجال الإسلامي، لا من داخله.

١ - المرجع نفسه، ص ٤٨.

٢ - محمد الجابري، تكوين الحقل العربي (للرب وإبان: المركز الثقافي العربي، ط ٨)، ص ٧١.

٣ - ٤ - ٥ - انظر محمد الطالبي، مصدر مذكور، ص ٥٢ - ٥٤، ١٠، ١٥.

إن الذين اختاروا الحرف العربي قد وجدوا أمامهم  
ما يوض الفقر الإشاري الذي كانت تلعبه  
تيفناغ.

### من اللغة إلى الحرف

وظفت الأمازيغية المدونة بحروف عربية. إن التاريخ يُخبرنا بعدم  
وجود حرب لغوية شُنت الأمازيغيين من تطوير اللغة الشفوية أو  
تدوينها أو البحث في أبجديتها. وستكتفي بثلاثة نماذج مختلفة  
الأهداف، نُقر جميعها بأن كتابة الأمازيغية كانت تعتمد الحروف  
العربية أساساً لها، ولكن الأسباب العميقة وراء ذلك ترجع إلى  
الاختيار لا إلى التوجيه أو الإكراه، وبأن العرب لم يجدوا أمامهم  
محركاً أمازيغياً، ليعاريوهم بعد أن قام الرومان بذلك قبل قدم  
العرب والإسلام

فلقد أكد غوتيه عدم وجود كتاب واحد بالبربرية، بل لا توجد  
لغة بربرية منظمة<sup>(١)</sup> ويقول محمد شفيق: «الواقع أن  
للأمازيغيين ثقافة خاصة بهم، توارثوها عبر العصور منذ آلاف  
السنين، يُعصب على الباحث أن يتتبع مراحل تطورها في ما  
يخص الجوانب المعتمدة للكتابة، [وإن] اللغة الأمازيغية تخلت  
عن أبجديتها منذ دخول البربر الإسلام، حسب ما نقل عليه  
القارئ ولم يُخفها بها إلا قبائل التوارك. غير أن حروفاً منها  
لا تزال تُدرج في زخارف الزربية المغربية<sup>(٢)</sup> وهذا يعني أن  
الذين اختاروا الحرف العربي قد وجدوا أمامهم ما يعرض  
الفقر الإشاري الذي كانت تلعبه تيفناغ. بل إن الحسن الوزان  
يقدم دليلاً يراه كافياً: «ذلك أن بلاد البربر كلها... لا تحتوي أية  
كتابة في الأضرحة أو في جدران أي بناء إلا وهي بالحروف  
اللاتينية دون استثناء. ولا أظن أن الأمازيغ استعملوا هذه  
الحروف واتخذوها لكتابة لغتهم الخاصة. إذ لا شك أن  
الرومان، لما انتزعوا هذه الأماكن من أيدي أعدائهم، سحوا -  
حسب عادة المنتصرين - جميع النقوش الصالحة لآثار الملوكين  
بخطهم قصد إذلالهم<sup>(٣)</sup>»

تقع اللغة في عمق القضايا السابقة. فقد عُدَّت خطابات  
أمازيغية التعريب أمراً مبيحاً في القديم والحديث، وأنها  
استهفمت الأمازيغية من أجل التمكين للغة «الوافدة» - وهو ما  
يطلب، في رأي تلك الخطابات، تصحيحاً، واعتراضاً بحق وجود  
الأمازيغية، وممارسته قانونياً وتربوياً عن طريق مؤسسات  
وتشريعات واجتهادات معرفية ولغوية. وإذا كانت المطالب حفاً  
من حقوق الكائن، فإن مقدماتها تحتاج إلى مناقشة وتوضيح  
إننا لا نجادل في عمقنا الأمازيغي، ولا نُرفض غني هويتنا  
وتعدد مشاربها العربية والأندلسية والصحراوية والأمازيغية.  
لكننا نرفض «مخصصة» القضايا التي تهّم الأمة، والتي تبقى  
قابلة للاجتهاد والإنفاذ. ذلك أن اختيار حروف لكتابة اللغة  
الأمازيغية ليس نهاية، بل هو بداية لقضايا أخرى أكثر تجذراً  
في تربة المجتمع وتحكماً في مستقبله، مثل وضعها في  
المنظومتين التعليمية والاقتصادية، ووضعها المستوي  
والإداري، وغيرها من القضايا التي تمثل أفقاً للتأمل والتوافق  
من أجل ضمان «سليم لغوي» والحفاظ على «إسمنت اللغة»<sup>(٤)</sup>

إن سياق هذا الكلام يقتصر بالوضع التاريخي للأمازيغية  
بالمغرب، إذ لم تحارب بنصوص مدونة، ولم تشكل العربية  
بالنسبة إلى أهلها معوقاً للارتقاء الاجتماعي أو الإداري، وإنما  
جاء اختيار الحرف العربي لكتابتها من طرف نخبة الأمة العالة  
بمصلحتها. ويكفي نكز ابن تومرت وكثير التوحيد والفرشبة  
والعقيدة لتأكيد ذلك. بل إن الأمر لم يقف عند حدود النخبة  
فقد أورد الزجالي الأمازيغي «أمثال العوام في الأندلس» التي

١ - يؤكّد إدوارد بيرهر أن المجتمع في حاجة دائمة إلى إسمنت اللغة من أجل ضمان وحدته، ويحذر من فرضي الشخصية المتعددة انظر.

Edward Berthir, Une Amérique qui fait peur (Paris, 1995).

٢ - E. F. Gautier, "Considération sur l'histoire du Maghreb," Revue Africaine, vol 68, 1927.

٣ - محمد شفيق، مصدر مذكور، ص ٥٩ - ٦١.

٤ - الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه محمد حجي ومحمد الأخضر (دار الغرب الإسلامي، ج. ١، ٢، ٣، ١٩٨٢)، ص ٦٩ - ٧٠.

يشتع من الاستشهاد بكلام صاحب للشان الذي يقول: «أما عن الحرف العربي، فبدايتي معه كحرف لكتابة الأمازيغية يعود بالتحديد إلى سنة ١٩٧٣. لما شعرت أن كثيراً من المثقفين الأمازيغيين - خاصة ذوي التكوين العربي - ينساقون بسهولة لبعض الدعايات المغرضة من أن كل من يدعو إلى خدمة الأمازيغية مدفوع من قبل الفرتكنونية والاستعمار، كُثِبَت بالحرف العربي ليمسّن هؤلاء على مكائنتهم في المجتمع. لذلك كان للمعجم العربي رواج كبير بينهم، ومنهم من أدرك حسن نيتنا، وصار اليوم يدعو إلى كتابة الأمازيغية بالحرف الأصلي تيفناغ أو الحرف اللاتيني...»<sup>(١)</sup>

لا شك في أن هذا الاعتراف يُعفي الدارس من الراجم والغيب، ويُنمّنه حصانة الموضوعية التي تجعل الخطاب شاهداً على نفسه باعتباره سلسلة من العمليات الموزعة الأنوار والراحل. ولا يهم إن كانت الطيّة هي العلم، ما دام «المشروع الحضاري» يتطلب ذلك، وما دام النضال سابقاً على المعرفة. فـ «هذه الأمازيغية التي ما انفكت كالتعاقب تُهَضُّ من رمادها أمام مخضطات المو والإباد، إن كانت شراً لا بد منه فينبغي السعي - على الأقل - للإبقاء عليها تحت وصاية العقل العربي الإسلامي... [وإن] تُشَدَّ عربة الأمازيغية بخيول العروبة للتعبة»<sup>(٢)</sup>، إن مثل هذه التصورات تُفسّر الكثير من الاختيارات التي تُخلّف خطاب الأماء على خطاب التنوير، ولا تساعد على تناول القضايا بمنطق الحوار الذي يجعل الوطن أولوية تستحق الاعتدال، كما تُفَعِّم الدارس إلى قراخها بأكية تشارحية تمكّن من تفسير بعضها بعضاً. لذلك يُستحضر التاريخ في الحديث عن اللغة، ويُستحضر الدين في الحديث عن التاريخ، ويُقرأ

إن لهذا النص قوة حجاجية كبرى. فهو يؤكّد أن العداء المفضل اليوم ضد العربية غير معلن، وأن الحرف العربي تفاعل مع الأمازيغية وعبّر عنها خير تعبير، وأن العرب لم يحاربوا حرفاً أمازيغياً ما لأنهم لم يعهّدوا أصلاً، وأن اللاحقين لم يُطرحوا القضية لأنهم لم يمسسوا باغتراب لغوي - وإلا فكيف نفسّر اختيارات المرابطين والموحّدين والمرينيين، وهم أمازيغ أقحاح؟ ومن كان يُشتمهم من إنعاش حرف أصلي والعهد قريب؟

إن بياضات الذاكرة لا يُمكن أن تُسَلِّم بالأتاويات المغرطة، أو بتغيير المواقف تبعاً لتغير الأوضاع أو الطموحات. فالتاريخ لا تُكسبه الأهواء بل الوثائق. ومسوّغ ما سبق نجده في المواقف المتناقضة لعلماء أجلاء بنوا مشاريعهم الفكرية على أطروحات تطوّر عنها تعليقات غير فكرية. فقد أكد د. شفيق أن «الأبجدية العربية صالحة أن تُكتَبَ بها الأمازيغية»<sup>(٣)</sup> بل قدّم قواعد لكتابتها وألّف كتاباً بعنوان أربعة وأربعون درساً في اللغة الأمازيغية: نحو صرف اشتقاق (١٩٩١) وهو كتاب يبتدئ بعنوان دال هو «قواعد لكتابة الأمازيغية» تقيس نفسها على العربية وتُكتب بصرفها. والأمر نفسه نجده في مؤلّفه للغة الأمازيغية، ببنيته اللسانية<sup>(٤)</sup> حيث يتمّ التأكيد على التماثل في الصوامت والصوائت مع تقديم نماذج للكتابة. بل إن المعجم الأمازيغي - العربي في الحاجة الدلالية والاستدلال التام، فما الذي تغيّر كي يتغيّر الاقتناع؟ وما العمل مع مجهود علمي استغرق عقوداً وكيف نفسّر اختبار حرف غير معياري (تيفناغ)، علاقته بمطلّبه غير تاريخي وغير نفسي؟ ولماذا رفض الخط العربي؟ إنها أسئلة توجد أجوبتها في ثنائيات الخطابات الأمازيغية التي ناهزوها للتاريخ. أما الاختيارات فإن ما يُحكم على صوابها هو الممارسة والنتائج ومرتكزات الأمة. لكن ذلك لا

١ - محمد شفيق، المعجم العربي - الأمازيغي (منشورات الملكة المغربية، ج ١، ١٩٨٩)، ص ٢٦.

٢ - صدر عن منشورات الفقيه، عام ٢٠٠٠.

٣ - العالم الأمازيغي، ج ٨، ١٨ أكتوبر ٢٠٠١.

٤ - أحمد عصيد، الأحداث المغربية، ٢٥ يناير ٢٠٠٣.

ما الكلفة المادية لتدريس الأمازيغية بشكل موحد؟ وما عواقبه على تلميذ سيجد نفسه أمام ثلاثة أنظمة إشارية (عربية - تيفناغ - لاتينية)؟

الرومانية التي تُعرّف كيف تُحكم الشعوب لم تُطرح على اللطوية منها سيطرتها السياسية ففسد، بل لغتها أيضاً (١). فهل ينطبق هذا الحكم على علاقة العربية بصحبتها؟ إن نستعني بنصوصنا لادرسين ومؤرخين عرب لأن ذلك سيُربط بالحنين الجارف أو الاندماج، بل سنستشهد بنصوص تتحدث عن يهود المغرب والأندلس المؤرخ مرتقب باعتقاداته لكنه موضوعي في أحكامه.

يقول حاييم الزعفراني، مطالاً انتشار العربية واعتمادها من طرف الأعاجم: «أصبحت العربية تدريجياً لغة تواصل الإمبراطورية الجديدة، كما أصبحت الوسيلة الوحيدة لتبادل الثقافات بين مراكز حضارات الشرق والغرب الإسلاميين. وأبدت النخبة المثقفة للسلمة ورغبتها الجامعة في الحلاخ على الحاراف المسطورة، معارف أهل الكتاب، داعيهم في ذلك الفضول العلمي وهاجس حماية الدين الجديد. وشعر أهل اللغة أنفسهم بالحاجة الملحة تدعوهم إلى ترجمان نصهم الديني المقدس إلى لغتهم الجديدة العربية التي أصبحت عندهم بمثابة اللغة الأم (٢). إن هذا الوضع التاريخي يُركّز دراسات ميدانية تنتهي إلى الاستنتاج التالي: بلده أظهرت إحصائياً الميدانية في أوساط اليهود الناطقين بالأمازيغية في المغرب... إن هذه المجموعات كانت تستعمل في تطعيمها التقليدي اللغة الأمازيغية أداة للتفسير وترجمة النصوص المقدسة. كما كانت المجموعات اليهودية في باقي البلاد تستعمل اللغة العربية، أو لهجتها الإسبانية لنفس الأغراض (٣). ولا شك أن دواعي ما سبق تكمن في الوعي بالقيمة الحضارية للغة العربية، لذلك فإنّ «يهودية أرض المغرب كانت قد تبنّت منذ القرن التاسع اللغة العربية أداة ثقافة وحضارة» (٤). ويحتمل الحرف العربي أدائها المفضلة.

تساعد النصوص السابقة على إنتاج قياسات دالة. فإذا كان اليهود أوفى منهم قد تخلّت عن حرفها وتبنّت الحرف العربي،

المواقف بما قبلها وبما بعدها. أما ما قبلها فقد حاولنا رصدّه في الفقرات السابقة، وأما ما بعدها فإننا نتعرض له اعتماداً على استقهادات شتلتهم مُصمّراتها وتركّز على الاختيارات والمواقف والتنازع والافاق.

فأما الاختيارات فقد حدّد في تيفناغ والبحر عن هوية ثانوية. وأما المواقف فقد قلّمنا من النصوص ما يجعلها بيّنة. وأما التنازع والافاق فسنعرض لها من خلال الحديث عن طموح المغيرة، ونطلب المسترة، وتعليم الأمازيغية - وكلّها قضايا تتطلب إعادة النظر في مكونات الهوية المغربية ومجموعتها الفكرية

### المقاييس لئلا الاستدلال

بيّنا في الفقرات السابقة خلفية التصورات للدافعة عن الطروحة نقنقد الكثير من مقوّمات الاستدلال التاريخي والمعرفي. وقد برهنا على ذلك بنصوص قديمة وحديثة تتباين مرجعيات أصابعها ومقاصدهم. وقد كانت تلك الاستدلالات مباشرة لأنها تناولات الأمازيغية في علاقتها بالعربية. غير أنّ هناك طرقاً أخرى لإثبات ذلك، وهو المسلك الذي نسير فيه الآن، باعتمادنا منهجية قياسية تُسمّح بتصوّر وضع لغة من خلال وضع لغة أخرى عايشتها وارتبطت بها باللغة العربية. فرضيتنا في ذلك هي أنّه إذا كانت العربية قد سنحتّ للغة الأولى بالعيش واختيار ما يتماشى مع إرادة أهلها، فإنّها قد سنحتّ للآخرى بالعيش والاختيار كذلك.

ثلاث لغات عاشت في المجال نفسه: العربية والأمازيغية (الأمازيغيات) والعبرية. فكيف تمّ هذا التعايش؟ هل فرضت العربية نفسها بالإكراه، أم كانت اختياراً استراتيجياً؟ لقد سنّب شارل أندري جولييان للقسيس أغسطين قوله: «إنّ الدولة

١ - شارل أندري جولييان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة (الدار التونسية للنشر، ١٩٦٦)، ص ٢٤٨.

٢ - ٣ - ٤ - حاييم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة أحمد شحان (مركز للدراسات، ج ١، ص ٢٠٠)، ص ٥٨، ٥٩.

أو تخلّت عن لغتها وتبنّت العربية، وإذا كان الأصل المفترض لـ «طريف» (إمام البورغواطيين) مقترناً بهم، فإن الإكراه اللغوي يصبح ادعاءً يبنّي التحالي عنه، والدفاع عن القضية بما يُشعّن لها الاندماج في النسق الشامل للامة.

#### مفارقة الأمازيغية وتدريسها

لقد اُفترت دراسات كثيرة افتتحت الأمازيغية إلى المعيارية. إذ الأمازيغية أمازيغيات؛ وهو ما أكتفه الدراسات اللغوية الاستعمارية، وزكّاه آراء ومواقف معاصرة<sup>(١)</sup>. لكن ذلك لم يثبّع آخرين من الحديث عن أمازيغية معيارية تتميّد بناءً على قرارٍ نصالي، وهو ما يُقنّي أنّ مبدأ «الوحدة في التنوع» يتعرض للفرق والتجاوز. غير أنّ الوجه الآخر للإشكال يُطرح بصيغة أخرى تمسّ التوافق الوطني المحدد في الميثاق الوطني للتربية والتكوين. فمعمرة الأمازيغية معناها تدريسها بشكل محدّد باعتبارها اللغة المصنوعة في المختبرات. لآلة الأم للتداوليّة التي اقترها الميثاق أداة للتدريس. ثم ما الكلفة الماديّة التي سيحتاجها هذا التدريس؟ وما عواقبه على تعلّم مسجّد نفسه أمام ثلاثة أنظمة إشارية (عربية – تيفناغ – لاتينية)؟ وهل تمّ ربط هذا التدريس بمشروع تنموي شامل؟ وما الوضع الذي سيكون عليه محتوى المقررات؟ هل سيتمّ تطهيرها من النّفس العربيّ مسلماً ثم رفض الخط العربيّ؟ وما الوضع المستوي الذي ستكون عليه الأمازيغية (الأمازيغيات) تبعاً للوضع اللغوي والتدريسيّ؟

إنّ مقارنة المواقف بالاختيارات تجعل الباحث أمام مفارقات متعدّدة. فـ «الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي» صاغت منذ السبعينيات طريقة «الراتن»<sup>(٢)</sup> وقُدّمت نماذج لكتابة

الأمازيغية بالعربية. لكنّها أصدرت قبل أعوام كتاباً يتّشعّو إلى «ترسيم أبجدية تيفناغ»<sup>(٣)</sup>. وهذا التحول لا ينطبق عليها بفوردها؛ فقد رأينا «تخلّ» الأستاذ شفيق الدافع عن أمازيغية عربية ورأينا «خرّجه» وبيّنا أوجه المقاربة غير المعلّقة علمياً. فكيف نفسر هذا التحول؟ وكيف نفهم بناء مشروع، ثم التخلّي عنه؟ ولماذا تمحور النقاش حول الحرف اللاتيني في مرحلة محدّدة، ثم انحصر؟ أين حجج العلمية والكونية والثقافة التي كانت مستنداً الكثير من الداعين إلى اعتماد الحرف اللاتيني؟ ولماذا تمّ خلّج جيّة المعرفة، وارتداء بُرّيس السياسة الضعفاء القاصر على احتواء النقاش؟ ثم إنّ للقضية أبعاداً بداعوجية وتواصلية واقتصاديّة وهوياتيّة؛ ذلك أنّ المدرسة ستعاني من تضمة للحرف العربية واللاتينية وتيفناغ، ومن إنهاك اقتصادي، وشرح تواصلٍ مع تراث أمازيغيّ مؤنّن بالحروف العربية. فما مصير مؤلفات ملّغ بهر المجموع لأطلي أوزال، أو المعجم العربي – الأمازيغيّ لـ محمد شفيق، أوغيرهما مما كان سينشغل منطقاً شميّاً لبداعوجيا غير مُحقّرة لا تتلمس خطواتها الأولى، ولا تُخصّي ذاكرة الأمة؟

#### الهوية المخلقة والهوية المرتكبة

تتدرج كلّ الجوانب السابقة ضمن مفهوم أعمّ، هو الهوية باعتبارها الأساس الذي تُبنى عليه الاختيارات السياسيّة والبداعوجيّة واللغويّة. لكنّ هذا المفهوم لا يُخضع لتصوير أحادي، بل يتنوع بتنوع خلفيته المرجعية، إذ يُمكن اختزاله في إطارين واسعين. أما الإطار الأول فيجد مرجعيّته في الإنسان المخلقة التي تُختصر الهوية كيّاناً ثابتاً، أعْلَقَ نَظْمَهُ وَخَرْجَهُ، لأنّه تشكّل عبر سيرورة الزمن، وأصبح جوهراً لا يتغير ولا يُقبل

١ - انظر هذه الأحكام في شفيق (٢٠٠٠)، واليزيد البركة، الصحيفّة، عدد ٤٧، ٢٠٠٠.

٢ - أصدرت الجمعية نشرّة وثائقية (١٩٧٤-١٩٧٥) تُسمّى أرفان عُلّت من خلالها على توضيح طريقة قراءة الأمازيغية المكتوبة بالعرب، العربي، وإنّ كانت قد رفضت كلّ جدالٍ لحريّات تيفناغ.

٣ - انظر: من أجل ترسيم أبجدية تيفناغ لتدريس الأمازيغية (منشورات الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي).

الهوية ليست مغلقة، لكنها ليست منفتحة  
انفتاحاً مضيئاً لأن ذلك سيعرضها للتلاشي

اللغة الوحيدة المتعالية على الانتماءات بمختلف أشكالها؟ لا شك في أن العربية الفصحى هي التي تملك هذه الصفة، لأنها ليست لغة لمنطقة أو لغة أو عشيرة. إنها ليست لغة الأم، لذلك فهي متعالية على صراع اللوثة. وهي الثابت البنوي، ومنطقة الجذب القادرة على ضمان استمرار النسق الشامل المتفاعل مع غيره من الأنساق الأخرى، حيث تكون الهوية تاريخية وتعاقبية، أي أنها أنساق شبة مفتوحة تُعثر الأطر الحادة وتضمن تفاعلها وتفاعلها لأن المجتمع يُقبل بها في حدود الوظائف التي تُنجزها. ذلك أن اختلاف الأسس الانتلوجية يعوض بالجامع الوظيفي الذي يستجيب لحاجات الإنسان والأوطان.

الفنائن. وقد عُبِرت الفلسفة الألمانية عن ذلك خير تعبير من خلال نموذجها الرومانسي المثلّ تاريخياً في الرايخ الثاني والرايخ الثالث. أما الإطار الثاني فيجد مرجعيته في الأنساق المفتوحة التي تُعتبر الهوية مساراً دائماً، يعني بانفتاحه على الأنساق الأخرى، بحيث تكون الأمة مستعدة لتعديل مكونات هويتها، وإعادة تجديد تعاقباتها، بما يضمن التفاعل والتناغم. وبين هذين الطرفين تقع الوسائط التي نؤمن بها، ونعتبرها الأساس الذي ينبغي أن تُبنى فيه الأمازيغية وغيرها.

إن الأمازيغية ليست وحدها صاحبة مطلب الإضافة، بل هناك تعدد لغوي يحتاج إلى تدبير عقلائي وديمقراطي. ذلك أن نسيجنا الاجتماعي مشكّل من لغات وطنية متعددة، إذ نجد العربية الفصحى، والدواج المغربية المثلّة في عربية سهول المحيط الأطلسي وعربية الحاضرة وعربية الأمازيغية وعربية الواحات الحسانية، والبربريات المغربية المثلّة في تلمحيات وتمازيغت وتريفت. فإذا كانت الهوية الثقافية سابقة على الهوية السياسية ومؤسسة لها، فإن مراعاة مكوناتها هي المدخل الأسلم لضمان مسار قويم. وعليه، فما هو الإطار الأنسب لهوية مغربية متوازنة؟

إن الإطار الأنسب هو ذلك الذي يجعلها هوية مركبة، مفتوحة باعتدال، بحيث تقبل الاغتناء والإضافة عن طريق التكيف والتمثل، لا عن طريق الطغاة التي تكون نتائجها وخيمة على المجتمعات. ومعنى ذلك أن هذه الهوية ليست مغلقة، لكنها ليست منفتحة انفتاحاً متسبباً لأن ذلك سيعرضها للتلاشي بسبب خلوها من مناطق جذب وثوابت بنيوية تضمن لها الاستقرار والحيوية في الوقت نفسه.

انطلاقاً مما سبق تُمكن إعادة معالجة مطلب «الاستمرّة» الذي يفرض الإصرار على معيرة الأمازيغية، ومهاجمة العربية، والمطالبية بجعل الأمازيغية لغة رسمية وطنية - وهي مطالب يعني الأخذ بها فتح الباب أمام اللغات الأخرى أيضاً. فما الذي سيُنتج عن الحسانية والدواج المغربية رسميتها ووظيفتها؟ وما

د. جمال بندحمان

استاذ باحث متخصص في الحركة الثقافية الأمازيغية، عضو المركز المغربي لرموز الثقافات.

## ناصر الرياض\*

عندما كنتُ في التاسعة من عمري، فطن والدائي إلى عزلتي وأنطواني. لاحظا أنني أميل إلى اللعب وحدي ساعات طويلة، وأقرأ ساعات طويلة، مستلقياً على ظهري في فترة القيلولة الحارة والمملة. وأجلس ساكناً على طاولة الطعام أمضج لقماتي ببطء وانعدام شهية. انتابهما القلقُ عليّ؛ فأتا ابنهما الوحيد، لا أخ لي ولا أخت. وأمي وأبي كلاهما مثقف وعامل. هو موظف كبير في وزارة الأشغال العامة، وهي أستاذة أدب إنجليزي في الجامعة، وكلاهما مشغول في النهار في العمل، وفي الليل مع الأصدقاء في السهرات. ولأنهما كانا والديّ عصبيين ومعينين بتربية ابنهما وتنشئته أفضل تنشئة، فقد اهتمّا بإيجاد حلٍّ لمشكلتي. فطلعا كلُّ الكتب التي وقعت تحت أنفيهما عن نفسية الأطفال وتطوّر شخصياتهم، وسالا صديقاً لهما مختصاً بأمراض الأطفال النفسية عن أنجع وسيلة لمعالجة الوحدة، فنصحهما بالطريقة التقليدية: «أنا يا أخاً أو أختاً، لكنّ والديّ العصبيين كانا منغمسين في عمليهما ونشاطاتهما، ومعتادين حيائهما كما استقرّت عليهما، ولم يكن في تلك الحياة مَسَحَ لطفلٍ آخر. وبالإضافة إلى ذلك كانا قد تجاوزا الأربعين، وهذا ما جعل فكرة الإنجاب - خاصة بالنسبة إلى أمي - فكرة غير مستحبة. فأعادا السؤال. وجاء جواب الصديق المختصّ: «إنّ أجلبا له حيواناً أليفاً يصادقه». ولم تكن هذه بالفكرة المستحبة أيضاً، خاصة أنّ أمي موسوسة جداً وتخاف على مفروشاتهما وكتبتهما وسجّانها القديم والجميل ولعبّ الهورسلين الدقيقة التي تحبّ جمعها من كل بلد زارته في العالم وترتدّ والذي قليلاً. ولكنهما عندما لم يوفقا إلى بديلٍ يحلّ لهما مشكلة وحدي، وافقا على مضمض. وأبدأ الفناش. أيّ حيوانٍ نجلبه

كان بودّ أمي لو أنّ الصديق نصّح بسمكة ذهبية أو سلحفاة. ولكنّه سرعان ما أدرك لهما انعدام الفائدة من حيوان لا يتحرك ولا يتجاوب مع الطفل. واقتراح عليهما كلباً أو قطة. ولكنّ أمي، وأظنّها كانت محقة، عارضتْ فكرة إيواء كلبٍ في الشقة التي كنّا نسكن فيها؛ فهي صغيرة ومزينة بأغراضها وأغراض أبي وكتبتهما ولعبي، ولا يُمكن كلباً مهما كان صغيراً أن يُقنّع بالبقاء فيها طوال النهار عندما نكون جميعاً في الخارج. فاستقرّ الحالّ على شراء قطة.

وهكذا ظهر عبدو في حياتي. جاءت به أمي في نهاية يوم خريفي ماطر بعد عودتها من الجامعة. قط صغير لا يتجاوز عمره أربعة أسابيع، أسود اللون، مرّش بلطفات بيضاء كبيرة نسبياً على ظهره ووركه الأيمن وفي أسفل بطنه وخلف آذنه اليسرى، وعيناه السوداوان اللامعتان تدوران في محجرتيهما بقلق وخوف من المحيط الجديد الذي وجّه نفسه فيه وحيداً بعد أن كان بصحبة إخوته الثلاثة وأمه حتى ظهيرة ذلك اليوم.

سألته أمي: «ماذا سسميّه؟»

كانت أغنية «عبدو حبيب غندورة وغيره ما بنوه في قمة رواجها في تلك الأيام، فقلتُ مباشرة: «عبدو»

لم يعجبها الاسم؛ فهو بلدي وعادي ولا يليق بمحيطنا ولا بمستوانا الثقافي. وأمي إنسانة مثقفة ثقافة إنجليزية عالية، وأفضل اسم لقط بالنسبة إليها هو «موريس» أو «توبي». ولكنّي أصررتُ على اختياري، فرفضتْ بسرعة؛ فهي لم تجلب القطة أصلاً إلاّ لتسليّتي، ومن ثمّ كنتُ أنا - في رأيها - صاحب القطة في تسميته. وسألتُك ذلك بالقول: «سأعك تختار في تسميته، ولكنّ تذكر أنّك أنت المسؤول عن القطة (ولم تقل عبدو). أنت الذي ستطمعه وتحمله وتحرسه ونظافته ونظافة تربيته وتغييره كلّما دعت الحاجة». وافقتُ فوراً؛ فقد أحببتُ ذلك القطة من أول نظرة، وأملتُ أن أجد فيه أنيساً ورفيقاً.

وبهذا حصل عبدو على بيت وأسم وصاحب في أن واحد. ولم يبدُ عليّ أنّه وعى التغيّر الهائل الذي طرأ على حياته وهويته. ولم تفاربه رهبة من المحيط الجديد؛ فهو لم يتحرك كثيراً بعد أن وضعته أمي أرضاً لكي يقيس بنفسه أبعاد بيته الجديد، كما قالت. ولم يمانع سلّة الفئس المبطّنة بالخملة الحمراء التي أراستها له بيتاً مؤقّتاً. قبع عبدو مستسلماً في سلّته، وقضى فيها ليلته الأولى عندما من دون أن يجرؤ على الخروج منها ولو إلى تنكة التراب التي وضعها له في حمام الضيوف وأرآته إياها وجعلته يشمّها قبل أن أضغ سلّته - وهو فيها - قرب سريرتي وأذهب للنوم بعد تأكّدي من أنّي تركتُ باب غرفتي مفتوحاً وباب الحمام موارياً.

\* استاذ الأغا خان للعمارة الإسلامية - كلية العمارة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (M.I.T.).





مخزراً. وبقيت غرفة الصيوف الغرفة الوحيدة المعلقة في وجهه؛ فقد أقفلت أمي بابها لكي لا يدخل عبدي إليها ويتسكّر التحف المصعوبة فيها.

واحتلّ عبدي حيزاً كبيراً من حياتي ومن نشاطي. فقد كنتُ أصرفُ ساعتين على الأقل يومياً للاعتناء بأكله ونومه وشفاخه ولعبه ونظافته، وللتأكد من أنه لا يمرضُ مخالطه على سجدِ أمي أو مفروشاتها أو ينطُ على رفوف كتبها وكتب أمي. ولكن كل هذا الاهتمام لم يؤدِّ إلى كسر طوق الوحشة الذي أحسستُه به منذ البداية بيني وبينه. كان اللعين لا يُسمح لي بحمله وبمدايعته إلا عندما كان ينتظر مني أن أطعمه أو أسقيه، وكان يأتي للتمسح بي إذا نسيتُ إبطامه أو تغييرُ تراب تنكته. أما ما عدا ذلك فقد حافظ على نفوره وتفرُّده، ولم يرضَ أبداً مشاركتي سريري أو الجلوس على حضني في غرفة الجلوس عندما كنتُ أدير جهاز التلفزيون. وكان ينقلب عدوانياً تماماً يوم الحمام، ويهرب مني في كل أرجاء الشقة ويختبئ في أعمق الزوايا تحت أثقل قطع المفروشات كي لا أصل إليه. وكنتُ مضطراً إلى لبس قفازات الجلي المطاطية لوقاية يدي من خمشات مخالبه الحادة التي كان يُشرعها ضدي حتى وهو غاطس إلى أنفه في ماء الحمام، وأنا أفرك فروته الرائحة بذلك الشامبو المعطر الذي جلبته أمي لحمايته وحمايتنا من القمل وأمثاله. وكان يحافظ على حرده ونفوره مني لفترة طويلة بعد الحمام، ويجلس وحيداً لينشأ نفسه على حافة النافذة في الشمس أو قرب المدفأة إذا كان الطقس بارداً. وعندما يُتشف ويرى تماماً ويتفطر ويلمع تلك اللعنة اللعنة، يدير ظهره لي ويؤمّع ذيله الأسود والابيض الفلّوش ويخرج من غرفتي مختالاً بجماله، من غير أن يُسمح لي بتصيد وبره وإغراق يدي في نعومته أو شمّه وتقبيله، ربما لعقابي على كوني المتسبب بهذه النعمة وهذه النظافة.



بيد أن وحشة عبدي ربما كانت لسبب آخر. فالحقّ أنّه كان قطعاً لعويّاً وكثيريّ النشاط، ولعلّه لم يُعجّب بنمط حياتي الهادئ. فهو كان يقضي جلّ وقته يطارِد حشرات حقيقية أو وهمية في كل أرجاء الشقة، ويحاول أن ينهي برنامج مطاردته بصراع متوتر مع لعبة الفرو المشقوقة، خاصة مع اللبّ البني الصغير والفار الرمادي اللذين سرعان ما فقدا أطرافهما التي تنشها عبدي في حلقات لعبه العنيف. ومرت الأيام، ففكر عبدي وترعرع، صار قطعاً يافعاً كبير الحجم ورائع الوبر لم يُقترَ نشاطه، وازدادت شهيتُه. ولم تعد تنكّيه غرفة الشقة على تنوعها وامتلأتها بالزوايا اللامنة لللب. ولم يعد يهتم بلعبة المشقوقة، حتى بعد أن خاضت أمي أطرافها المتوتشة، بل صار ينظر إليها بازدراء بعد أن تبين له أنّها لعب جامدة لا تملك من أمرها شيئاً. وعلى الرغم من تغير كل شيء، فيه فإنّه لم يغيّر من برودة عواطفه تجاهي، مع أنّي كنتُ أحاول باستمرار أن أخلق له ألعاباً جديدةً لأسليه ولكي اللعب معه في الوقت نفسه. في هذه الفترة أحس عبدي أن وراء باب الشقة عالماً ثانياً غامضاً وملئاً بالمغامرات، وأن ما عليه سوى أن يخطو خطوة واحدة فوق العتبة لكي يكتب. فصار يقف كل يوم خلف الباب طويلاً ويموء ذلك المواء الطويل واللجوج الذي يستعمله عندما يريد أن ينبّئنا إلى أنّه يريد شيئاً ما. ولكنّ أمي كانت له بالمرصاد، ولم تُسمح له بالخروج فعبود، كما اكتب لها السيدة التي باعتها إياه، فطُبيبتُ، كما كانت أمّه وأُم أمّه من قبله، ويُفترض من ثم ألا يخطو خارج المنزل إطلاقاً. وهو على كل الأحوال لا يمكنه الحياة وحده في الخارج يقاتل من فضلات المدينة ويصارع القطط الضالة المشتركة على قطعة عظم أو فضلة لحم، بل ربما دهستُ سيارةً طائشة أو أصيب بمرض مميت. وهو كذلك غير معتاد وساخة الشوارع، ويمكن أن يسبّب لنا أمراضاً وقادرة في الشقة لو سمحنا له بالخروج إلى الشارع والعونة على هواء إلى المنزل. واقتنعتُ أنا براي أمي، ولكن لا أمي ولا أنا نكّا نعرف كيف نُفكّ عبدي ذاته.

ومع إصرار عبدي على الخروج وموانه خلف الباب مهما كان العقاب، ابتدا حزمي يلعب. وسرعان ما وجدتُ نفسي أنحاز إليه ضد رأي أمي؛ فانا كنتُ أتحرّق إلى عقد صلة حميمة مع ذلك المخلوق الوبري والليّكاه الذي كُتّ أحبه بشدة. وصرتُ أتحدّث الفرص لأنأش أمي

بصمة رايها، ووعدها بأن لا نسمح له بالخروج أكثر من مرة واحدة في الاسبوع. ويأتي سائحهم حتمًا كاملاً مباشرة بعد عيونه من كل خروج. حاولت أمي الممانعة، وأعادته على مسمعي لائحة الأخطار التي ستتربط علينا من جراء السماح لعبود بالخروج، وأضافت إليها سبباً جديداً لم أفهمه تماماً. فعبود، كما قلت، يتحرق شوقاً إلى الخروج لكي يلتقي ببنات القطط. بدا لي ذلك أمراً شديداً الغرابة لأن الأولاد في تلك العمر يتحاشون صحبة البنات؛ وأضافت أن لقاء عبود ببنات القطط سيؤدي إلى صراعه مع غيره من الذكور، وربما إلى جرحه أو تشويهه. استغريحت جداً من هذا الاحتمال، إذ لم أستطع أن استوعب أن الذكور قد يتقاتلون بسبب الإناث. وعبود، في نهاية الأمر، كما قالت أمي، قارب سن البلوغ وهو غير معقم. ولما سألت أمي: «ما معنى سن البلوغ؟» قالت: «هو ما يعادل تحول الولد إلى رجل». فتخيلت عبود يشوارب أكثف من الشوارب البيضاء الطويلة والمرهفة التي نبتت على طرفي فمه. وحين سألتها: «ما معنى غير معقم؟» أجابت: «غير مطهر». فتخيلت منظر ابن النجار في حارتنا عندما ظهره أبوه التركماني الأصل في السادسة من عمره، وكيف كان يمشي بصعوبة أسبوعاً كاملاً بعد طهوره، وكيف وصف لي الآلام الشديدة التي سببها ذلك. فاقشعرّ بدني وخيلت لأجل عبود، وقلت لأمي إن عبود مازال صغيراً على «البلوغ» وه التعميق، فهزت برأسها ولم تجب. المهم أنها لانت أخز الأمر وبسحت بخروج عبود مرة في الاسبوع. ولو أنها كررت ثانية أنها تستسلم في وحدة الطب البيطري في الجامعة عن ضرورة «تعميقه» ولم أمتلك نفسي من الالتفات إلى عبود والتصرّح بأن المنع من خروجه قد سقط لم يبد عليه أنه فهم ما قلته، حتى بعد أن فحنت له الباب وانخسبت جانباً فاسماً له سبيل الخروج.

بعد تردد بسيط، خرج عبود وأنا أرقبه وأمي من خلفي خطا في البدء خطوات هبابية وجلّة على الفسحة أمام الشقة، والتفت إلينا كأنه يتأكد من أننا لا نتبعه. ثم انطلق يمدو نازلاً الدرج إلى الشارع، ركضت إلى النافذة لكي أراقبه، ولكنني لم ألق به. وبعد حوالي الساعتين سمعنا مواد خلف الباب، فاسترعت أفتحه له. دخل مغبراً ومسخاً، ولكن يادي السرور. اخذته إلى الحمام قبل أن تأتي أمي وتشاهد الحالة المزمنة التي كان عليها فتغير رأيتها بالسماح له بالخروج ثانية. وصارت تلك عابثنا: كل خميس بعد الظهر - حين لا تكون مدرسة - يخرج عبود وحده، لكي يعود قبل غروب الشمس متوسحاً وسعيداً، فأحضمه، وأضع له كمية مضاعفة من الطعام لتعويض الجهد الذي بذله في لعبه مع قطط الشارع (الذكور قطعاً يراي، فاللعب مع الإناث ممل وغير مسلّ).

لكن عبود لم يقدر جهودي ويصيح صديقي. صحيح أن وقوفه خلف الباب والمواء قد خفّ، وأنه صار يقضي وقتاً أطول معي في غرفتي، ولكنه حافظ على المسافة بيننا وأصرّ على الامتناع عن مشاركتي أريكتي أمام التلفزيون أو سريرتي في الليل. وعجزت عن التفكير في وسائل أخرى تحييني إليه، إلى أن جاء اليوم الذي عاد فيه من مشواره الأسبوعي ورفيقته تنزف. ارتبكت، ولم أعرف ما يتعين عليّ فعله: إذا حممته فقد يلتهم جرحه، وإذا أخبرت أمي لكي تظهر جرحه فقد تغضب ومنعته من الخروج. تغلب عليّ خوفي من المضاعفات وندهت لأمي التي جاءت مسرعة كأنها كانت تنتظر هذا الحادث. غطمت الجرح الذي ظهر أنه سطحي، ولكنّها قررت حرمان عبود من الخروج في الاسبوع التالي. وما إن حلّ الخميس القادم حتى وجدت عبود واقفاً خلف الباب يُعزل بأعلى صوته: فهو طبعاً لم يفهم سبب المنع، وأمي قررت ألا تلين. ولكنّها عادت وسمحت له بالخروج في الاسبوع الذي تلاه لكي تتخلص من إحاسي ومن موانه.

عندما إلى سيرتنا المعتادة: خروج فحماً فانتظار، إلى أن يحلّ الاسبوع القادم. وقيمت علاقتي بعبود بانسنة، وعلاقته بي منفعية. ولم لاحظ في البدء أن مشاويره قد ابتدأت تطول أكثر من الساعتين المعتادتين، حتى انتبهت أمي في أحد الأيام إلى أن الظلام قد حلّ وعبود لم يعد بعد. ولما جاء كان مغبراً أكثر من العادة، واثار العراك بادية على وجهه وعلى جسده على شكل خوش وبقع ووبر متوف. لم يعجب الأمر أمي ولكنّها لم تتخذ أي إجراء جديد، ربما لأنها بدأت فعلاً تفكر في إجراء جراحي.



لما جاء الأسبوع القادم تأخر عيدو أكثر من العادة، ولم يعد إلا بعد أن نعتبت إلى السرير، فاضطرت أمي إلى تحميله وإطعامه. وفي الأسبوع التالي لم يعد عيدو إلا في صباح الجمعة. وكذلك الأمر في الأسبوع الذي تلاه، ولكنه هذه المرة عاد عوداً مزرياً حقاً خدوش في كل أنحاء جسده، بعضها عميق وينزف، وجرح غائرٌ عبر عينه اليسرى، فطُغ الجفن ويؤذي العين نفسها وغطاهما بالدم الذي تجمد على سطحها، فاستحال علينا تقدير عمق الجرح. مرعنا إلى السيارة، أمي وأبي وأنا، وأخذناه إلى وحدة الطب البيطري في الجامعة. ولما وصلنا لم نسمع أمي لي بالدخول لعلها برقة نفسي ويخوفي من مראى الدماء والأدوات الطبية فجلست قللاً أنتظر في السيارة، وعاد والدائي بعد ساعة وحيبتن من غير عيدو.

باندرتني أمي حال دخولها السيارة قبل أن أفتح في: «لا تخش شيئاً. القبط بخير، ولكنه بحاجة إلى عملية، ولن يعود إلى البيت إلا بعد ثلاثة أيام».

«ثلاثة أيام؟ انتفضت قائلاً، ولماذا يحتاج جرح في العين إلى ثلاثة أيام في المستشفى؟»

فاجابتني أمي: «الجرح غائر، وعيدو بحاجة إلى عملية دقيقة ومراقبة بعدها».

مرت الأيام الثلاثة وأنا على آخر من الصبر. وحين حلّ اليوم الموعد عادت أمي بعد الظهر ومعها سلّة وضعتها أرضاً وأزاحت الغطاء، فظهر تحت عيدو، وعينه اليسرى مغطاة بضماد أبيض. بدا عليه الإرهاق واليأس (لا أعلم تماماً كيف أصف اليأس على وجه قط ولكني فعلاً أحسست به). وحين تحرك أخيراً فيجئت برؤية ضمادة أخرى، أكبر من الأولى، تغطي طرف مؤخرة وأسفل بطنه. التفت إلى أمي وعلى وجهي علامة استنفهام مستنكرة. قالت لي: «كان لا بد من تطعيم القط لى أردت الاحتفاظ به، وإلا فإن مشاويره للتناول كانت ستؤذي إلى اختفائه أو إلى موته».

لم أقتنع، ولكني أيضاً لم أحتج. ففي تلك اللحظة طغى عليّ شعورٌ بالحب العام والعطف تجاه عيدو. قمتُ إليه احتضنه، والدموعُ تدرف من عيني. لم يمانع عيدو في احتضاني إياه، بل بدا عليه السرور والارتخاء في يدي. ساورني العجب، ولكنّ الفرحة التي صعدت من داخلي بسبب تلك اللفة التي أبداهما تجاهي خبّبت تساؤلي غير المعلن قامت أمي إلى غرفتها لتغيّر ثيابها، وتركنا وحدنا عيدو وأنا. قمتُ إلى سريري واستلقيت عليه وهو على صدري، ولأول مرة لم يمانع. مهدبته على صدري وأنا أناغيه كالطفل، الضالّ الذي عاد أخيراً إلى منزله. ثم أخذني الإرهاق ونمت. ولما انتهيت بعد قليل من غفوتي وجدت عيدو على حافة النافذة، ويداي منظره غريباً بضمانيته، خاصةً وأنه بدا وكأنه ينظر إلى الشارع عبر الضمادة التي تغطي عينه اليسرى.

نابيته بصوت متهدج: «عيدو».

الفت إلى مجيباً بعينه السليمة، وأقسم أنني لأول مرة منذ جئنا عيدو سمعتُ صوتَ فريير رضاه من تلك المسافة.

ومنذ ذلك اليوم أصبحنا صديقين.

كامبريدج، ماساتشوستس

# عمرو صالح

✦ محمود سعيد ✦

أربعة، يسيرون ملتصقين، يحملون حقائبهم الصغيرة على ظهورهم كطلاب المدارس، باستثناء كبيرتهم التي لم تتجاوز الثانية عشرة بأي حال: فهي شحّوب حقيبتيها ذات العجلات على الأرض. يمشون قليلاً، ثم يستريحون. توقفوا منبهرين بالمحطة الضخمة، بالرغم من الضوء الشاحب. توقفوا، تلمع عيونهم أمام عربة مكشّمة بمئات الهدايا. أوراق لعب، بالونات، مفاتيح سيارة بعشرات المونيكلات، عرائس ولعب، تماثيل صغيرة. انظري ديناصور، غوريلا، كلب. ما أجمل هذه السيارة، غاننتن. وحينما استنحتهم أختهم الكبيرة: «ياللا، قبل أن يفلتوا القطار»، شرعوا وهم يلففون. يجنبون ثوبها للفت انتباهها:

– سناء، أوجد مثل هذا في الموصل؟

ابتسمت: الأطفال هم الأطفال في كل مكان وزمان. لم اسمع جواب سناء. كانت تحدّ السّيْر نحو القطار تحت الأضواء الصّفر الشّاحبة، وهي تشدّ على يد أختها الصغيرة التي لم تكن تتجاوز الثالثة. لم يكرّ في ذهني أيّ سؤال عن سيرافتهم إلى الموصل. ثم لحظتُ امرأةً تسير ونيداً خلفهم. اسير أنا أيضاً ببطء. توقفتُ. ربما هذه أول مرة أركب القطار إلى الموصل منذ أربعين سنة. تلمّصتُ أرقام العربات القديمة، الصّفئة، التي رفعَتْ أرقامها المعدنية المتساقطة بصيغ أبيض غير دقيق. صعدتُ. تغيّر كل شيء عما كان عليه قبل أربعين سنة: المقاعد آنذاك خشبية، وهذه جلدية، وهي أرزح بالرغم من نورتها. صُغِبْ بضعة عشر شاباً يملا فراغ العربة. بدوا من قمصانهم، المميّزة بالألوان الثلاثة، الأبيض والأحمر والأسود، فريفاً رياضياً. الأطفال أنفسهم يحتلون المقعدين إلى اليمين، سناء والأظلة الصغيرة، وإمامها طفلة أخرى في الخامسة، ومظل في العاشرة يجلس جانب المر، صنتف أن كان مغفدي قريه يخلصنا المر فقط إلى يعني، بينما يتشر عجزو إلى يساري بمعطف عسكري قديم، يلفّ وجهه ببشماغ أسود متهرى، لا أدري أكان نائماً أم يستعدّ لينام.

بدأ الأطفال الثلاثة سعاداً بهذه التجربة الفريدة – ركوب القطار لأول مرة – ينظرون من النوافذ إلى أرصفة المحطة الفخرة، عبر الفضاء، الجهة الأخرى. يمكنون جلستهم. يثيرهم أي شيء، يضحكون بقوة، بسعادة، لأي كلمة يلقيها أحدهم. أما سناء فقد استلها تفكير عميق بشيء ما.

تكررت المرأة. ترى أين جلست؟ لم أرها. أيمكن أن تكون غريبة عنهم؟ ربما. التفتتُ إلى اليمين حيث بابّ العربة. رايتها واقفة، تنتظر إليّ. وتستدعيني بحركة سباتني، يخلط في عينيها حزن ورجاء عميقان. كررت الحركة غير مرة. كنت أمتف متسانلاً: «أنا؟» لكنها وضعت السباتية نفسها على فمها، أن أسكت نهضتُ اقتربت منها في خمسيناتها، نحيفة، بقايا جمال أملهته مصائب لا حصر لها. عباته مقحلة، ثوب شحّوم من البازة البيضاء المنطقة، جيلتان شهبوان تتسدلان على صدر مغطى. ما إن اقتربت منها حتى نزلت درجاص القطار بحزن. ثم التفتت إليّ. نزلت وراها. غامت عيناها:

– يبدو أنك إنسان طيب.

أمسكتُ كليّ. ابتسمت باهتمام. همست:

– لي خدمة بسيطة، أرجو أن تقوم بها، الله يوفّقك، الله يخلّقك!

– ما هي؟

– قبل كل شيء، عيّنني أن تقوم بها.

– قبل أن أعرف؟

✦ كاتب عراقي ✦

- إنها بسيطة: إن تبقى مع الأطفال حينما يقف القطارُ في الموصل حتى يصلَ عنهم

- بسيطة.

- اتفعلها؟

- نعم.

أخرجتُ مصحفًا صغيرًا من جيب ثوبها «البازة» البيضاء المنقطة بالأسود: أقسمُ!

ابتسمتُ: لا حاجة للقسَمِ، افعل!

- بل أقسمُ!

سحبتُ كلّي لتقبيلها.

- لا داعي لكل هذا.

- أقسمُ!

أقسمتُ.

- لن تتركهم حتى يتسلمهم عنهم صالح.

- افعل.

ابتسمتُ.

- تبدو طيبًا. توقعتُ ذلك.

أضافتُ:

- ماتت أمهم في ولادة هناء، قبل ثلاث سنوات. حصار، لا يوجد مُعَلِّم. أصيب أبوهما بالسرطان في السنة نفسها، من القهر، أو من اليورانيوم المنضب؛ لا أهد يدري مهندس في قاعدة التاجي تمرقها أنت؟ نُفِرتُ في حرب الكويت مات قبل ثلاثة أشهر. سامحهم صاحب البيت من الإيجار ستة أشهر. معنا كلُّ ما لديهم. لم يبقَ لهم شيء في بغداد.

- اتعرفين عنهم؟

- لا، لكنَّ سيأتي لاستقبالهم في المحطة.

- أنت متأكدة أنه سيأتي؟

فتحتُ ذراعها بعباتها المحملة على وسعها:

- كيف لا؟ اتصلتُ به ثلاث مرات. الاتصالات وحدها كلَّفتني عشرة آلاف دينار. طلعتُ روجي حتى وجدتُ رقمه. ثلاثة أشهر، وأنا أبحث عنه. أخيرًا وُفِّقنا الله.

ثم لَوَّتْ رقبتهما باستعطاف والدموع تملأ عينيها:

- أنت تُعرف المصائب الآن: خطف الأطفال، التجنيدات، القتل. تُسلمهم بيد عمهم صالح.



جذبته حركة القطار نحو التوافذ، لكنها خيبت أمالهم بعد قليل، إذ لا شيء يستحق النظر: أضواء الكاطمية تأتي خافتة من بعيد، رؤوس النخيل سوداء في الليل كالديابيس وسرعان ما انقطع ضوء أعمدة الكهرباء بانتهاه ضواحي بغداد، فابتعد الأطفال عن الشبايك، وأثرت حركة القطار الرتيبة في الأطفال حتى كانوا يُلقون في مكانهم لولا أن فاحت في الجو رائحة الطعام: كباب مشوي، مطلي، شاورما، بيض، عنب. أخرج شباب الفريق الرياضي ساندويشاتهم، وأخذوا يقضمونها مع النكات، والقهقهات، والتعليقات، وتبادل انتخاب البيبسي والسكن أب.

التفت الطفلان نحو سناء، همسا ببعض كلمات، بينما كانت الصغيرة الجالسة قريبها تنظر إليها بتضرع، نهضت، تناولت حقيبتها من الحافظ الشيك في الأعلى، أنزلتها، وعيون الثلاثة معلقة بحركة يديها. ثم أخرجت كيساً صغيرة، ومنشفة صغيرة فتحتها عن أربعة أقسام متساوية، لقرص خبز كانت اعنته لمل هذه اللحظة.ناولت قطعة خبز لكل منهم، ولغث قطعتها. أرجعت الحقيبة إلى مكانها، ثم نهضت إلى المغاسل القريبة، وملاّت الكأس بالماء، ثم جاءت، فأخذ الأطفال يامون الخبز والماء.

قال الطفل: غداً سناكل في بيت عمّ صالح.

رئت الوسطى وهي ترى الفريق الرياضي يشرب المربطات: وسنشرّب البيبسي

- السفن أب.

- عصير البرتقال.

- سنلعب مع ابنته.

ثم التفت إلى سناء، وسأل: ما اسمها؟

- لا أدري.

تدخل الطفل:

- لنسمعها: «لا أدري»

ضحك الجميع.

- كم عمرها؟

- لا أدري.

تدخل:

- ليكن عمرها «لا أدري».

ضحكوا مرة أخرى. أضافت الوسطى:

- إنها تعلم في مدرسة «لا أدري».

احسست بالسعادة، وأنا أراقبهم من حيث لا يشعرون يضحكون بسعادة وبراءة.

- تسمعون كلام عمّ صالح.

رثنا جميعاً، وكانهم سمعوا هذه الجملة عشرات المرات: نعم. كلام زوجته. نعم. كما كنتم تقفون مع زينة ابنة الست كثر. IIIIIII. ثم انتمجروا جميعاً في قهقهة طويلة.

فيهم جميعاً أشياء موحدة: شعر كستنائي فاتح، بياض نقي، أعين سهّل واسعة، يبدو خط الزرقّة فيها ضعيفاً يميل نحو الاخضرار شفاهً رفيعة مزمومة. بدأت أقرأ في المجلة التي كانت معي الطفل أقرئهم إليّ. التفت نحوي: «كان أبي يقرأ المجلة نفسها: العلم المعاصر». ابتسمت: «وانت؟ ألم تحاول أن تقرأها؟» صعباً، مازلت في الصف الرابع فقط انظر إلى الصّور فقط. قطع حوارنا صوتاً اخته:

ضحكت: «قبل أربعين سنة، فقهه مستغرباً، كلّه لا يصدّق أن يعيش المرء مثل تلك اللذة: «أربعين سنة؟» نعم.» «لأبّ أنك نسيت كل شيء.» «لا أعرف. ربما تغير كل شيء. ربما بقي شيء. ما. غداً أعرف.» «الآن أوجد فيها ملاعب كرة قدم مثل بغداد؟» ابتسمت: «لا، كنا نلعب في الخلاه.» «والآن؟ لا بدّ أن يوجد في المدارس على الأقل! أنا أحسنّ لاعب كرة قدم في الصف، مهاجم درجة أولى. ساكون في المستقبل من ضمن الفريق العراقي.» ابتسمت: «لا شك في ذلك.» التفت إليّ بعد: «كيف تؤكّد ذلك؟ أرايتني العب؟» هزّت رأسي: «لا. لكنّ الإنسان يصل إلى ما يريد إن أصبر.» قال بما يشبه الهمس: «أبي كان يقول ذلك.» ثم التفت إليّ، وقال باهتمام: «لم أكن أريد أن أترك بغداد، أصغفاني كثيرون، لكنّ أين بقى؟ ليس عندنا فلوس الإيجار.» «من هي تلك المرأة، أمّ العباءة، التي ودّعكم في المحلة؟» «دست كوثر جارتنا. معلمة متقاعدّة. زوجها معلم متقاعد أيضاً.» «أهي قريبة؟» «لا، ليس عندنا أقرباء غير عمي صالح، لكننا لم نره. أوجد في الموصل تجحيرات مثل بغداد؟» صغفني السؤال. «نعم. كما في العراق كلّهُ.» لم يقل شيئاً. عتمت عيناه بقسوة. تناوب. بدأ يقاوم النعاس. ثم أغشى. أعدائي تتأوّه. وبين اليلظة والنمام رأيت سناء تنهض تتفكّد إخوتها واحداً واحداً، تغطيهم، تمنع من أوضاعهم وهم نائمون، قبل أن تُلمّض عينيها.



.. حمرا!

لست أدري من صرخ بالكلمة، لكنّي سمعت فقهة الفريق الرياضي، وضحك الأطفال، قبل أن اسمع نقيق الحمار. فتحت عينيّ. الأطفال مستيقظون، يتجمعون على الشباك. حمار ينهق يخففي، بيوت طينية تخففي. تلال حقله تتوالى. يلعب بين الحين والحين على الجانبين مدرّس أبيض ناصع. سمعت كلمتي «حمام الطويل»، ثم دخل بعد قليل القطار في نفق. انطلقت الأصواء وساد الظلام. صرخت الصّغيرة. هتفت سناء بصوت مضطرب: «لا تخافي، حبيبتي.» ربما كانت هي خائفة أيضاً. قلت مطمئناً: «لا تخافوا. إنّ مي إلا يضح نفاق فقط. إننا ندخل النفق.» «ما النفق؟» مَزَرَتْ صوت ضياء. «أجاب صوت رجوليّ من الأمام، ربما من أحد أعضاء الفريق الرياضي: «هه.. هه.. هه..»



طريق تحت الجبل » اكملت : «متصل الموصل خلال عشر دقائق.» ساد الصمت. فجأة خرج القطار من النفق غمر الضوء الرقيق العربة. لاحظت من بعيد بيوت متراسة من طابق واحد. اعمدة كهرباء. غبار في غير مكان. ملات الفرحة تقاطع الصفار: «وصلنا الموصل، سيأتي عمو صالح.» سألت رجاء: «سيأتي عمو صالح لاستقبالنا مع ابنته وزوجته، أم وحده؟ لا ادري.» قال ضياء: ان تأتي 'لا ادري' معه، إنها في المدرسة » ضحكوا بسعادة فائقة مرة أخرى، ثم انطلقوا يمشون، ويفقهون حتى توقف القطار في حدود السابعة صباحاً

تزامن الفريق الرياضي قبل الجميع على فتحة الباب. بينما كانت سناء قد لمت إختوتها امامها، نشرت ساعديها، تحيطهم، لتنعيمهم من التزلزل. احترمت رغبته، أسرعت نازلاً وقفت في مدخل المحطة أربهم من بعيد. بوابة المحطة هي المنفذ الرئيس إلى المدينة. عندما كنت صغيراً، وقبل أن يعبد طريق السيارات بين الموصل وبغداد، كان القطار هو الوسيلة الأولى والأخيرة للسفر. انذاك كانت المحطة تتلاق مزهوة - رغم صغرها - بجدران المرمر البراقة. لكنها بدت الآن قذرة، مهمل، شبه مهذمة، تصمم المعين

قرصني برد الموصل حين نزولي، فخرجت من المحطة لامتج بحرارة الشمس الخفيفة لكن لم يكن بمقدور الأطفال ان يخرجوا كانوا يقاومون البرد بوقوفهم متراسين وحدة واحدة، بيد كل واحد منهم ورقة، يرمعها إلى الأعلى لست ادري متى أخرجت سناء تلك الأوراق، كل ورقة فيه كلمة واحدة فقط : «صالح.»

لم يدخل البوابة أي مستقبل جاء رجل في الشمس، «زبون» تقليدي مع حزام عريض، كنت أظنه اختفى، مع يشماغ اسود وعقال حريزي يلعب. ظل واقفاً خارج الباب في الشمس. انبسم عندما شاهد شاباً محجبة حاملاً، تسير مع عجوز تجنح في مشيتها نحو اليمن. ثم جاء عسكري ضخيم متجه الملاحم وبرفقه مراقة محجبة تبدو ابنة، وقفا خارج المحطة أيضاً، واستقبلا امرأة وشابين، في عناق وأقبل. بعد دقائق خلت المحطة إلا مناً. بدت شديدة الكآبة. أرضية المرمر فيها متقوشة بحفر مليئة بوحول جافة. ثمة مسطبة خشبية يتيمة لم يبق من مستنداء سوى لوح وحيد بعرض سنتيمترين. جلس الأطفال على المسطبة: الصغيرة هناء في حضن سناء، ورجاء إلى اليمين. ظل ضياء واقفاً. أعينهم على الباب المفتوح، ويأيدهم أوراق «صالح» غير مرفوعة.

كان البرد قارساً بالرغم من الشمس المشرقة توجهت نحو المعلقة الكهربائية. مددت يدي: المعلقة باردة. كانت قبل اربعين سنة تكوي اليد. كل شيء إلى خراب. تلك سنة الحياة عندما فجأة انتصب رجل أعرج، في يده مكتسة خوص مثبتة إلى عصا طويلة، وأخذ يكس أرضية الصالة المليئة بالحفر. بدا كقروي لم تستطع المدينة اجتثاث جذوره. نهر، بحيرية مكسرة، ويظاظلة.

- اخرجوا! لا مستقبلين بعد الآن. اخرجوا!

أظلمت أعين الأطفال. تحركت عندهم غريزة الدفاع عن النفس. التحموا واحدهم بالآخر، لكنهم لم يتفهموا بآلة كلمة. انتقلت نظراتهم بين سناء والأعرج. كنت خارج الباب. أخرجت سيجارة اجنبية، تقدمت منه. قلت بما يشبه الهمس كي لا يسمعوا حديثاً:

- تقصّل! ان يضايقت بقاؤهم هنا بعض الوقت. هه. اليس كذلك؟

اسند عصا المكتسة إلى صدره

- سيأتي المفتش بعد قليل

- لكل شيء رهيته.

- أمم معك

- نعم.

اشعلت السيجارة له. امتص دخانها بعق. اغمض عيني، ثم فتحهما. نظر إلى السيجارة برضى. انسحب في ممر جانبي واختفى.



ضمت نصف ساعة تقريباً. بكت الصغيرة: «متى يأتي عمو صالح؟ إني جائعة.»

.. لا تبكي، حبيبتي.

فتحت سناء الحقيبة أخرجت كسرة الخبز تجمع الثلاثة حولها، وأعطتهم على الخبزة الصغيرة قسمتها بينهم. هتف ضياء.

.. وانت؟

.. سناكل في بيت عمو صالح.

.. ماذا سناكل؟

.. لا أدري.

.. قهيمر.. وعسل.

.. لا أدري

ضحك ضياء: «سناكل وتاكل معنا 'لا أدري'»

فجأة لاح الأعرج، كأن الأرض انشقت ولفظته. صرخ بكل قوة:

.. أما زلتُم هنا؟ اخرجوا.. دعوني أنظف.

كنت في الخارج أيضاً. بخلت. ابتسمت. أخرجت علبة المخان. ناولته سيجارة أخرى اشعلتها له قبل أن يفتح فمه، ثم دسست بضغ ورقات تقرفي يده من دون أن يراني الأطفال. اخفي من جديد.

.. تسمعون كلام..

أكملوا: «... عمو صالح»

ظلت واقفاً، نظري إلى الأطفال. طلفت انحن.

نهضت. حملت الصغيرة على كتفيها. بخلت غرفة الحمام غسلت وجهها، نشفت. بدت الصغيرة فاتكة الجمال. ثم توجهت نحو رجا: «تعال،» «ليس الآن.» «دليل الآن،» قبل أن يأتي عمو صالح. لم تغسل وجهه بعد نوم القطار. «أمسكت يدها، سحبتها، وما إن خرجت حتى توجه ضياء نحو الحمام من دون أن تناديه، قال: «لا حاجة لرافقتي.» انتظرت له كي يخرج، ثم أخذت تصبف شعره المبلل بشط صافير، وهو يتألف.

تجاوزت الساعة التاسعة. بدأ الأطفال يلعبون. أمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً وأخذوا يدورون ويفنون: «يا أرضنا الحلوة..»

نهضت سناء، دخلت الحمام أحسوا باختلافها توفقوا عن اللعب. خرجت وعيناها محتقتان بالنمور، وإثارت ضيبتها لنفسها تمرق تقاطيعها الجميلة. تجمعوا نحوها. سألها رجا: «أسيأتي عمو صالح؟» لم تجب تجاوزت الساعة العاشرة والنصف. كانت تنظر نحو باب الحطة، وهم ينتظرون معها. دخلت الحمام، وخمنت أنها كانت تبكي هناك ثم ترجع. هتف ضياء: «هيا نلعب.» بكت الصغيرة: «إني جائعة.» نهضت سناء، وقالت بصوت عالٍ: «ستلعب جميعاً، أنا معكم كوتروا حلقة كبيرة.» أخذوا يدورون حول أنفسهم، ويأيدهم أوراق عمو صالح: «يا أرضنا الحبيبة.» ابتسمت. خرجت التفت. عادت اليوم ففك بعيني سناء: لم تستطع أن تكمل. انسحبت إلى المقعد وضعت كففيها الصغيرتين على وجهها. انفجرت في بكاء مرّ طويل، فهرج الجميع نحوها وأوراق «صالح» تتساقط من أيديهم على الأرض. عانقوها وهم يكرن.

الولايات المتحدة

# جدنا الذي في القبر

سمير طاهر\*

تعوُّنا أن نحس جدي في القبر قبل أن يتخل أيُّ كان بيننا. لا أنكر متى بدانا نفعل ذلك، لكني عرفته مذ بدأت أعرف. أعرف كذلك أن هذا الحل كان بالنسبة إلى جميع الأطراف شرًا لا بد منه. ولذلك كان بالنسبة إليّ شيئًا روتينيًا حين طلبتُ منِّي والذي أن أقود أباه إلى القبر لأنَّ ضيوفنا في الطريق إلينا. وكان ذلك شيئًا روتينيًا بالنسبة إلى جدي أيضًا. فعندما وجدته عند سور البيت يمارس هوايته بسرقة الثمار من شجرة جيراننا، رغم هُنا إياه عن ذلك مرارًا، وأعلمته بأن عليّ اصطحابه إلى القبر، رفع حاجبيه كما لو كنتُ ذكرته بموعد أخذ دواء، وقال:

— نعم، بالتأكيد!

وبعد ذلك بقليل كنا نهبط إلى ذلك المكان العجيب، ولا عجب فيه سوى تأثيره فيّ كلَّما هبطتُ إليه وكأنا المرة الأولى. إنَّه العتيق الجديد إلى الأبد. وإلا فما هو غير ممرّ متعرج تنفتح على جانبيه بين كلِّ عدة أمتار غرفٌ مختلفة ومتشابهة معًا: بعضها بأبواب موصدة بأقفال ضخمة تراكم عليها الصدأ، وبعضها بأبواب بلا أقفال: فيما البعض الثالث بلا أبواب بحيث يتمكّن المرء من أن يشاهد أجزاء من محتوياتها البالغة القِزم ولكن المحتفظ بها فينها الأولى

قطعتا الممرّ الفقير الضوؤ، والإحساس عتيق يلتف حولي كأنزع أخطبوط. إحساس بالقة وبغ غريبين لا أعرف لهما تفسيرًا. أمان وطمأنينة. مَهْد ولحد. وعند أقصى الممرّ مَدْبَع جدي. حِجْرَة جَهْرَها والذي لتكون كذلك. فتحتُ الباب، فلف جدي المَجْجِرَة وأشعل النور. لاحظتُ تملأ في هذه المرة، حتّى إنَّه لم يجلس على سريره كعادته.

— أتمّة خطب لي جدي؟

سأقته. فردّ بـ «لا» سريعة وهو يجلس على السرير. كان يفكر بأمر ما: حدثتُ ذلك وأنا أرى بصره يجمد على يدي التي كانت تُمسك بالفتاح. لم اعتد ذلك منه: غير أنّي لم أشا البقاء هنا أكثر على أية حال، فاستقرتُ إلى الباب. وعندما خاطبني قائلًا:

— لا أدري إنَّ كنتُ حكيثُ لك حكاية المرأة التي ولدتُ طائرًا برأسين ما يزال موجودًا في الأجوار وأشاهده على شجرة الجيران بعض الأحيان!

— كلا، لم تُحكها لي يا جدي.

أجبته وأنا ملخوذ: فلقد اخترقتُ كلماته سمعي محدثةً فضولاً عديم الرحمة. يعرف جدي غرامِي بحكاياته التي تأخذني بعيدًا عن نفسي إلى شيء يكون فيها المرء أيّ شيء، ويفعل أيّ شيء. لكن المشكلة الآن أنّ أبي بانتظار عودتي، إذ لدينا الكثير من التحضيرات ينبغي القيام بها. لذا وجدتيّ أضيف وأنا أهمّ بإغلاق الباب.

— يبدو أنها حكاية طويلة، سستمع إليها بالتأكيد فيما بعد.

— من قال إنَّها حكاية طويلة؟

— لكنّ عليّ أن أعود لكي...

— لا أضمن أنني لن أنساها فيما بعد. المُسَيَّون يَسْتَوْن، كما نَظَم. إلّا أنّي في هذه الحقيقة أتذكر جيدًا الحكاية كلّها.

— لكنّ والدي...

— الحكاية تستغرق بضغ دقائق فقط. لك أن تستمع إلى مطلعها فقط: فإنّ لم بعجبك فانهب في سلتك.

أتى للمرء أن يحظى يعرض أفضل؟ روججتني أجلس قرب جدي وكلّي أذان

♦ ♦ ♦

♦ - كاتب عراقي مقيم في السويد

حين دلفتُ عائدًا من القيو، وكانت صلاةُ بيتنا قد اكتملت بالضيوف، تأقمتني نظراتُ والدي الفاضلة، فتجنَّبتهُ مارفًا إلى المطبخ. لكنَّه تبعني إلى هناك ليُسمعني هذه الكلمات:

« أنت تدرى كم نحن بحاجة إليك هنا. ومع ذلك تأخَّرتُ.

وأضاف وهو يمدُّ يده إليّ.

« هات المفتاح.

مفتاح القيو يظل عادةً عند أبي، ولعلينا إعادتهُ إليه في كل مرة بعد إنهائنا واجبًا ما في القيو. لكنِّي الآن لا أجد المفتاح في جيبِي. فَنَشِطُ بقيةَ الجيوب، لكنَّ لا أثر للمفتاح. لم أفهم، غير أنَّ أبي يبدو أنَّه فهم كان يهرُّ رأسه كأنَّه يؤكِّد ظنونه، ثم سالني بشكٍّ جدي:

« كيف وأين تركتَ جديك؟

وجبتني أقول ذاهلاً:

« لقد... هك... لي... حكاية!

وفي اللحظة عينها، وصَلَّنا من الصلاة صوبَ بئرته الفاضحة

« إنَّه جدي!

قلتُ، ومازلت لا أفهم. كنْتُ فاتسًا فاهي بهول وأنا أنظر إلى والدي، الذي ما لبث أن هرع إلى الصلاة. كان عليّ أن أتبعه، لكني أفهم. في الصلاة كان جدي يرحَّب بالضيوف على طريقته، فيما كان هؤلاء يحاولون تجنُّبه. وقف والدي جانبًا يتأمَّل الوضع. كان في موقف لا يُحسد عليه. وحين رآه جدي خاطبه هاتفاً:

« اها! انظروا مَنْ أرى. ولدي العزيز، لكُم أنا فخور به!

وأضاف بيرة متحلقة:

« ما كان الطفَّ زيارته لي في متجعي السطفي! ها ها ها!

جامله الضيوفُ بابتسامات باهتة. وتظاهر والدي بالضحك وهو يتجه صوب جدي، الذي صار يتعمد خطوةً كلما اقترب والدي خطوة، فكفَّ والدي عن المطاردة، تاركًا جدي يتنقل بين حلقات الضيوف: فكان ينضمُّ إلى حلقة منها ليقول عبارةً تجعل الآخرين يفرغون أفواههم مجملين انتظارهم عليه، فيتركهم إلى حلقة أخرى ليفعل الشيء ذاته، وهكذا. كنْتُ متوترًا ومتوقِّعًا الأسوأ. أما أبي فكان يزداد حنقاً وحيرةً، وجهته في الشرفة يحدِّث وقد بدا عليه الهمُّ، مرسلًا بصره إلى الخارج، ووالدتي إلى جانبه تحاول تهنته، خاطبته بالقول:

« أنا أسف يا أبي. لقد كانت غلطتي. يبدو أنَّه غافطني أثناء رَوِيهِ حكايةً، فسرقَ المفتاح.

قالت والدتي بتأنٍ:

« لا تتكلَّم عن جدي هكذا يا ولدا!

هرَّ والدي رأسه دون أن يلتفت إليّ. وبعد قليل قال:

« حاول الآن أن تقترح شيئًا في هذا الموقف. كيف تُمكننا إعادة جديك إلى القيو دون أن نشير ربيَّة الضيوف؟

هذا ما كنْتُ أفكرُ فيه أنا أيضًا، وأنا أعود إلى الصلاة. وقفتُ جانبًا أرَّقب تصرُّفات جدي الغريبة، التي بسببها ابتدشنا فكرة حبسه الموت في القيو. قميصه مفتوح الصدر. يُبْللُ منه نزعًا شعريًا أبيض كثيف. جدي يتصوَّر أنَّه شابٌ مدى الحياة. وما هو يجلس الآن إلى

جوار سيدة هَمَسَ في أنفها شيئاً جعلها تفرق في الضحك: ثم عاد هَمَسَ في أنفها مرةً ثانية فماتت ضحكها على الفور، وفُفِرَتْ فَمَتْها مصدومةً، ثم أغلقتَ عينيها محمرةً الوجه. لم أفهم. كنتُ قانطاً.



– هل أنتُ علي ما يرام؟

سللني صوتٌ رقيقٌ بنبرة متعاطفة رفعتُ رأسي إلى مصدره. إنها الفتاة الاليفة، البنيّة العينين، ابنةُ أهد اصديق والدي، وكنتُ أشعر بالارتياح للتحدث معها منذ أن التقيتها أول مرة في دارهم في حفلةٍ صمحتُ فيها والدي تاملتُ وجهها الذي كان مفعماً بالمشاركة الوجدانية. كاد هذا أن يُلغيني، غير أنني لم أُرِدُ كُشفَ السرِّ أجبتها:

– نعم، أنا بخير. فقط متعب قليلاً.

كُفِفْتُ عن مراقبة جدي وحاولتُ أن اتمالك نفسي. رحتُ أنظر إليها مباشرةً، واحسستُ أنني ادفع بمرأها المُشْرِقَ هُنيئاً. قلتُ لها:

– يسرني حضورك الأسمى. إنها مشوقة، ألا تَرَيْنَ ذلك؟

ابتسمتُ، وقالت وهي تُنظر إلي مباشرةً أيضاً

– أجل، إنها مشوقة.

ولجأةً بدا أننا نعرضنا لهجوم مباغت. صوتٌ وقع، بنبرة إباحيةٍ مصحوبة بصوتٍ تنفّس عالٍ، يقول:

– أه! شمة إغواء يجري هنا! أنا أحب ذلك.

كان هذا جدي. لقد انتصب أمامنا بغتةً. صار من القرب بحيث يكاد يلتصق بنا. نظرتهً وطريقته في الابتسام كانتا فاسقتين. أسدلت الفتاة بصرها، وحين رفعتهُ ثانيةً وجدتُ جدي ما يزال يُنظر إليها بالطريقة نفسها، فولّت هاربةً إلى المطبخ. صرّيتُ إلى جدي نظرةً احتجاج، فقال بنبرة فظيعة:

– تريد أن تضاجعها، اليس كذلك؟

– جدي! هذا لا يجوز. لا.. لا يجوز أن تقول.. أنا.. لنا...

كانت شفتاي قد انحرطتا، بمعزل عن سيطرتي، في ارتجاف بلا انقطاع. وجدشتي والذتي على هذه الحال حين خَضَرَتْ على عجلٍ قائمةً من المطبخ مشأئلةً بقلق:

– ما بها البنت؟ مَرُّ اغضبها؟

وأضافت بعد أن لاحظتُ حالتي:

– ما الذي يجري؟

ثم وجّهتُ إلى جدي نظرة اتهام وخاطبتهُ قائلةً:

– مَرُّ فضلك يا عم، عليك أن تعود فوراً إلى...

فصاح جدي ملوئاً ببيده إلى أعلى:

– لا، ان أنزل إلى القبو الليلية، مفهوم؟!

التفت عدد من الضيوف إلينا. لاحظتُ والذتي ذلك على الفور، ورايتُ وجهها يحمَرُ ويتشنجُ، الأمرُ الذي جعل أساري جدي تنبسط بابتسامةٍ زهرٍ، تصنّعتُ والذتي الابتسام بطريقةً أثارت شفقتي، وقالت وهي تَرْتِي على كتف جدي:

- عمّ تتحدث؟ لم أفهم ما تعني. لكنّ الجو مسلّ هنا، اليس كذلك؟ ما ما ها!

وظلت تختلس النظر إلى الحضور حتى اطمانت إلى أنّهم كفّوا عن التطلع إلينا. في هذه الأثناء عاد جدي يقول لها بطريقة تعليمية:

- كنتُ فقط أوضّح لحفيدي أنّ تصرفاته ليست معيبة كما يظنّ، وليس عليه أن يحُجل منها. فمن حقه الطبيعي أن يحبّ بمعنى أنّ من حقّه أن يمارس رغبته في التماسل، خصوصاً أنّه لا يشكو - على حدّ علمي - من علّة في عضوه.

انفتحت عينا والدتي عن اخرهما مرّة واحدة، وراحت تدير وجهها بسرعة بين جدي وبينني، كأنّها كانت تريد التاكّد من أنّني لم أسمع شيئاً. كان وجهها عبارة عن ملزق. ثم قالت بشكل الي:

- الحبّ، تعني؟

- ما الحب إلا الرغبة في التماسل لحفظ النوع!

في هذه الأثناء كانت شفتاي قد كفّتا عن الارتجاف الغبي، وارتدت أن أخفف الضغط عن والدتي، فاجهدت نفسي لاركّز قليلاً، وقلتُ مخاطباً جدي:

- لعلّ الحب يا جدي يعني أشياء أخرى... الإحساس بالجمال مثلاً.

- الإحساس بالجمال هو الشيق، بكلمة أخرى.

- والحنان؟

- مصّ الحلمة، تعني؟

عندما افلّقت والدتي برعب:

- يا إلهي!

وبدت كأنّها توشك أن يُلعى عليها. غير أنّ حضور والدي انقذها، فسارعت بالاختفاء.

وقف والدي يُنظر في وجه أبيه بمرئح من العتب والقسوة. غير أنّ الأخير واصل كلامه دون أن يعبا بتبدّل الأشخاص:

-... والدليل المنطقي على صحة هذا هو أنّنا لو قلّبتنا هذه المعادلات فسنحصل على نتائج متطابقة فالشيق ما هو سوى إحساس بالجمال، كما أنّ عملية مصّ الصدر تُعرّف الحنانّ التعريفَ الكامل الذي تُعجز عنه كلّ المحاولات الأدبية والفلسفية.

وسكّنت. ثم انتبه إلى أنّه كان محطّ نظرة طويلة ثابتة من والدي. مرّت لحظات أخرى وثقينا كلّ منهما مثبتتين على عيني الآخر. كنتُ أتوقّع حدوث أمر رهيب. ثم خاطب والدي أباه بصوت خفيض قاتلاً.

- لماذا؟

مرت لحظات متوتّرة أخرى قبل أن يضيف بآلم:

- أنا لم أسئ إليك يا أبتّ، فلماذا تفعل بي هذا؟

ردّ جدي بمزاج أروحي:

- كلّ ما في الأمر أنّني شعرتُ بالسأم في القبر، ففكرتُ في أن أخرج الليلة.

وخطأ المغادرة حلفتنا لكنّه استدار ثانية ليتمّسّ في أنن والدي:

- إجازة ليلية واحدة فقط. لا تكن بخيلاً يا واد!



لا أدري كيف جَزَتْ الأمورُ مع الصديقة لا بدَّ أنها نالت من الإحراج نصيباً. بل إنني لم أعثر لها على اثر حين فُتِشتُ عنها في الصلاة تطلعتُ عبر النافذة إلى الحديقة حيث تجمَعُ الأصحابُ من أبناء ضيوفاً وبناتهم، فلمحتُها بينهم خرجتُ إلى الحديقة وأنا اتسائل إن كان الأصحاب قد لاحظوا شيئاً من أمر جدي راتني الفتاة مقبلاً ناحيتها، ولم أتمكن من تحديد ما إذا كان ذلك سرّاً أم أزعجها فوجهها كان محايداً. قلتُ لها:

– اعتذر عما بَرَّ من جدي

وكأنها كانت تنتظر مني هذه الإشارة، فسُفِرتْ أمارات الضيق على وجهها وهي تقول:

– أعذرتُني أنت أيضاً عما سأقول إن جدك فطرح لا يسبب ما قال فقط وإنما. بسبب كل شيء فيه! اتدري لماذا جئنا إلى الحديقة رغم الهواء البارد؟ ببساطة، لأننا خِفْنَا من جدك. الأصحاب جميعاً هنا يصفقونه بالخيف. إن وجهه يشع إلى حدٍّ لا يُحتمل. ثم تعابيره... نظراته الوقحة...

كان الباقون قد سمعوا حديثنا، وكان واضحاً أنهم مشتركون في الهم ذاته تطرَّع أحدهم بالقول:

– لقد سرقَ مني قطعة للتفود التي حصلتُ عليها من والدي وفوق ذلك نلتُ توبيخاً والدي حين ذكرْتُ له ذلك لأنه لم يصدقني وقال آخر.

– وأنا لم أكتبْ جَدَّك بحطف فطيرة اللحم من يدي، وإنما لدفعتي بعدوانية وما تزال كتفي تؤلّني من جراء ذلك

كل كلمة منهم كانت تزيني حرجاً. اطرفتُ وأنا أتلقى المزيد من الأوصاف عن جدي. إناني جشع عدواني همجي. فاسق...

ومن دون أن أدري وجدّتي أقول:

– كنّا خبّاتاء عن الآخرين، لكنّه أَلَمَتْ وظهّر فجأة!

سألتني الفتاة

– خبّاتموه ماذا تقصد؟

فانتبهتُ، وسارعت إلى القول:

– لا أقصد شيئاً معيَّناً، إنّما قد يبدو الأمر وكلّهُ كذلك!

وحين وجدّتي أزداد تخبطاً استأذنتُ وابتعدتُ.



أرّقب جدي وفي ذهني تصميماً على أن أقصيه عن هذه الأمسية بأي ثمن. كان يجلس وسط حلقة من الرجال والنساء يصمتون عليه احتجاجهم على كل ما يقول تقريباً، فيما يتّخذ هو جلسة العارف المتعالي والمتهمك. اسمعه يقول:

– أية محرّبات هذه التي تتكلمون عنها؟ المحرّبات يا أصدقائي مجرد أكاذيب دفاعية نَحْفُظُ بها ممتلكاتنا الشخصية والعائلية. أكاذيب نحن الذين ابتكرناها، ويمرور الزمن صلبتُناها. إنها عزيزة علينا كثيراً، كيف لا وهي الخزينة التي تحوي كل ما نشتهيهِ حقاً، كل شهراتنا الحقيقية!

وعلى الفور اختلطت الاحتجاجات من المحيطين به:

– فطرح!

- ما هذا الهراء؟!

- كيف تجرؤ؟!

نهض جدي وهو يقول:

- اه، يبدو أنكم كسالى اللبلة يا أصدقائي، لا رغبة لكم في تنشيط انمغنتكم قليلاً.  
واتجه صوب النافذة مقلداً وراه زويعاً من الاحتجاجات بل إن أحدهم قام فثبته وهو يقول بأريحية:  
- أنا لست كسلاً، وسأناقشك!

اللغة، إنه والد تلك الفتاة! بدا قلبي يبقُ بعنف، سيئسُ جدي الأمر مرةً أخرى لقد أردتُ فعل شيء ما لفصل الانطباع السيء في ذهن الفتاة عن بيتنا، وبها هو جدي ينقض على جهودي ويحطم لي كل أمل ووجدتني أقف على بعد خطوات خلفهما وأختلس السمع، كان جدي يقول:

- رجاء! لا تحدثني الآن عن قيم الأسرة. إن الأسرة هي تجسيدُ لوهم تخليد الذات، لا أكثر

فيرد صديق والدي بتوبيخ:

- أنا أقتر مفهوماً هذا، وشخصياً أحاول مراراً مراجعة مفاهيمنا المتداولة، ولكن في هذه النقطة، لو اتخذتُ من نفسي مثلاً، فصنفتني أنني، في أعمالي، أحب أطفالي حقيقةً، ومستعدٌ للتضحية من أجلهم بكل ما أملك، بل بحياتي نفسها. فكيف يُمكن أن أعتبر شعوري هذا وهمًا؟

عندها سمعتُ جدي يجيبه:

- ما الفائدة من أن أجيبك عن هذا؟ أعرف أنك لن تصبكتني؛ فالره لا يصنق ما لا يفهمه!

وهنا مرّ فاصلٌ من الصمت، قطعه حضورٌ والدي ليُسحب صديقه ويعود به إلى بقية الضيوف، فيما واصل جدي النظر عبر النافذة المطلة على الحديقة، متفرجاً على الصبية اللامع، أولئك الذين حرمتُ اللهو معهم اللبلة بسبب مفامرة جدي فكرتُ في أن هذه اللحظة قد تكون فرصتي المنتظرة للقيام بمحاولة ما اقتربتُ منه، فلم يضر بي لأنه كان مركزاً بصره على الصبية وهم يؤنّون لعبة ينفب فيها الصبيان صلاً والصبايا في صفّ مقابل. سمعتُ جدي يردد:

- مساع حثيثٌ من أجل الجنس.

أحسنُ بالقرابي، فالتفت إليّ، ثم عاد إلى شأنه. خاطبته قائلاً:

- يبدو يا جدي أنك مستمتع بالأسية. إنها حقاً ممتعة.

لم يجب، فواصلتُ:

... حتى إنك ما تزال جالساً معنا إلى الآن، مع أنك في العادة تُشعر بالتعب في مثل هذه الساعة وتذهب للاستلقاء في غرفتك.

بدتُ منه نظرةً جانبيةً قصيرة، مع ابتسامة ساخرة متخلقة، ثم عاد يبلط عبر النافذة، التي أمكنتني أن أرى من خلالها صديقتي تقف بين الصفين وتؤدي حركات راقصة أو رياضية. وثابتتُ:

- هل تشعر بالتعب الآن؟ هل تود الذهاب للاستلقاء في غرفتك؟ قد أصبحك إلى هناك لتحكي لي حكاية.

- ليس الآن. لا أريد أن يُقوّتني هذا المشهد المثير. سافقنا البضكان، الثلاثتان، الثلاثتان، الشاكستان.

أحسستُ أن سيرةً ما قد انقطعت فجأةً، وأن ضجيج الوجود قد اخففى ما سمعته لم يكن وهماً. لقد كانت نظرتي وملامحه بالغة الجدية وهو يمتعن صديقتي.



- جدي.. إنها صبية صغيرة.

- وهذا هو المثير في الأمر!

هربتُ لكَ إلى أين؟ ساقطتُ شيئاً حتى دون أن أدري ما هو. خرجتُ إلى الحديقة الصَّيْبِيَّة، بمن فيهم صديقتي، لا يدرون شيئاً عن نظرات جدي إليهم. جسدي صغير لا يسعه أن يُخَجز الصبايا عن بصر جدي. إنني عاجز عن حماية صديقتي. جلستُ على العشب، على بعد أمتار من النافذة، مثبّتاً عينيّ في عينيّ جدي. صممتُ أن أبقى هكذا حتى النهاية.

بعد فترة لا أعلمها رأيتُ والذي يُطلّ وراء جدي، يراني، ويُنزل أستانز النافذة. ثم سمعتُ صوت حركة خفيفة وراني، وحين أدبرتُ رأسي رأيتُ الأصحاب جميعاً يقفون خلفي، عيونهم مشحونة إلى النافذة المسئلة الأستار، صامتين.



يبدو أن صبر الضيوف نهد، ففرّوا الرجل مرةً واحدة. انفتح باب البيت وخرجوا قاطعين الحديقة صوب الباب الخارجي، مصحوبين بهمهمة تنم عن عدم ارتياح. كان جدي يُخشع نفسه بينهم، منغمراً في نقاش - بدا وكأنه إجباري - مع أحد الضيوف. كان الأخير يُسك بنواغ زوجته التي كانت تصوب إلى جدي نظرات متطيرة، فيما واصل كلامه قاتلاً.

- اسمع يا صديقي، أنا لا أريد أن أقلل من شأن معارفك، ولكن كل ما عنيّه هو أن علينا ألا نؤمن كثيراً، والأفضل ألا نؤمن أبداً، بما يسمى الثقافة. فالثقافة ليست أكثر من غطاء مسحري، ليست له - مثل أي غطاء في الدنيا - أية فائدة أخرى إلا أن يغطي. وكما تعرف..

وهنا نقل نظره إلى زوجة الضيف، ليكمل قاتلاً وهو يُخمرها بعينه :

- .. فإنّ الأهم دائماً هو ما تحت الفطاء!

فرّ الزوجان من أمامه وهما يرددان باضطراب:

- مع السلامة، مع السلامة.

كان الجميع يُقدون إلى سياراتهم عدواً ويطلقون على عجل عبارات التوديع، فيما كان أولادهم ويناثم أسرع منهم في الفرار وهم يرسلون لي تحيات وداع لا تخالو نبرتها من عدم رضی. ركضتُ صوب سيارة وقفتُ قريبها صديقتي وهي توشك على الصعود، غير أنّها حين رأتني مُقبلًا تريتُ لم تبدِ غاضبة. لكنّها لم تبدِ كذلك راضية. سمعتُ والدتها من داخل السيارة تحثّها على الصعود. أردت أن أشرح لها. شمة كلام كثير عندي، وكلّه ضروري. همت بالصعود إلى السيارة، فقلتُ:

- أريدك أن تصدقيني بأنّه لا يُشبهني، أعني أنني لا أشبهه.

صعدتُ وهمت بإغلاق الباب، فاضفتُ قاتلاً برجا:

- إنني لست هو..

أغلقتُ الباب وانطلقت السيارة، فيما ظلت شفتاي المرتعشتان تتلفظان بأشياء لا أفهمها مثل

- إنه حتى ليس جدي...



دخلت البيت مرهقاً. البيت هادئ، بل يغط في الصمت. كنت أتوقع أن ألقى شجاراً بين والدي من جهة وجدي من جهة أخرى، لكن أبي وحده كان هناك، ساكناً على إحدى الأرائك. يبدو مرهقاً هو الآخر، ربما أكثر مني. تجنبت في البدء نظراته التي توقعتها مليئاً بالدم. غير أنني بعد أن جلست على كرسي قريب رفعت بصري إليه، فوجئته ينظر إليّ بشفاف. فحمدت الرب.

♦ ♦ ♦

القبو ساكن كالعادة وشحيح الضوء. خطواتي في الممر هائلة. الألفة ذاتها تتأبني الآن. فتحت باب الحجيّة بتؤدة، فبادرنى صوته عاليًا متقدماً:

- لا، هذا كثير. هذا ليس عدلاً. لقد رضيتُ بأن أرمي هنا حين تستقبلون ضيوفاً في بيتكم المحترم، أما أن أرمي هنا عقاباً لي فهذه سابقة سيئة. إنه أمر غير مقبول.

وقفتُ إزاهم. كان جالساً على سريريه بوجه محمر، غَضَباً أو لكثرة ما كرع من ويسكي أثناء الحفلة. واصل قائلاً:

- وما الذي أعاقبُ عليه؟ ولدي غاضب لأني لم أكتب. ولدي مُخَرَّج لأنني كنت مع أصدقائه صريحاً، كما أنا. أنا من أرى يصنق ذلك؟ أيعاقبني على ذلك بدلاً من أن يُخبر بي؟

ثم نظر إليّ بطريقة بدا لي فيها أنه نسي أنني صغير. وقال:

- إسمع، أريدك أن تؤمن أن لا خطأ في أهلك، ولا خطأ في أصدقائه بالمرّة، ولا خطأ في ذلك... لا خطأ في أحد. نادرون هم من يعرفون ذلك، مع الأسف. أنا أريدك الآن أن تعرف أشياء مهمة.

لم يكن يهمني أن أعرف أشياءه. سبب واحد لا غير هو ما دعاني للمجيء هنا. لكنّ جدي لم يقرّر بعد أن يوقف تيار كلامه، فقد واصل قائلاً:

- الإنسان يا ولدي كأنه رائح رائج بكل ما فيه. ليس فيه أقلّ خطيئة لا حين يرتقي بحياته، ولا حين ييمرّها أثناء ذلك. ثمة حكمة وراء كل هذا، وهي أنه ليس ثمة من حكمة أبداً: «الحكمة» كلمة كبيرة، باتت عتيقة ومعلّة.

استلقى مسترخياً، وبدأ عظاماً أكثر وهو يقول:

- عليّ أنا أيضاً أن أتذكّر دائماً أنهم لم يقيّض لهم أبداً أن يفهموا هذا. عليّ أن أتقبل جهلهم، أبنائي المساكين المنافقين استراح شايكاً يديه على صدره، مغمضاً عينيه، مبتسمًا برؤى. كنتُ ما أزال واقفاً صامئاً، وهكذا راني عندما فتح عينيه ثانية، فانتفض قاعداً وقال بجديّة:

- لكنّ ما الذي تريد مني الآن يا واد؟ قل ما عندك وانصرف.

عندها فقط وجدتُ في نفسي القدرة على أن أتقدم منه وأقف عند سريريه. ثم جلستُ على الأرض إزاهم، وقلتُ بصوت خفيض:

- لقد جئتُ لكي أسمع بقية الحكاية.

رايتُ جبينه يقطّب وهو يحاول الفهم، وتساءل:

- أية حكاية؟

- حكاية المرأة التي وألّدت طائراً براسين.. الطائر الذي ما يزال يحوم في الجوار، حتى إنك تراه أحياناً

## فصل من كتاب يصدر قريباً

### في نقد أحوال الصحافة المصرية

#### عندما يلتهم الإعلان المهنة وحقوق القراء<sup>١</sup>

كارم يحيى

الاستاذ فهمي هويدي على تشخيص مظاهرها وأبعادها، مؤكداً شيوع تقاضي الصحفيين مرتبات ومكافآت من الوزارات والشركات ورجال الأعمال، إلى حد تورط نحو مائتي صحفي من مؤسسة «قومية» واحدة<sup>(١)</sup> وكان الاستاذ أحمد بهاء الدين - رحمه الله - قد خاطر بعصمه اليومي في الإهرام، وربما بنفسه أيضاً، عندما كُتِبَ في عام ١٩٨٦ عن اصطناع الصحافة المصرية نجومًا على غرار الشيخ «شمس الفاسي» بعدما أُعْطِيَ على الصحفيين مبياتهُ وأُغْرِقَ صفحاتُ الجرائد والمجلات بحملاته الإعلانية<sup>(٢)</sup> وبين عامي ١٩٨٦ و٢٠٠١، ثارت أزماتٌ انتهت، وكأنها الزواجع، وأحله كان من أبرزها أزمة الفساد

هل أصبحت الدهشة عزيزةً على نفوس وتُكْتَبُ بحصانة الفساد، ويُزَسَمُ من إمكانية المساس به؟ أم إنَّ هذا هو سحر «الإمبراطورية» ونفوذ رجالها؟

مثلُ هذه الأسئلة يظل مفتوحاً كلما تبدلت في الهواء محاولات نفر من الكتاب المرموقين فتح ملف الخلط بين الإعلان والتحرير في الصحافة، ومادامت الجاهزة بهذا الخلط وتواجمه مستمرة على صفحات الصحف المصرية دون مسالة نقابية أو قضائية.

♦ ♦ ♦

مع ربيع عام ٢٠٠١ ابتلعت نفوس الوثائقين واليائسين معاً أحدث محاولات فتح ملف الصحافة والإعلان، وذلك عندما جرى

♦ - فصل من كتاب تحت الطبع في القاهرة بعنوان حرية على الهامش - في نقد أحوال الصحافة المصرية.

١ - المقال بعنوان «صحفيون للبيع» - صحيفة **الوفد**، ٢٠ مارس ٢٠٠١. وقد صالط المقال حملة مضادة صارية، كانت أبرز مركاتها إثارة الشكوك حول وجود دوافع خفية وراء كتابته ونشره. وفي أفضل الأحوال جرى تحمّي هويدي بل أن يكتشف عن الأسماء المهمة بالتورط في فساد الإعلانات. وقد ساهم في الإسراع بإغلاق الملف أن أسس اللواء هنتر طنطاوي، رئيس هيئة الرقابة الإدارية آنذاك، تصويماً ينفي فيه إعداد الهيئة تقريراً كان هويدي قد أشار إليه عن الفساد الإعلامي بين الصحفيين. وتلا ذلك قيام مجلس نقابة الصحفيين بإصدار بيان تضمن - «أن المجلس ناقض ما تناولته بعض الأقاليم حول ترعّج بعض الصحفيين من ممارستهم المهنة، وأنه خاطب فهمي هويدي لتقديم ما لديه من معلومات أو مستندات تؤكّد ما تضمنته مقاله من اتهامات منسوبة إلى تقريره رقابي. إلا أن هويدي لم يرد إلى الآن. وأكد المجلس أنه لم يتلقَ أيضاً أية تقارير من أي جهة سيادية أو رقابية تتهّم أحداً من الصحفيين باتهامات أو مخالفات تستوجب تدخل النقابة، واتخاذ الإجراءات الكفيلة بمسالة من أثبت تورطه». وكان هويدي قد عاد في **الوفد** بتاريخ ١٢ أبريل ٢٠٠١ ليؤكد وجود مثل ذلك التقرير الرقابي وحده في الاحتفاظ بسرية مصابره، وليُحدّث من محاولة الدفع إلى نشر سيقتمر في النهاية على أسماء صحافي ومتمسكي الصحفيين المتورطين بحجب أسماء الكبار. وكان ملحوظاً أن المقال الأسبوعي لهويدي في **الإهرام** قد جرى حجبهُ مؤقتاً فور نشر مقال «صحفيين للبيع» ثم عاد هويدي، وبعد أن هدأت الزوابع، لينشر في **الوفد** أيضاً بتاريخ ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ مقالاً تناول فيه نماذج محدّدة للإعلانات والمعاملات الإعلامية التي تنطوي على فساد صريح وإعداد لحقوق القراء وتقاليده المهنة وأخلاقياتها

٢ - نشرت صحيفة **الأحرار** في ٢١ مارس ١٩٨٦ صورة الكتيب الصحفي أحمد بهاء الدين «مبيات» الذي طُبعَ نشره في مساحته المخصّصة بـ **الإهرام**. ولتقرير احتجاج بهاء الدين عن كتابة العمود لاحقاً على منع النشر، ثم عاد بترتيب «مبيات» مفتاحاً تحت عنوان «الصحافة والإعلانات» وأخذ من سوابق خارج مصر نظيراً للتنبيه إلى خطورة خلط الإعلان بالتحرير وإلى تأثير الإعلان على حرية الصحافة.

الصحفي الإعلاني الذي تكشف مع سقوط شركات توظيف الأموال<sup>(١)</sup>.

لم يمر عام ٢٠٠٤ إلا وجاء شهر ديسمبر منه بمثلين مهمين على «إمبراطورية الإعلان» في صحافتنا، وعلى تعاملهم خطرهما الأول يتمثل في تلك الحملة المستفجرة التي صاحبت انتخابات أحد الأندية الرياضية، فامتلات صفحات الصحف بإعلانات تقدر بعشرات الملايين من الجنيهات ويقتض من جرائم النشر ترتبط جميعها بخط الإعلان والتحرير. وصحب كل هذا تجنيد صحفر ومؤسسات قومية، وأسماء صحفية في خدمة صراع غير رياضي وغير أخلاقي بين رجال المال والسياسة، وبدا واضحا إلى أي مدى تطورت الحملة الدعائية إلى تشويه المنافسين وتحطيمهم. أما المثال الثاني فقد جاء بعيد خروج الدكتور يوسف والي من الحكومة، وبينما كان عدد من رجاله ماطلين أمام القضاء. فقد اضطر وزير الزراعة الجديد إلى الجاهرة بإنفاق سته مئتا الملايين من الجنيهات على إعلانات زعمها سيادته بأنه لم يكن لها غرض سوى «رسم صورة بعكس الواقع». ولقد انطوى هذا التشخيص على إقرار مهم ليس فقط بتقاليد رسخت في الفساد بين السلطة والصحافة لتسليط القراء، بل وبكليات هذا الفساد. فقد تحدث الوزير صراحة عن استئراء «المالفا» التي ترتبط الوزارة بالصحافة، وعن «العلاقات غير السوية بينهما»، وعلى نحو يجعل إنفاق مئتا الملايين كإعلانات على صحفرون أخرى السبيل لضمان الولاء للسياسات وللأشخاص والاصمت عن التجاوزات. وطرح الرجل سؤالا منطقيا عن جدوى هذه الإعلانات، ولزأته في حاجة إلى إنفاق أموالها لدعم الإنتاج والبحوث<sup>(٢)</sup>.

إلا أن أحدا لم يتوقف لينتقد ما جرى في حملة انتخابات النادي الرياضي، أو حتى لينفي صحة تصريحات الوزير، وكأن حصانة ما باتت تلف «إمبراطورية الإعلان»، أو كأن للممارسة اليومية لتجاوزات «رجال الإمبراطورية» وسطوتهم قد جكبت صمعا راسحا يلف المجتمع والسلطات، ويؤجج الضمان عن الجهر بما تطويه.



مع التحول الكبير في حياة المصريين إلى الاستهلاك، وصعود حيتان «البرنس» الجدد في «دولة الاستبداد» ليحتلوا مواقع الصدارة إلى جوار رجال السلطة السياسية، تعددت أوجه الفساد الإعلامي والصحفي وتبلورت في:

– جلب الصحفي للإعلانات والحصول على حصة من أموالها، منفردا أو بمشاركة رؤسائه، سواء كانت هذه الحصة خفية أم موهبة في ميزانية الصحيفة بتصرّف، ووفق لوائح تظل هي والميزانيات ملي الخفاء:

– الحصول على مكافآت مالية منتظمة من الوزارات والشركات التي يقوم الصحفي بتغطية أخبارها، وتلقي مزايا عينية وخدمات خاصة في المناسبات:

– الإعلانات التحريرية الموهب عليها باسم الصحفي أو غير الموقعة. وقد أصبح إخفاء الطبيعة الإعلامية لمثل هذه المواد وبسها كمواد تحريرية تقليدا يطلبه القارئ وتستجيب له قيادات صحفية متتفذة تستमित في الدفاع عن خط الإعلان بالتحرير:

– التلثير في نشر الأخبار والآراء، بما في ذلك ممارسة الرقابة حماية للمصالح المشتركة بين معطين وصحفيين. ولعل من آخر إبداعات «إمبراطورية الإعلان» قيام نفر من الصحفيين ببيع المعلومات المؤثرة في أوضاع سوق الأعمال والمحدودة التداول إلى «رجال البرنس» مستقيدين من وجوبهم قرب مواقع اتخاذ القرار الاقتصادي هنا أو هناك.

ولا يخفى على القارئ الفطن العديد من الوقائع اليومية لأوجه الفساد الصحفي الإعلامي، والتي تقصصها أوراق المطابع وتلوح من أحبارها، وإن كان القراء على غير علم بما يجري في «مطابخ» الصحف و«كواليسها»، وما قد يفسد عن القاضين على ضمانهم بين أبناء المهنة من آثاء استئراء. بل إن المجلس الأعلى للصحافة نفسه يتصّر تجليات هذا الفساد، ويؤمّد جانبًا منها، وهي ماثلة على صفحات الصحف والمجلات. وقد توصّلت تقارير المجلس إلى أن «عدم مراعاة آداب نشر الإعلان» هو في مقدّم الملاحظات السلبية على أداء الصحف، وبخاصة

١ - في عام ١٩٩٨ ضرت الدولة شركات توظيف الأموال الإسلامية بعدما كانت قد فتحت أمامها الأبواب لاستغلال صفار المويج، وإلى جانب وكشوف البركة، التي كانت تنغمها هذه الشركات على مدى سنوات إلى شخصيات عامة مؤثرة في الرأي العام، بما في ذلك نفر من كبار الصحفيين، ساهمت

الصحلات الإعلامية في استمرار خداع المويجين وضياح «تعويشة» للعمرة للعديد من صفار المخرين العائتين من العمل في الخليج  
٢ - الإشارة في المثال الأول إلى معركة انتخابات النادي «الأملي» بين رجالي الأعمال الاستثنائيين حسن محدي وحسام بدرولي، علما بأن حمدي نجم كرة القدم السابق كان يتولى وقت الانتخابات منصب مدير الإعلانات بمؤسسة الأهرام، وبعد منافسة بدرولي من أبرز أعضاء لجنة السياسات بالحزب الوطني الحاكم ويختصص المثال الثاني، فالإشارة هنا إلى الحديث الصحفي مع الدكتور أحمد الليثي، وزير الزراعة، المنشور بجريدة العربي تحت عنوان «الطبيب الخامس يحكم الوزارة» ٥ ديسمبر ٢٠٠٤، وبعد أقل من ستة أشهر من تشكيل حكومة المهندس أحمد نظيف

«القومية» منها<sup>(١)</sup> على أن هذه التقارير تُعنى بوجه واحد، هو الخلط بين المواد التحريرية والإعلانية، وتُهمَل الأوجه الأخرى - وكل أوجه مهمة وتحتاج إلى قراءات أكثر دقة: تحقيقاً - كتحريي العلاقة القائمة بين الصحفي والمعلن؛ والصلة التي قد تُتَّجَع بين حجب الأخبار والآراء وبين الإعلانات المنشورة والمختصَّصات الدفوعة والمزايا المنوطة لنفَر من الصحفيين.



على كلِّ حال، فإنَّ ما هو معلومٌ وموثَّق في تقارير المجلس الأعلى للصحافة، وهو كبير وخفيِّر رغم محدودية مجال النظر والمعالجة، لم يَسْتُغْنِ عن تطبيق أو يؤدِّي إلى محاسبة. وهو ما يبيِّن منسجماً مع قصور التشريع، ومع ما أصبح شائعاً في مجتمع الاستثناء من إهدار القوانين وانتهاك المواثيق. فبينما كان مجتمع الاستهلاك ينمو، ونفوذ «إمبراطورية الإعلان» يتوسَّع على مدى نحو ربع قرن، لم يواجه مشرَّعو قانون تنظيم الصحافة رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٦ الخطر الماثِل بما يتوجب. وهنا فقط بدأت نزعاً لتقليد عقوبات الحبس والفرامة التي نَحَتُّ بأعداد من الصحفيين إلى السجون في قضايا النشر خلال عقد التسعينيات، واكتفى المشرَّعون بحصر نطاق التجريم والعقاب في قبول التبرُّعات أو الإعلانات أو المزايا من جهات أجنبية. وإذ جاء ذلك تكراراً لنصٍّ ماثِل مماثِل وَرَدَتْ في القانون ١٤٨ لسنة ١٩٨٠، وهو النص الذي يتجاهل تأثير الجهات الرسمية - بل وحتى الأجنبية - في الصحافة من باب «الإعلانات الترويجية»، ويتغاضي عمداً قد تلتصق «الحملات الإعلامية» لكبار رجال

الأعمال والمؤثرات والهيئات الحكومية والعامَّة والترويج لكبار مسؤوليها من أبواب فسادهم تُلحق الضرر بالصحافة والمجتمع<sup>(٢)</sup> وقد لحقت بهذا النص الوروث من قانون سلطة الصحافة ماثِلان جديتان (٣١ و ٣٢) في قانون ١٩٩٦: واحدة تحظر تلقِّي نشر الإعلان الذي يتعارض مع قيم المجتمع وأسمه ومبادئه أو أدابه العامَّة، أو مع رسالة الصحافة وأهدافها، وتُوجب الفصل بين الرواد الإعلامية والتحريرية والأخرى لا تجيز للصحفي أن يُشَل في جلب الإعلانات أو يُحصل على مبالغ مباشرة أو غير مباشرة أو مزايا عن نشر الإعلانات بأية صفة أو أن يوفِّع باسمه على مادة إعلانية ومن الواضح أنَّ استحداث هاتين المادتين جاء متجاوباً مع ميثاق الشرف الصحفي<sup>(٣)</sup>

والثابت أنَّ أيَّاً من المخالفات المنصوص عليها في القانون الجديد ليس محلَّ تجريم أو عقوبة، باستثناء ما أشرنا إليه بشأن «المعونات والهيئات أو المزايا الخاصة من الجهات الأجنبية» وقد تكون القاسمة الكامنة في ذلك محمودة، إذا ما افترضنا أنَّ الشرعيين التزموا بولاية نقابة الصحفيين على أعضائها وأخصاصيها بمحاسبتهن. لكنَّ فلسفة التشريع هنا تغاضت عن أنَّ الجرائم المرتبطة بالإعلان الصحفي تقوم على شريكتين: أحدهما الصحافة، والآخر الجهة المُكَلَّبة: فهذه الأخيرة أيضاً تستحق المحاسبة لقيامها برشوة الصف والالتفاف على نحو غير قانوني في الرأي العام

على كلِّ حال، فقد ظلَّت المحظورات الواردة في ميثاق الشرف الصحفي من دون مساطة تطبيقية، رغم توافر البُنى التحقيقية والعقوبات المنصوص عليها في قانون النقابة<sup>(٤)</sup> والحاصل أنَّه

- ١ - تُكثِّف تقارير المجلس الأعلى للصحافة عن تصدُّر «عدم مراعاة آداب نشر الإعلان» للملاحظات السلبية المأخوذة على الصحافة المصرية وتحتل مشكلة الإعلانات عادةً المرتبة الأولى في الصحف اليومية «القومية» وفي الصحف الصادرة بترخيص من الخارج، والمرتبة الثانية في الصحف الحزبية بعد «عدم توثيق المطبوعات». كما يُضجَع أنَّه كلما زادت حصَّة الصحافة من الإعلانات، جرى انتهاك آداب النشر. وإذا أخذنا من تقارير أشهر يناير ويونيو وديسمبر عام ٢٠٠٠ مثلاً، فإنَّ الملاحظات الواردة على نشر الإعلانات في الصحف المصرية إجمالاً شغلت نسب ٤٢ و ٣٩ و ٢٨ في المائة على التوالي. وتشغل هذه المخالفات المرتبة الأولى أو الثانية مع فئة «عدم توثيق المعلومات» [ ]
- ٢ - تنصُّ المادة ٣٠ من قانون رقم ٩٦ لسنة ١٩٩٦ بشأن تنظيم الصحافة، على: يحظر على الصحفي قبول تبرُّعات أو إعانات أو مزايا خاصة من جهات أجنبية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وتعتبر أية زيادة في أجر الإعلانات التي تُنشرها هذه الجهات عن الأجر المقرَّرة للإعلان بالصحيفة إعانة غير مباشرة. وهما بل كلُّ من يخالف ذلك بالحسب مدة لا تزيد على سنة، أو بغرامة لا تقلُّ عن خمسمائة جنيه ولا تتجاوز ألفي جنيه. وتُحكَم المحكمة بالإزام المخالف بإداء مبلغ يعادل مكلي التبرع والميزة أو الإعانة التي حصل عليها، على أن يؤدَّى هذا المبلغ إلى صندوق معاشات تقاعد الصحفيين. كما يحظر على الصحفي تلقِّي إعانات حكومية بطريقة مباشرة، إلَّا وفقاً للقواعد العامَّة التي يضعها المجلس الأعلى للصحافة
- ٣ - أقرَّت الجمعية العمومية المظاهرة لنقابة الصحفيين في مطلع مايو ١٩٩٦ ميثاق الشرف الصحفي، ويتضمَّن مادَّتين (٧ و ٨) تُؤكدان الفصل الواجب بين الإعلان والتحرير
- ٤ - ينصُّ قانون النقابة رقم ٧٩ لسنة ١٩٧٠ على تشكيل لجنة تأديب لبلدياتية وشكَّمة تأديبية لاستئنافاً لحاسبة من يخالف آداب المهنة وقوانينها ويتنوك ميثاق شرفها. وتتدرَّج العقوبات التأديبية من لفت النظر، إلى الإنذار، إلى الفرامة بما لا يتجاوز شريين جنهياً، والتمعن من مزاولة المهنة مدَّة لا تزيد على سنة، والشطب من جدول النقابة. وذلك وفق ما ورد في الرواد من ٧٥ إلى ٨٦. وقد أضاف القانون لسنة ٩٦ بشأن تنظيم الصحافة بعض التعديلات إلى تشكيل الهيئة والمُحكَمَة وتوقيعات إيداع مهامَّ لجنة التحقيق، إلَّا أنَّ التعديلات لم تنطرق إلى مستوى العقوبات التأديبية في حال ثبوت المخالفة وعلى أية حال، فقد أقرَّت مؤتمَر قانون الصحافة (٢٤ - ٣٧) للنقابة باختصاصها وحجتها في تأديب الصحفيين

لم يجرّ إلى الآن التحقيق في حالة واحدة أو معاناة صحفي واحد، رغم ما تُضج به الصحف من مخالفات الفساد الصحفي الإعلاني، ورغم ما تُرصد تقارير المجلس الأعلى للصحافة شهرياً. وقد يتّصل المحبّ إذا ما أدركنا سيطرة أباطر مخطّط الإعلان بالتحسيس على النقابة، وتغلغل هذا الفساد بين الصحفيين، إلّا من رحم ربي، وهم ما زالوا يشكّلون الأغلبية رغم تكاثر من أصابهم داء الفساد الإعلاني.



إذا كان الإعلان ضرورة لإصدار الصحف واستمرارها، ففي بلد كيمصر تصبح الضرورة مضاعفة حيث تتفشى الأمية، ويتحمّل الكثير من المتعلّمين أعباء شراء المنتجات الثقافية - وبينها الصحف. وإذا ظلّ إصدار صحيفة واستمرارها - وبخاصة إن كانت يومية - رهناً بضمان موارد أخرى: إلى جانب سعر بيعها للقراء (وهو بالأصل ضئيل)، وأعداد النسخ

البيعية (وهي في المحصلة محدودة)<sup>(١)</sup>. ولقد ظلت الصحف المصرية في ميسر الحاجة إلى ممول محلي أو أجنبي يمدّ العجز الزمن في تكليف إنتاجها. وفصلاً عما أضرنا إليه من ضعف عائد بيع النسخ، فإنّ ضعفنا قد تآثرت بهزال الرأسمالية المحلية المنتجة وضعف سيطرتها على السوق الوطنية. وبالتالي افتقرت صحافتنا إلى رأسماليّين منتجين يتنافسون بقوة، فيُكثرون على صفحاتها. وباستثناء اعتبارات «الضرورة القانونية» كإعلانات المحاكم والإفلاس، أو «الضرورة الاجتماعية» كإعلانات الوفيات التي اشتهرت الأهرام بها، ظلّ الإعلان عن السلع والخدمات لا يقيم العمود الفقري لاقتصاديات الصحافة المصرية، وإنّ كان ملحوظاً في أربعينيات القرن الماضي نموّ الإعلانات التجارية - وبينها ما يروج سلباً - تُنتجها شركات أجنبية، من قبيل «ماركات» المسجائر المتنافسة<sup>(٢)</sup>.

١ - ارتفع سعر بيع الصحيفة اليومية في مصر بين عام ١٩٥٢ و ١٩٦٢ من قرش صاغ واحد إلى ١٥ مليماً، ثم حقّق فترات متتالية حتى بلغ في بداية القرن الحادي والعشرين ٧٥ قرشاً وجنيهاً واحداً للعدد الأسبوعي أيّ أن سعر الصحيفة اليومية ارتفع بنسبة خمسين في المائة مع السنوات العشر الأولى، بينما تضاعف سعرها خمسين مرة خلال أقل من ثلاثين عاماً ثالثة. ويمكن تصوّر التدهور في قدرة المتعلّم على شراء الصحف إذا ما أخذنا في الاعتبار أنّ المدّ الأدنى للأجور الأساسي خرج الجامعة شهرياً كان ١٢ جنيهاً في عام ١٩٦٢، وبلغ ١٠٠ جنيهات بحلول القرن الحادي والعشرين. أما بالنسبة إلى متوسط توزيع الصحف اليومية فهو ٢٠٢ مليون نسخة يومياً، في بلد يتخطّى عدد سكانه السبعين مليوناً، وتأتي مصر في المرتبة التاسعة بين الدول العربية بالنسبة إلى توزيع الصحف اليومية لكلّ ألف نسمة بمتوسط ٢٨ نسخة، بل يتخطّى الرقم المصري عن متوسط مجموع الدول العربية الذي بلغ ٤٤ نسخة، ذلك بحسب ما ورد في بيانات تقرير الاتصالات والمعلومات في العالم لعامي ١٩٩٩ و ٢٠٠٠ (اليونسكو، الطبعة العربية، ص ٢٦١ و ٢٨١) واللافت أنّ اثنتين من الصحف لليومية الثلاث الكبرى - الأهرام والأخبار والجمهورية - كانتا تنشران في منتصف الثمانينيات ما يفيد تجاوز توزيع أعدادها الأسبوعية للمليون نسخة للعدد الواحد، لكنّ هذه الصحف سرعان ما توقفت عن نشر أيّ بيانات عن أرقام التوزيع بعدما لوحظ التراجع الحادّ الذي طرأ لاحقاً عليها. وهذا التراجع في أرقام التوزيع لم يُسكّن منه كذلك صحف أحزاب المعارضة. ووفقاً ما ورد في مقال الدكتور إبراهيم أحمد إبراهيم، «الاحتكار واقتصاديات صناعة الصحف في مصر» (مجلة أحوال مصرية، العدد الثاني عشر، ربيع عام ٢٠٠١)، تُقدّر مساهمة التوزيع في دخل الصحيفة اليومية المصرية بنحو ١٥ في المائة فقط، مقابل ٤٥ في المائة للإعلانات، والبقية تأتي من عائد المطابع التجارية والنشر والترجمة والاستشارات الخارجية. ومن الواضح أنّ هذه النسب تنطبق أساساً على صحيف الأهرام، بينما يمكننا افتراض أنّ مساهمة التوزيع ترتفع نسبياً في الصحف الأخرى، خاصةً الأسبوعية الحزبية والمساهمة بـ «المستقلة»، التي رُفعت سعر النسخة إلى جنيه واحد.

٢ - يعود تاريخ الإعلان في الصحافة بمصر إلى ما كان يُنشر في الصفحة الأخيرة من جريدة الحملة الفرنسية لوكوييه دو ليجيتيم (صدرت عام ١٧٩٩) عن بيع أراضٍ وسلع. وكان للشرهون على صحيفة الحملة حريصين على تمييز المادّة الإعلانية بحروف مائلة. وأما الإعلان في صحيفه الوقائع المصرية (١٨٢٨)، فقد انتظر إلى ما بعد عهدا الستمائة. وسرعان ما ظهر الإعلان في الصحف الأهلية في عهد الخديوي إسماعيل، وأبرزها روضة المدارس وولدي الفيل والأهرام. وقد توالى صدورهما بين ١٨٧٥ و ١٨٧٦، وهي تتضمّن الإعلانات الفضائية فضلاً عن التجارية. ثم شرع الأهرام في نشر الإعلانات للمسوّدة التي تحمل رسوماً للعلامات التجارية في عام ١٨٧٧. وبعد الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ وبسقوط عرفت مصر للمرة الأولى شركات الإعلان، وباتت الإعلانات مورداً مهماً للصحف. واتجه الإعلان لتجاري إلى المزيد من التموّل على صفحات الصحف حتى عام ١٩٥٦، حيث توارت اللغات والعلامات التجارية الأجنبية. وشهدت هذه المرحلة توظيف الشركات الوطنية في الإعلان عن السلع والخدمات. ومع تبني «الاشتراكية» في مملع الستينيات ثار الجدل حول جدوى الإعلان في «مجتمع اشتراكي»، قبل أن يتوقف هذا الجدل بعد هزيمة ١٩٦٧. ويمكن الرجوع للمزيد عن تاريخ الإعلان في مصر إلى: الدكتور منى الحديدي، الإعلان القامرة الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩، ص (٧٠، وإلى: مرسوق عبد الحكم العادلي، الإعلانات للصحفية: دراسة في الاستخدامات والإشيعات) (القاهرة: دار الفكر، ٢٠٠٤، ص ١٤٧ - ١٤٩).

ومع مشروع بناء الصناعة الوطنية بالاعتماد على الذات وتوجيه من الدولة في الخمسينيات والستينيات، ومع السعي إلى السيطرة على السوق المحلية في تلك المرحلة، عُرفت صحافة الدولة - المملوكة للاتحاد الاشتراكي والسويدة أصلاً - بأشكال الخزانة العامة - نمطاً جديداً من الإعلان. فجاءت «الإعلانات التحريرية» عن مشروعات التنمية «القومية» وه العملاقة، تبت قيم الاستقلال الوطني والاعتماد على الذات. وارتبط ظهور «الإعلان التحريري» بمرحلة التصنيع الوطني وإقامة المؤسسات الصناعية العامة. وكان الإعلان هنا يبشّر بصناعة جديدة تسعى إلى ترسيخ أقدامها في الوطن، بقدر ما يروج لسلعة أو لخدمة معينة<sup>(١)</sup>. بل إن الإعلان التجاري «غير التحريري» عن سلع أو خدمات، كحفلات الترفيه أو شهادات الاستثمار، تضمنت هو نفسه قيماً بعينها، كتحفيز المواطن الفرد من أجل مستقبله وتنمية المجتمع. لكن بروز الدولة كمشغل رئيسي على صفحات الصحف أتاح للنوازع السلطوية البيروقراطية أن تُطرح بفجاجة وإلحاح في تلميح المسؤولين ومداخلة نواتهم للتفتحة، حتى مع الإعلان عن مشاريع وميزانيات المصالح العامة. فانتشرت إعلانات الممارسات الاجتماعية والإدارية تهنية وعزاءً، أو حتى لاصطفاة إنجازات زائفة<sup>(٢)</sup>. وبالإلصاق، ضمرت الأهداف القومية والتنمية وتلاشت، بينما بقيت روح «مشخصة السلطة» تتفوق في الوزارات والمراقب العامة، وتكاد تصول «الوزير» أو «رئيس

مجلس الإدارة» إلى صاحب سلطة مطلقة، وتُعين على التصرف كإقطاعي. وهكذا بات ملحوظاً مع منتصف السبعينيات الإكثار من الإعلانات التحريرية استغناءً من المسؤولين في الحكومة والقطاع العام بتميمتها الخاصة، وانشغل عدد من المسؤولين بالبحث عن المحرر الذي يستطيع خدمتهم في نشر أخبار محدثة ومنع أخبار أخرى أو بتحديد المحررين والصفحات بإعطائهم إعلانات يحققون فائدة منها<sup>(٣)</sup>. وبعد نحو عقدين، اضطر صحفيون وتقنيون بقمية الأستاذ صلاح الدين حافظ إلى رفع الصوت فائلاً «هناك إدارات كثيرة للإعلام في الوزارات تُنفق مربيّات شهيرة لبعض الصحفيين. وأنا أقول هذا الكلام واتحمل مسؤوليته»<sup>(٤)</sup>.

مع منتصف السبعينيات كانت مصر تندفع إلى مجتمع الاستهلاك واقتصاديات التبعجية وفي ظلّ «الانفتاح الاقتصادي»، أصبح الإعلان مطوراً لاصطفاة الطلب على سلع استهلاكية وكحالية، العديد منها يُشغل علامات تجارية لشركات أجنبية تعود مجدداً إلى السوق المصرية أو تُدخلها للمرة الأولى<sup>(٥)</sup>. والحاصل أن الصحف المصرية - في مثل هذه «السوق» - طُلت بلا مناعة أمام بذخ الجميع - من رجال أعمال، وكلاء شركات أجنبية، وسلطات بيروقراطية متعشّية دوماً إلى التباهي برجالها.

حول هذه الإعلانات، تجارية أو سياسية أو تجارية - سياسية ممّا، نُمتّ جماعات مصالح تمتدّ من داخل ثوب الصحف إلى

١ - كما أشار الأستاذ عبد الحميد حمروش الخبير المختص في إدارة المؤسسات الصحفية المصرية خلال ندوة «الإعلان والصحافة المصرية» (مجلة الصحفيون، العدد الرابع، مايو ١٩٩٠، ص ١٧).

٢ - ظلت الإعلانات الحكومية قاصرة إلى حد كبير على الوقائع المصرية حتى عام ١٩١٢. وحينها تفتحت نظراً للتحية إلى مجلس النظار سطلب التصريح بنشر الإعلانات والنشرات الحكومية الرسمية في الصحف الأهلية، فأنجز المجلس هذا النشر عن طريق قسم المطبوعات بظنارة الداخلية، والذي تولى توزيعها على الصحف (راجع الدكتور خليل صابات، الإعلان: تاريخه وأساسه وقواعده وفنونه وأخلاقياته، مكتبة الأنطول المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص ٨٥ إلى ٨٧). وكان من الطبيعي أن تحقق إعلانات الدولة طفرات كبيرة بعد ثورة ١٩٥٢ مع توسع دورها في الحياة الاقتصادية. ولم يتواف هذا النمو مع تحولات السبعينيات حين أجهت الدولة إلى التناقص من الإنتاج والخصومات، وعلى سبيل المثال، فإن تغيرات الإنفاق الإعلاني للقطاع العام بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٠ تشير إلى زيادة سنوية بمتوسط ٢١ في المائة، بينما ارتفع هذا المعدل إلى ٢٢ في المائة بين عامي ١٩٨١ و ١٩٨٤ وفي يونيو عام ١٩٨٨، صدر قرار من مجلس الوزراء يحظر نشر إعلانات التهانّي من جانب الوزارات والمصالح الحكومية وبعثات وشركات القطاع العام في إطار إجراءات استهداف خفض الإنفاق الحكومي. ولكن سرعان ما عادت هذه الإعلانات بقوة، وحتى في مناسبات تهنّي الرئيس مبارك نفسه (بشأن نمو الإنفاق الحكومي على الإعلان وقرار عام ١٩٨٩ رجعنا إلى الدكتور الحسيني الديب، الإعلان الإعلامي في الصحافة المصرية - دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الأنجلو، عام ١٩٨٩، ص ١٦ و ١٧ و ١٨). وكان الدكتور علي لطفي، رئيس المجلس الأعلى للصحافة في عام ١٩٨٦، قد وصف في تصريحات ١٢ أيلول اليوم تاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٨١ إعلانات التهانّي للمسؤولين بأنّها «إعلانات التناق» (المرجع السابق، ص ٤٩).

٣ - الاقتباس من كلمات الأستاذ عبد الحميد حمروش في ندوة مجلة الصحفيون، المصدر السابق، ص ١٢.

٤ - في حوار مع مجلة رواق اليوسف تحت عنوان «إسعاد الصحافة وخداة القراء» ٢٨ يوليو ١٩٩٤، ص ١٧.

٥ - تنال الصحافة حمّة مهمّة من هذه الإعلانات، وإن كان هناك نصيب ملحوظ ينعى إلى التلفزيون لتتابع مباشرة للحكومة وهذا امر مفهوم نظراً إلى عجز سياسات الدولة وأجهزتها عن القضاء على الأمية، وإلى جاذبية التلفزيون وقدرته تقنيّة على الترويج لثل هذه السلع الاستهلاكية مقارنة

على المؤسسة وكافة العاملين بها. والآنهي أن أولئك المتسبين في نهب أموال المؤسسات الصحفية واستمرار خرابها وتدهور أرقام توزيعها يستحقون - على من يطالب إعادة الاعتبار للصحافة والمهنة واحترام الفصل الواجب بين الإعلان والتحرير - بلن «المؤسسة» ستصبح عاجزة عن دفع الرتبأت والعلاوات والحوافز والأرباح إذا استأست لهذه «المشاليات» لذا تُعرف صحافتنا مفارقات فجة ناجمة عن تبيح الفساد الإعلامي: فقد تقوم صحف ومجلات بنشر مواد تحريرية لكتّاب ولحررين بارزين ينتهون فيها إلى كوارث قد تلحق بالوطن والمواطنين، ثم سرعان ما تتولى تلك الصحف والمجلات ذاتها نشر إعلانات تحريرية تروج لهذه الكوارث وتزيئنها بوصفها إنجازات قومية يستحق أصحابها التقدير! وقد لا يُعصم بين هذا النشر وذاك سوى يوم أو أسبوع واحد»<sup>(١)</sup>

♦ ♦ ♦

بحلول نهاية الثمانينيات خلّط «إمبراطورية الإعلان» في الصحافة المصرية خطوة مهمة، فظهر ما يسمى بـ «الصفحات المتخصصة» التي باتت منتظمة الصدور في الصحف القومية اليومية الثلاث الكبرى، وفي غيرها من الصحف والمجلات. ولقد شابت اعتبارات إقليمية واقتصادية أن يشار هذا التطور نحو عقد كامل بعد اعتماد سياسة وقوانين «الانفتاح الاقتصادي»، نتيجة لتدابيعات اتفاقات كامب ديفيد (١٩٧٨) على علاقات مصر العربية، وتصديداً على الجوانب الاقتصادية من هذه العلاقات، وبالأخص انفتاح الإعلان في الصحف المصرية على أسواق مستهلكي سلع الشركات الأجنبية والمتعددة الجنسيات في الخليج وطي حركة السائحين العرب القادمين إلى البلاد. وإذا بدأ ظهور «الصفحات المتخصصة» اعتباراً من عام ١٩٨٨ مع استعادة العلاقات المصرية - العربية وكانت أولها في أبريل من ذلك العام بجريدة **الأهرام** تحت عنوان «دنيا السياحة

مؤسسات الدولة ومكاتب رجال الأعمال» وأصبح من دارج القول إن الصحفي «فلاّك» يعمل مندوباً للوزارة أو الشركة في صحيفة، بدلاً من كونه مندوباً لصحيفة! ولا يجد بعض كبار المسؤولين عن الصحف القومية حرجاً في الانتقال من التطل بأن الإعلان شراً لا بد منه إلى تبرير إفساده المهنة والصحفيين، فيقول رئيس مجلس إدارة خضرم ويكل بساطة: «المسؤول في أي موقع صناعي أو إداري يفضل التعامل مع الحرّز على مندوب الإعلانات لأن الحرّز قادر على خدمته بشكل أفضل» ويذهب رئيس مجلس الإدارة ذاته إلى تبرير انهيار القيم المهنية أمام الفساد الإعلامي قاتلاً: «إن المنافسة القوية بين الصحف على الإعلانات هي التي أدت إلى الاستعانة بالحرّزين في عملية الإعلان»<sup>(٢)</sup>

وهكذا يجري إهدار ما تبقى من تقاليد كانت مرعية في السابق، عندما كانت الصحف تنبه القراء إلى «الإعلان التحريري» بعنوان صريح يكشف عن طبيعته أو بفصل «تجزّلي» يميّزه عن المواد الصحفية. وسرعان ما انهارت في الصحف اليومية «القومية» تقاليد فصل الإعلان عن التحرير، فأُلغى بالفصل «التجزّلي» خدمة إعلان قد لا يتجاوز سعره بضعة آلاف معدومة من الجنيهات، ورغم الميزات التي للعلاقة لهذه الصحف وما قد يتوافر لها من تعدد مصادر الإعلان، وهذا الأمر يفيد بمكّن جماعات الفساد الصحفي من إبداء تقاليد منافية لأسس المهنة وللقانون ولبشائش الضرف الصحفي، إرضاءً للمخين ولضمان تفقّف ما يُعصم عليه نغز من الصحفيين من أموال وامتيازات خاصة.

وهكذا أيضاً يجري بيع الصحف وسمعتها ومصادقيّتها وحقوق القراء لأصحاب شركات الفساد الإعلامي داخل الدور الصحفية وخارجها. ولا يكفي هؤلاء الفاسدون المفسدون بذلك، بل يمارسون خداع بقية الصحفيين والعاملين بالدور الصحفية زاعمين أنهم يدافعون عن «مصالح عليا وكبرى» تمّ بالشير

١ - العبارات مقبسة من اقوال الأستاذ طلعت زهيرى، رئيس مجلس الإدارة السابق لمؤسسة أخبار اليوم، في ندوة مجلة الصحفيون، مرجع سابق، ص ١٢. والحق أن الأستاذ زهيرى لا يُعد استثناء في المجاهرة بتبرير خلط الإعلان بالتحرير وعمل الحرّزين الصحفيين بجلب الإعلانات، وعلى الأ

٢ - على سبيل المثال نشرت أخبار اليوم في ٢٩ نوفمبر ١٩٨٦ تحقيقاً للإستاذة نهاني إبراهيم بعنوان «مغامرات الكثرة»، يعرض من مخاطر مشروع بناء شركتي «ميديك مصر» و«المفتريين» (السيدة هدى عبد المنعم، الخلقية بـ «المرأة الحبيبة») حياءً سكتياً صاملاً لخطر القارة وتضمن التحقيق عنواناً بارزاً عن «إرهاب المرأة الحبيبة» وفي صباح اليوم التالي نشرت الأخبار إعلاناً تحريراً على صفحة كاملة - دون إشارة إلى كونه إعلاناً - يدافع عن المشروع وصاحبه للشركتين تحت عنوان «الشركتان تتحيمان» ومن الواضح أن سق هذه الإعلان كان جافراً، وجرى الاتفاق على نشره قبل نشر المادة الصحفية التي تنتقد وتحمّر.

٣ - نكتفي بالإشارة هنا إلى تكلّ تفقّف السائحين العرب إلى مصر نسبياً بالمقاطعة الرسمية العربية. والأهم من ذلك أن الصحافة المصرية قوطعت ومُعتت عن الدخول إلى الدول العربية الأخرى. ومن العامل الأخير تحديداً يقول الأستاذ عبد الحصيد حشوش: «توقفت الصحافة المصرية عن مخاطبة العالم العربي بينما أصبحت هناك حاجة إلى صحافة عربية تقمّ خدماتها للمُكّن الدولي». والصحافة المصرية لم تستطع مواجهة هذا التحول لأن السوق الرئيسي الذي تخاطبه مصري محلي. والسلع المُحرّز عنها توجد أسواقها الرئيسية في الدول العربية النفطية، وهي سلع لم يكن مسموحاً لفترة سابقة بدخولها إلى مصر.. ثم أصبحت الصحف المصرية ممنوعة من الوصول إلى القارئ في دول الخليج «الصحفيون، مرجع سابق، ص ١٥.



والسفر» وتلتها صحيفة الجمهورية في يونيو من العام نفسه بإصدار باكورة صفحاتها المتخصصة «الطيران والسباحة». ثم في يوليو ١٩٨٩ صدرت صفحة «عالم السباحة» عن الإخبار (١) ويؤكد البدء بإصدار صفحات متخصصة لقطاع السباحة أهمية نثر الأموال العربية وللخبيجة وليس من قبيل المصادفة أن تشهد هذه السنوات طفرة لافتة للإعلانات السياسية التحريرية للدول ذاتها، والتي لعبت أيضاً دور القاطرة في عودة مصر إلى الجامعة العربية وعودة للجامعة العربية إلى القاهرة - كالعراق ودول مجلس التعاون الست.

تلتقي فوق «الصفحات المتخصصة» مصالح المكيّن من رجال الدولة، ومصالح رجال الأعمال والشركات الخاصة، ومصالح نذر من الصحفيين/رجال الإعلان. ويتشكل الضلع الثالث في هذا المثلث من قيادات صحفية تشرف على هذه الصفحات وتابعيهم ورؤسائهم الذين يغوزون بنصب مقرّر من عائد الإعلانات في المؤسسات الصحفية. ومن المنطقي أن تزيح هذه الصفحات قيم المهنة، فيما هي تتوّج ممارسات خلط الإعلان بالتحريض، كما طليح معها بفرص نشر المعلومات الكاشفة والآراء النقدية، وبحقوق القراء والمجتمع. بل ويجري إضفاء للقداسة على هذه الصفحات، فتبقى مصنوعة دون مساس في حال الاضطراب إلى خض عدد صفحات الجريدة أو المجلة، بينما تُشغل التضحية بصفحات وأبواب ومساحات مخصصة لكُتاب اعتاد القراء تتبّعها. ويُطلق «مثلث المصالح» الشهوة لاختراع المزيد من هذه الصفحات، سادامت تدّر المال على المتنفعين. ويوصل الأمر بصحف يومية «قومية» معتبرة إلى انتهاز فرص موسمية كالانتخابات البرلمانية كي تُصنر صفحات متخصصة تُخلط الإعلان بالتحريض. وهذا يتجلى نفوذ الأفساد الصحفي الإعلاني في المجال السياسي، ووقاحة لم تُعرفها البلاد من قبل في علاقة المال بالسياسة. ولعلّ هذا الصياق قد يساعد في فهم واقعة قيام رجل أعمال باستضافة نحو أربعين صحفياً من العاملين في صحف «قومية» وهزبية على متن طائرة خاصة طافت بعدد من الدولة الأوروبية، وذلك أثناء خوضه انتخابات مجلس للشعب عام ٢٠٠٠. وكان من بين هؤلاء الصحفيين تسعة من صحيفة قومية واحدة. (٢)

♦ ♦ ♦

لم يكن خداعاً مقال فهمي هويدي «صحفيون للبيع» قد تلاشى في الهواء بعد عندما أشارت إحدى المجلات «القومية» الأسبوعية إلى محاولة رجل أعمال - معتمداً على إغراء أموال الإعلان - استغلال صفحاتها لمهاجمة صحيفة يومية وقومية أيضاً سبق أن تُنشرت عن نفسه. وقد استجابت صحف أخرى للإغراء، وأخذت في النشر دفاعاً عن رجل الأعمال ذاته. (٣) وهذه الواقعة تُكشف عن بعد جديد في توظيف الصحافة في «معارك الظلام» التي يخوضها رجال الأعمال.

ولعلّ عدداً من هؤلاء أثّر الحاجة إلى امتلاك صحف يخوضون بها تلك المعارك، بما فيها تلك المعارك الجارية بين أهل «البرنس» أنفسهم. وهكذا تلمست صحف جديدة تُكشف من أعدائها الأولى عن أنها صوت أيّ رجل أعمال، وضد أيّ من رجال الأعمال ويبدو أن هذا الطراز من رجال الأعمال بات لا يكتفي باستئجار مساحات إعلانية أو صحفيين في «الصحف القومية» والحزبية الخاصة الجديدة لتسويق نفسه أمام المجتمع وسلطات الدولة. فـ «معارك الظلام» التي يتبادل فيها الخصوم الطعن بالسكاكين والمطايء، على الورق المطبوع، أصبحت في حاجة إلى «صحف تليق» تُعشّر وفق قانون الشركات المساهمة أو يتراخض من خارج البلاد. وعادة ما تقوم السياسة التحريرية لهذه الصحف على تصفية الحسابات مع خصوم المال ومع منافسيهم على الأعمال. وكان منطقي أن ترتبط هذه الظاهرة بالصحف الفضائحية ونصف الفضائحية، إذ تجد صحف رجال الأعمال في الفضائحات السلاح المناسب لخوض «معارك الظلام».

♦ ♦ ♦

مع مطلع القرن الحادي والعشرين، وبعد ما يقارب من الربع قرن من الاندفاع إلى اقتصاد السوق ومجتمع الاستهلاك، أصبح مفزق الخداع الإعلاني مجسّداً. وكان المفزق وعالم الاقتصاد د. جلال أمين قد كشف عن هذا المفزق في مقال له قبل نحو عشرين عاماً، حين قال: «إن الخداع بات لا يُقتصر على مجرد ترغيب المستهلك في ما ليس بحاجة إليه، كتفجير طراز السيارة أو جهاز التسجيل. بل أصبح في كثير من الأحيان يُشدر في باب الكتب الصوري... فهل أن الألوان، إذن، أن يكفّ الاقتصادي عن الحديث عن رشد للمستهلك وعقلانيته، وأن يحثّها بدلاً من ذلك عن حيرته وضغفه وتناقضاته؟ وبدلاً من

١ - د. أميرة العباسي، «مشكلات الملكية والإدارة والتمويل في المؤسسات الصحفية القومية في مصر وأفاق التطور»، ورقة مقدّمة إلى المؤتمر العام الرابع للصحفيين ٢٣ - ٢٥ فبراير ٢٠٠٤، ص ١٢ و ١٣

٢ - كما ورد في مقال هويدي «صحفيون للبيع» المشار إليه سابقاً

٣ - راجع «الصحافة والبرنس والإعلان» روبرت اليوسيف بين فتاوى المتطرفين وإعلانات الفاسمين، روبرت اليوسيف، العدد ٦٦، مايو ٢٠٠١، والموضوع موقع باسم المجلة. وانظر مقال الدكتور شوقي جلال في لعدد ذاته بعنوان: «الصحافة بين إغراء المال والإعلانات الفاسدة»، أما الصحيفة المستهدفة بالهجوم فكانت الجمهورية

إهدار قيم الصحافة تحت اقدم «إمبراطورية الإعلان» إلى سياسات مستقرة في العديد من صحفها، ولماذا يستعرض شركاء الفساد الإعلاني في الصحف من شاذلي الضلع الثالث دفاعاً عن استمرار الخلط بين الإعلان والتحرير. وتتمتع دائرة المتواطئين على هذا الفساد داخل بعض الصحف والمؤسسات، مدامات مرتقيات الصحفيين تتدنى، ويشرف المسؤولون عن هذا التفتي على استغلال ضعف الأجور وتدهوره؛ فقد تدفع المرتبات للتدنية المزيد من الصحفيين إلى الانضمام إلى صفوف «جاليبي الإعلانات»، ويعتاد زملائهم الصمت على ما يعانونه يومياً من التضحية بقمع مهنة الصحافة على مذبح إله الإعلان، بينما يروج خذم الآلهة بأن المزيد من الفساد الإعلاني وحده هو التكيف بتغيير الرواتب الهرزية لجموع الصامتين، وأنه قد يؤخر فائضاً محبواً يجري توزيعه على عموم الصحفيين

وعلاوة على ذلك، تتكفل الأوضاع شبة الاحتكارية في سوق الإعلان بتهديد حرية الصحافة مرتين. الأولى، عندما تُسهر عن ممارسة الرأى من الرقابة على الحقائق والآراء في الصحف، إذ يتحول إهدار قيم المهنة إجمالاً إلى سياسة مستقرة لا يمكن تحديدها في المؤسسات الصحفية «الوقعية» التي تستحوذ على حصة معتبرة من الإعلانات الحكومية والتجارية والأجنبية. والثانية، عندما يُتفك التضييق على فرص صف المعارضة في الحصول على نصيب من سوق الإعلانات بهذه الصحفية أو تلك إلى التضحية بمصداقيتها سياسياً ومهنيًا أمام إغراء الحصول على إعلان واحد أو حملة إعلانية واحدة لا تُسمن ولا تغني عن جوع...

## القاهرة

إن يحكمنا عن المستهلك الرشيد، أوليس أولى أن يحكمنا عن المستهلك الغافل التي تُعمل قوًى لا نهائية لسلطانها على استمرار غفلة<sup>(١)</sup> ولعل في هذا الخداع وهذه الغفلة ما يفسر حجم الإنفاق الجاري على الإعلانات: فيقدر الأرباح والمزيد من الأرباح التي يجنيها رجال الأعمال، يُفخر حجم الإنفاق الإعلاني في مصر. وعلى ضوء المعلومات المتاحة، فإن الإعلانات التجارية عن السلع والخدمات في الصحف والإذاعة والتلفزيون خلال النصف الأول من عام ٢٠٠١ تقدر بنحو المليار جنيه. وتستحوذ الصحف والمجلات على الحصة الأكبر، ويوفر ما يجري إنفاقه على الإعلان بها بنحو ٧٥٠ مليون جنيه.<sup>(٢)</sup> وبالطبع فإن هذه الأرقام التقديرية ترتفع إذا ما أضيف إليها إنفاق الحكومة وشركات قطاع الأعمال على «الإعلان الإعلامي» أو «التحريبي». ويكفي التحليل على الطفرات التي لُحقت بالإنفاق على الإعلان في مصر أن تشير إلى ما كان عليه في أعوام سابقة. ففي عام ١٩٥٥ كان التقدير الخاص بإجمالي الإنفاق الإعلاني هو مليون وتسعمئة ألف جنيه مصري، وفي عام ١٩٦٩ ارتفع إلى نحو سبعة ملايين جنيه، خص الصحافة منها نحو خمسة ملايين، وفي عام ١٩٨٠ بلغ إجمالي المنفق على الإعلانات نحو ٢٢,٢ مليوناً منها نحو ١٧ مليوناً للصحافة.<sup>(٣)</sup> وبالعودة إلى تقديرات النصف الأول من عام ٢٠٠١، يمكن القول بأن نحو ٧٥ مليون جنيه ذهبت خلال ستة أشهر فقط إلى الصحفيين المنخرطين في جلب الإعلانات، بينما نال رؤساء مجالس الإدارة والتحرير وكبار معاونيهم حصة تُقدر في حتمًا الأثنى بنحو ١٥ مليوناً.<sup>(٤)</sup> ولعل مثل هذه الأرقام اللبونية تفسر لماذا تحولت

١. مقال بعنوان «مفارقة المستهلك الرشيد»، نشرته الصحف في النصف الأول من الثمانينيات، ثم أعيد نشره في كتاب بعنوان: قضية أم تبعية اقتصادية وثقافية (القاهرة: دار القاهرة، ١٩٨٢). وقد أعدت الهيئة العامة للكتاب نشر الكتاب عام ١٩٩٥. والانتقاس الوارد في النص من الطبعة الأخيرة، ص ١٨١.

٢. يستند التقدير إلى دراسة أعدتها وحدة الإنفاق الإعلامي بمركز «مارك» - الأرقام عن النصف الأول من عام ٢٠٠١. وقد نشرت مجلة القسويق والإعلان ملخصاً عن نتائج الدراسة في عددها الثاني عشر الصادر عن شهري أغسطس وسبتمبر عام ٢٠٠١ أما في العدد السادس عشر من الطبعة الثانية والصادر في شهر ديسمبر ٢٠٠٢، فقد جاء فيه، تلاً عن دراسات أجراها المركز العربي، أن إنفاق الشركات على الإعلان في عام ٢٠٠٢ يقدر بنحو ٤٥٧ مليون دولار ووزارة ١٢ في المائة عن عام ٢٠٠١، وكان نصيب الصحف منها ٢٤٢ مليون دولار مقابل ١٧٠ مليوناً للتلفزيون

٣. التقديرات بشأن أعوام ٥٥ و ٦٩ مستقاة من كتاب الدكتور محمود صادق باززع، الإعلان في الجمهورية العربية المتحدة - دراسة ميدانية، (القاهرة: دار النهضة العربية، عام ١٩٧١، ص ١٠ و ١١ و ١٣). أما التقدير الخاص بعام ١٩٨٠ فقد ورد في كتاب الدكتور الحسيني هاشم الإعلان الإعلامي في الصحافة المصرية - دراسة نظرية وتطبيقية، المشار إليه سابقاً، ص ٧.

٤. تتنافس الدولة عادةً عن تحصيل نسبة الضريبة للفترة من قيمة الإعلان في الصحف، وهي ٣٦ في المائة أما التقديرات التي توصلنا إليها فتقوم على افتراض أن النسبة التي يحصل عليها الصحفي الجالب للإعلانات هي ١٠ في المائة كحد أقصى و ٣٠ في المائة كحد أقصى (وإن الحصة المخصصة للقيادات الصحفية من الحصيلة الضريبية للإعلان بمقتضى لوائح مالية وقرارات غير مطبوعة في المؤسسات هي ٢ في المائة في حتمًا الأدنى. وبالطبع فإننا في كل الأحوال نبنى تقديراتنا هذه مع استبعاد حصة إعلانات الحكومة وطاقات الأعمال والدول الإعلامية، ومع الأخذ في الاعتبار أن هناك بالطبع إعلانات لا يتكفل الصحفيين في جلبها.



## الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٤)

بعد سلامة كيلة وعبد الغفار شكر وياسين الحاج صالح، بحث طويل لأحمد بهاء الدين شعبان خاص بالحركة الشيوعية المصرية.

الأداب

### أحمد بهاء الدين شعبان\*

وساعدت على تطوير الحالة الثورية المتصاعدة في مواجهة المستعمر والمتعاونين معه. وحتى بعد أن تفكك الحزب الاشتراكي الأول، فإن الحيوية الداخلية للبلاد سرعان ما منحت الفرصة مرة أخرى لإعادة بناء حركة ماركسية ثنائية خلال أربعينيات القرن المنصرم. وبرز إلى الوجود عدد من المنظمات الشيوعية، على رأسها «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (حدثت) التي تزعّمها الشريّ اليهودي هنري كوريل وعناصر يهودية مصرية أخرى. ومع حلول النصف الثاني من القرن الماضي، كانت الحركة للشيوعية المصرية قد استعادت زخنها الأول، ويُنْتِج جسوراً حقيقية إلى الناس والمجتمع، في لحظة نهوض ثوري عارم مكثتها من الانتقال إلى مرحلة نضالية جديدة كان عنوانها الحلف الكفاحي الهام الذي تتكوّن من الحركة الشيوعية المصرية الفتية المتلفة مع الجناح اليساري لحزب الوفد (الطليعة الوفدية) تحت اسم «اللجنة الوطنية العليا للمكالم والطلاب».

وكان حزب الوفد، حزب البرجوازية المصرية الوطنية، قد تكوّن في أعقاب اعتقال البريطانيين للزعيم سعد زغلول وبنييه، الأمر الذي أدّى إلى تفجّر الثورة الوطنية العارمة (ثورة ١٩١٩). وقد مستندت هذه الثورة من حالة الخلل في المجتمع، وألحقت شعارها «الجلاد» وال«مستور» محوراً للبرنامج النضالي الوطني آنذاك. وساعد الدور الذي لعبته الحركة التقدمية المصرية بكافة

كل ما أُرِيدُه هو الحفاظ. لا نعلّموا هؤلاء الصبيّة والفتيات إلا الحفاظ.

تشارلز ديكس. أوقات عصية

### تاريخ حافل ومسار حرج

تُعَدُّ الحركة الماركسية واحدةً من أقدم الحركات السياسية في مصر والمنطقة العربية، إذ يعود تاريخها إلى بدايات القرن العشرين المنصرم، حيث تكوّنت في مواقع متشكّكة - كالإسكندرية والقاهرة - أولى حلقاتها، بمساعدة عمّال روس وأجانب. كان ذلك قبل أن يتأسس «الحزب الاشتراكي المصري» في ١٩٢٩/٨، مدشّناً عهداً جديداً مليئاً بالانتصارات والإخفاقات، لطاير طويل من المناضلين الذين بنّوا جهوداً فائقة من أجل «تحرير مصر من نير الاستعمار الأجنبي، وتلييد حرية الشعوب، ومحاربة الاستعمار ومقاومته أينما وُجد». وكذلك من أجل «السعي إلى إنشاء مجتمع اشتراكي» يتنلّى فيه «التفريق بين طبقات المجتمع الطبيعية»، ويُلغى فيه «استغلال» جماعة لأخرى.<sup>(١)</sup>

ورغم عمليات التنكيل والمطاردة، حتى تحت قيادة الزعيم الوطني سعد زغلول، وبترخيص من الطبقة الحاكمة والاستعمار، فقد استطاعت الحركة الاشتراكية الواحدة أن تُؤكّد وجودها في قلب الحركة الوطنية المتفجرة، وقادت احتجاجاً متمسّعةً للنطاق.

\* مهندس. وأحد كوادر الحركة الماركسية المصرية الثالثة شارك في تنظيم الانتفاضات الطلابية الديمقراطية في السبعينيات، وانتُخب عضواً في «اللجنة الوطنية العليا للطلاب» التي قامت الانتفاضة الكبرى عام ١٩٧٢. انتُخب أميناً لـ «نادي الفكر الاشتراكي»، وهو أيضاً أحد المؤسّمين الرئيسيين في التحريض على القيام بالانتفاضة الشعبية في ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧، التي أسماها أنور السادات «انتفاضة الحارمية» - عضو مؤسّس في أغلب اللجان الشعبية المصرية والعربية النشطة في مجال مقاومة المشاريع الصهيونية - (الإمبريالية. أصدر نحو عشرة كتب تناولت قضايا الصراع ضدّ الإمبريالية والصهيونية، وفي سبيل الديمقراطية والتقدم في مصر والمنطقة يُصدّر له قريبا كتاب عن دار الآداب بعنوان **الدور الثوري للعلم والتكنولوجيا في تكوين الدولة الصهيونية وتطويرها**

١ - من برنامج الحزب الاشتراكي المصري، نقلًا عن جريدة الأهرام في ٢٩ أغسطس ١٩٢١ (المصدر: مجلة الطليعة، القاهرة، العدد ٢، يناير ١٩٦٥)



## الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمزيج (٤)

والشيوعية، وبالأذات في فترتي الثورة العراقية والوحدة المصرية - السورية (١٩٥٨ - ١٩٦٦) وفي ظل هذه الظروف فُرض أمر حلّ الحزب الشيوعي المصري وانضمام عناصره فرادى إلى تنظيم السلطة (الاتحاد الاشتراكي العربي) والمنظمة السرية داخله (التنظيم الطليعي) باعتبار ذلك هو الحل الوحيد المتاح أمام من يقول العمل في ظل الشروط الناصرية.

ومع إعلان حلّ الحزب، الذي اتخذته القيادات بمعزل عن استشارة قواعدها الملهمة بفعل المحلات البوليسية الشرسية، انفرط عقد الحلقة الشيوعية الثانية. فعادت للحركة الماركسيّة المصرية نمو عقد من السنين في حالة انعدام ويزن تائم، إذ سحبت الناصرية الكاريزمية البساط من تحت أقدامها، مقدّمة نموذجاً محلياً لـ «اشتراكية» فوقيّة استُحدثت بقراراتها توسيع القاعدة الاجتماعية للنظام من الفلاحين والعمال والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة، لكنّ هذا النظام لم يتّمسّد أمام المؤامرات الداخلية أو الخارجية، وسرعان ما انهار مع هزيمة ١٩٦٧ التي وضعت «التجربة الناصرية» برمتها في مأزق، بعد أن تآكلت مصداقيّتها، وثبت عجز برنامجها المعلن عن التصدي للتحديات الحيلة، وخاصة التحدي الإمبريالي - الصهيوني الذي لم يُقهر الرئيس جمال عبد الناصر دوره التحريري الكبير في المنطقة العربية والعالم الثالث.

كما دفعت ظروفٌ عديدة - من بينها معارك التحرر الوطني الكبرى التي وسّعت ذلك العصر - والالتزام بالموقف السوفيياتي البالغ الإيجابية من التجربة الناصرية الوطنية - الحركة الماركسيّة المصرية الثانية إلى تغليب عناصر التحالف الموضوعي مع السلطة الناصرية. وقد حصل ذلك بالرغم من أنّ بطش هذه السلطة طال الأعداء والحلفاء، وتغاضى عن الشروط الواجبة لنجاح هذا التحالف في إطار مبدأ «الوحدة والصراع» - وعلى رأسها توفير آليات الحوار المفتوح، واحترام التعددية الإيديولوجية والتنظيمية. وأدى ذلك إلى إهدار قضية الديمقراطية والحرة وحقوق الإنسان، الأمر الذي أضعف الطرفين (الناصري والماركسي) معاً وسمح للثورة المضادة بأن تتمكّن من تقويض التجربة برمتها، بانقلاب ١٥ مايو ١٩٧١، الذي ترعّمه أحد أقطاب العهد الناصري ونائب الرئيس عبد الناصر!

بهزيمة ١٩٦٧ بدأت الحلقة الثالثة من تاريخ الشيوعية المصرية. وقد جاءت المبادرة هذه المرة على أيدي «جيل الثورة» ذاته، أي طلاب الجامعات الذين بلغوا إلى الحرم الجامعي في

اجتاحتها، وفي مقدّمتها الحركة الماركسيّة، في إضافة عمقٍ طليقي إلى التضال الوطني، الأمر الذي عاد بدوره فساعد على اتساع نطاق الفكر الاشتراكي في البلاد. وساعد هذا الوضع المتفجر على الضرب بقوة في أساس الملكية المهيمنة، إذ حظيت الأفكار الوطنية الديمقراطية التثقيمية بتعاطف جماهيري واسع بلغ ذروته عشية استيلاء «الضباط الأحرار» على السلطة في ١٩٥٢/٧/١٣.

أدت حركة الجيش المباركة، (والتي كان من أعضائها القبايين مملّكون لـ «الحركة الشيوعية» إلى جانب آخرين ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين، وعناصر وطنية مستقلة) إلى قطع الطريق على ثورة شعبية حقيقية كانت عناصرها الموضوعية في طريقها إلى الاختمال واصطدمت ثورة يوليو اصطداماً عنيفاً أولاً، بحزب الوفد، المنافس الشعبي الواسع التأثير الذي كان قد أخذ في التآكل بفعل عناصر عديدة، وفلاحية، بالحركة الشيوعية المصرية التي اتخذت موقفاً واضحاً في صف قضية الديمقراطية إبان «أزمة مارس» ١٩٥٤ (التي طوّل فيها الجيش بالعودة إلى مكانته وتسليم السلطة للحكم المدني)؛ وفلاحاً، بجماعة الإخوان المسلمين التي كانت قد تكوّنت عام ١٩٢٨ بمدينة الإسماعيلية على يد الشيخ حسن البنا، ويضرب هذه القوى التي كانت تمثل عصب الحركة السياسية المصرية، انفرطت سلطة يوليو بالأوضاع في مصر دون منافس. وقد ساعدها ذلك على طرح برنامجها السياسي، الذي نُوجِب «القرارات الاشتراكية» في افتتاح الستينيات، وجرى بموجبها إنجاز حركة تلميحات واسعة، أضيفت إلى قوانين «الإصلاح الزراعي» السابقة، مكّنة ركيزة «الاشتراكية العربية» التي عتّت - ضمن أبعاد عديدة - إكحام قبضة الطبقة البرجوازية البورقراطية على شؤون البلاد، مستندة إلى جهاز الدولة الراسخ، مضافاً إليه عنصر الهيمنة السياسية والاقتصادية التي تهيّأت بعد تعطيل الملكية والانفراد بالسلطة. وخاضت السلطة الناصرية في مسارها التلقائي، عن طريق «التجربة والخطأ»، صدامات مستمرة مع القرب الاستعماري، ممثلاً أولاً في الإمبراطوريات الألفة (البريطانية والفرنسية)، وفلاحياً في الإمبراطورية البازغة (الولايات المتحدة)، مقترنة اقتراباً حثيثاً من المعسكر الاشتراكي على صعد الدعم الاقتصادي والصناعي والعسكري.

لكن العلاقة المتينة مع المعسكر الاشتراكي لم تحلّ دون استمرار عمليات القمع والتكيل بالحركة الشيوعية المصرية، خاصة في مرحلة الصراع الدامي بين الحركتين القومية

ظل مجانية التعليم الناصرية وهُيئتوا لكي يكونوا الامتداد الطبيعي للسلطة الناصرية، وكوادر مستقبلية لها. ذلك أن الهزيمة أطاحت بالنفوذ المعنوي للنظام على جيل قُتي صنَّهته تهكُّم مُثُلُه العليا، وانتهاء رموزه وشعاراتها أمام زحف المشروع الإمبريالي - الصهيوني. وبدأت تداعيات الهزيمة على شكل هُبات اعتبرها د. فؤاد زكريا «الصحة الوحيدة التي استطاع اليسارُ خلالها أن يفعل شيئاً يتَّسم بقدر من الإيجابية، هي مظاهرات الطلبة وبعض التجمُّعات العالمية؛ ولكن قد يكون من الأدق القول إنَّ هذه الفترة شهدت محاولة لظهور يسار جديد خارج عن سيطرة القيادات التقليدية»<sup>١٠٩</sup> فقد انضوت موجات من الانتفاضات الطلابية والعمالية العارمة، ذات صبغة يسارية، وقيادات ماركسية أو على تخومها، استمرت عقداً كاملاً (١٩٦٨ - ١٩٧٧)، افتتحت بمظاهرات الاحتجاج على «أحكام الطيران» التي تمَّ بمقتضاها تقديم بعض الضباط «كبش فداء» للهزيمة، وانتهى بثورة الغضب الشعبي (في ١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧) التي أطلق عليها أنور السادات ثورة الحرمية. بعد أن احتلت الجماهير الشوارع يومين كاملين قبل أن يتمكن الجيش من النزول إلى الشوارع واستعادة الزمام. وما بين المظاهرات والثورة كانت حركات الاحتجاج الشعبي السياسية (من أجل التحرير والديمقراطية) والطلابية (ضد سياسات التكميف الهيكلي) والخصخصة، والانتقال على الإجراءات الاجتماعية للحقبة الناصرية) قد تعاضدت إلى مدى غير مسبوق، وبرز مجدداً الدور القيادي للطلان الماركسية. وقد قرَّرت الحركة الشيوعية الثالثة على عدة رؤا أساسية:

- الأول مكَّنته المجموعة الصغيرة من المناضلين الذين رَفَضُوا الاعتراف بشرعية حلِّ الحزب، وظلوا يعتبرون أنفسهم «الحزب الشيوعي المصري» الحقيقي وجات الانتفاضات الطلابية والعمالية، وبالذات تلك التي قادها اليسارُ في الجامعات والمصانع المصرية منذ عام ١٩٧٢، بمدر كبير جدير لها، تمثل في انضمام عدد من أبرز القيادات الطلابية والعمالية اليسارية إليها. فتشكل من للجويعيين (القديمة والجديدة) ما أطلق عليه «الحزب الشيوعي المصري» - ٨ يناير.

- والثاني مكون من عناصر نضالية شابة، وأغلبهم من المنفيين الشوريين وكوادر حركة الطلاب اليسارية والعمال، وشكلوا «حزب العمال الشيوعي المصري».

- والثالث مكون من كوادر ومناضلي الحركة الشيوعية السابقة المنحلة، الذين استعادوا جهودهم التنظيمية، واستفادوا من الحالة التي أفرزتها الانتفاضات الطلابية والعمالية في نهايات المستعنيات ويدايات السبعينيات، وتشكَّل منهم «الحزب الشيوعي المصري».

- كما تكوَّنت مجموعة رابعة تحرَّكت في المسألة بين التنظيم والحركة المفتوحة وأسَّمت نفسها «التيار الثوري» وقد أخذت على عاتقها التأكيد على «قضية الديمقراطية» في ارتباطها بالعمل اليساري، وأخذت موقفاً سلبياً من التجربة الناصرية بسبب احتكار السلطة والتكبل بالخصوم السياسيين، فيما هادت للنظام الساداتي انطلاقاً من الانتقاء بأدعائه الديمقراطية؛

وللمرة الثالثة أيضاً، تعرَّضت الحركة الشيوعية المصرية لعقد كامل من المطاردة المكثفة وحملات الاعتقال والتعذيب، بواسطة أجهزة أمن النظام الساداتي، فأتى ذلك إلى انهيار التنظيمين، الأول والثاني وأما التنظيم الثالث فاستمرَّ محدود التأثير، قبل أن يتعرَّض هو الآخر لانقسام جديد في السنوات الأخيرة زاده ضعفاً على ضعف.

وعلى مستوى آخر، ويتأثر من ضغوط الحركة الجماهيرية التي اصططحت بعنف مع سياسات الرئيس السادات، وللتقاوم مع اغراض التحول الاستراتيجي الذي استهدفه النظام بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، طرَّح السادات برنامجاً ارتكز على التحالف مع الولايات المتحدة والغرب، والصلح مع «إسرائيل»، والانتداب الاجتماعي على الإجراءات الناصرية وانحيازاتها الطبقية. وكان ضرورياً - من أجل استكمال ملامح الصورة «الديمقراطية» المزعومة الجديدة، ولطخ الطريق مجدداً على تبلور طبيعي للحركة الشعبية الثورية كان أخذاً في التكوّن - أن يتَّبنى النظام شكلاً سياسياً «ليبرالياً» مصطنعاً، فتمَّ تصويل الاتحاد الاشتراكي العربي إلى هلام تُغذ في البداية شكل «المناير» (منير اليمين، وأخر اليسار، وثالث الوسط)، قبل أن يتم تحويلها إلى «أحزاب» لها ما للأحزاب المعروفة من شكل وهيئة، لكنّها مفقودة إلى عناصر حيويّتها الضرورية، وبالذات إلى صلاتها الجماهيرية، بفعل تشوُّهات النشأة، والهشاشة الداخلية، والحصار الأمني العنيف

وعلى مسار السنتين، حثَّت تداعيلُ شديد التعقيد والانتباس بين «الحزب الشيوعي المصري» ومنير اليسار، الذي أصبح فيما

١ - د. فؤاد زكريا، «الأزمة الراهنة اليسار المصري»، مجلة الهلال، القاهرة، عدد أغسطس ١٩٨٩، ص ٩١.



## الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتبعة (٤)

كثيرة بأن تمرز - من خلال عملية «التحويل» الانتقائية المدروسة - قضايا حساسة وخطيرة كـ «التطبيع».

وهكذا، فبين تردّي أحوال النخبة اليسارية، والماركسية، والماركسية السابقة، التي تحظى بـ «الشرعية» الرسمية، من جهة؛ وبين عجز العدد الأكبر من الماركسيين والماركسيين الجدد خارج هذه الحلقة عن بلورة إطار بديل أكثر كفاءة وقدرّة وارتباطاً بالناس، من جهة ثانية؛ تراجع نفوذ الحركة الماركسية المصرية في وقتربلغ الاحتياج إليها غايّة.

والآن، بعد ما يقرب القرن من بداية النشاط الماركسي في مصر، فإنّ الواقع المؤسف يشير إلى ملامح الوهن التي اخترعت جسم هذه الحركة. فبرغم كلّ تضحيات مناضليها وكفاح أجيال من المتكمنين إلى صفوفها، وكبت الحركة الماركسية المصرية القرن الحادي والعشرين وهي في أسوأ حالاتها على الإطلاق: مرزقة الصفوف، منزوعة الأسلحة، مشوّهة الملاح، فاقدة القدرة على التأثير في حركة الواقع. ورغم جهود بعض عناصرها لإنشاء عدد من المواقع الفكرية والمراكز البحثية والتجمّعات والأنوية التنظيمية، وإسهامهم الجوهري في كلّ أشكال العمل الاحتجاجي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي طوال العقدين الأخيرين على الأقل (في لجان العمل الشعبي لمقاومة الصهيونية والتطبيع، ولنصرة الانتفاضة الفلسطينية، والمقاومة، ودعم الشعب العراقي، ومقاومة العدوان الأمريكي، ومن أجل الديمقراطية، وبمقاومة عن عمال مصر وفلاحها...)، فما زالت الأمواج تتفانفها من كلّ اتجاه، ويتراجع حضورها في قيادة الحركات الشبابية، وتبثت صورتها في ذاكرة الوطن والمواطن - وبالأذات في وعي وإدراك الأجيال الجديدة. ومن وجهة نظري، فإنّ الماركسية المصرية الآن لم تعد أكثر من مجرد محالة وليست واقعاً، فـ «المحالة» لاحتماً في أحسن الظروف؛ أما «الواقع» فهو وحده اليقيني الذي يحوّل عليه، ويؤثر في موازين القوى، ويوضّع له اعتباراً في مواقع صنع القرار.

وإذا طُعننا القاعدة المعروفة التي تقول «بهذهما تتمايز الأضداد» فإنّ مجرد مقارنة واقع الحركة الماركسية المصرية بواقع حركة الإخوان المسلمين التقيض كافراً لتلك كما ذهبنا إليه آنفاً من تقرير. فمن عجيب أنّ الحركة الماركسية المصرية التي سبقت إنشاء جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٧٨ تعاني ما تعانيه من

بعد «حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي»، تمّ بموجبه استبعاد أغلب العناصر الماركسية النشطة خارج «المصري» من هذا النبر العلني. وقد ساهم ذلك بدوره في تكريس تزييق الحركة الماركسية من جهة، وفي إرباك مساراتها من جهة أخرى، بتأثير السياسات التي تبناها قادة «حزب التجمع»، وبالأذات بعد طرح د. رفعت السعيد (رئيس حزب التجمع) لاستراتيجية «الأسقف للخفضة»<sup>(١)</sup> باعتبارها الاستراتيجية الوحيدة الممكنة في ظلّ التحولات الهائلة الراهنة، تحت وطأة «الأسقف التي تنخفض فتفرض علينا - أحياناً - الاتحاة بشعاراتنا أو حتى أن نتحاشاها سعياً للتوافق مع الواقع». وينتهي أن يُقترَب الكثيرون تلك «الأسقف» إعلاناً وطمحاً عن التخلي عن الفكر الماركسي، والسعي إلى الاندماج في المنظومة السياسية الرسمية تحت تزييق فلسفي أطلق عليه السعيد مسمى «التناقض المتداخل»<sup>(٢)</sup>.

لقد أدت استراتيجية منظمة لتيار «الماركسية الرسمية» - وهي استراتيجية تبنت سياسات معلنة تتقاطع مع النظام دائماً، وتتمازج معه أحياناً تحت زعم مواجهة تطرف «المتاسلمين» - إلى التفاضي عن مواجهة استفحال الفساد البنوي في هيكلية النظام، وإلى غشّ الطرف عن انتهاكاته المستمرة للحريات السياسية للخصوم السياسيين (وبالأذات للتيارات الإسلامية)، وإلى التخفيف من انتقاد سياسات الحكم التابعة للولايات المتحدة وعلاقاته الريبة بالكيان الصهيوني. وقد تولّت الحركة الماركسية عموماً من هذه المواقف، وأضرت إضراراً جسيماً بصنقية انبعاثاتها في قضايا الحريات الديمقراطية، والنضال ضدّ العنصرية الصهيونية والأمريكية، والفساد الداخلي الذي يطال رؤوس النظام جميعاً!

وزاد الوضع تردّيًا انسحاب أعداد كبيرة من كوادر الحركة الماركسية الثالثة من ساحة العمل السياسي المباشر، والتوجه صوب «العمل الاجتماعي» من خلال النشاطات في جمعيات المجتمع المدني (NGO'S). وهذه الجمعيات، كما هو معلوم، اعتنّت في المقام الأول بقضايا جزئية، كالخنازق والجنتره والاقليات والبيئة، وفي حدود السقف (للاسياسي) للسماح به من قبل «المانحين» أو «الممولين» - وأغلبهم جهات أوروبية وأمريكية (مثل فورد فؤئيشين والكونجرس الأمريكي وغيرهما) أغراضها ليست فوق مستوى الشبهات، واعتنّت في أحيان

١ - د. رفعت السعيد، كلام في السياسة (القاهرة: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١)، ص ٤٧ - ٩٠.

مشكلات، فيما تجاوزت الأخيرة الكثير من العقبات التي واجهتها، وفرضت نفسها على المساحة العربية والعالمية لا المصرية وحسب. صحيح أن هناك أسباباً موضوعية لنمو ظاهرة «الإسلام السياسي» سواء ما يعود منها إلى طبيعة الإيديولوجيا الدينية السائدة التي تمثل أرضية مؤهلة لاستقبال الدعايات الإسلامية في مجتمعاتنا دون جهد يذكر، أو التي تعود إلى إخفاق التجارب الوطنية والقومية السابقة، وكذلك سقوط التجربة السوفياتية، أو لجهة الدعم اللادى والسياسي والأدبي الذي لقينته هذه الحركات من النظم العربية المحافظة والتابعة والولايات المتحدة والغرب في فترات توافقها مع السياسات الإمبريالية الأميركية والغربية. إلا أنه من الملاحظ تميز الحركات الإسلامية بديناميكية ذاتية وبروح «عملية» فائقة مكنتها من استثمار الظروف أحسن استثمار، على عكس الحركات الماركسية، التي يستهوي أغلبها الجدل النظري، وتفتقر إلى مقومات الوجود الحي والتفاعل الديناميكي مع أبناء الشعب

### أزمة قديمة وأعراض موروثة

ليست أزمة الحركة الماركسية المصرية الجديدة، غير أن استقبالها تضاعف خلال العقدين الآخرين. وقد أشار الأستاذ محمود أمين العالم منذ عشرين عاماً إلى جانب من مظاهر هذه الأزمة باعتبارها «أزمة تنظيمية تُضخِّف من الفاعلية الحركية»، مؤكداً أن «معضلة اليسار الماركسي [هي] أن نفوذه الفكري ما زال أكبر من قدراته الفعلية»<sup>(١)</sup> ووصف المعارضة اليسارية (والماركسية أساساً) بأنها أقرب - في كثير من الأحوال - إلى المعارضة الكلامية النخبية الشعارية، ذات الطابع العام المجرد المرتبط بقضايا ومشاكل عامة، لم تبلغ بعد مستوى التعرف الدقيق على مشاكل الجماهير العينية ومطالبها واحتياجاتها الموضوعية<sup>(٢)</sup>.

كما رَسَدَ العديد من المفكرين أبرز مسببات أزمة الحركة الماركسية المصرية على مدى السنوات الماضية، وجنّبوها في التالي: افتقار الانسجام بين النظري والعمل، وانحصار عملها في نطاق شرائح اجتماعية هامشية إلى حد كبير، يُلقب عليها الطابع الثقافي الفوقي<sup>(٣)</sup> وضيق «الهشاشة النظرية»<sup>(٤)</sup> أو

بحسب توصيف د. محمود عبد الفضيل: «الميل لاحتقار الواقع» والتفكير «بمعدل مستحضر» - وهذا كله يقود إلى «إعطاء أجوبة معلّبة على الأسئلة الطائفة» التي يُقرّرها الواقع اليومي. فهناك - في أحوال كثيرة - «عدم إصافاره إلى إيقاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي ميل مغالّي فيه إلى إملاء الأفكار المسبقة: وهذا يقود بدوره إلى «الفقر النظري والتبئيس الفكري»، بما يحّد من عمليّة التوجه اليساري (الماركسي) كتوجه تحليلي لفهم الواقع وتحليل العمل السياسي»<sup>(٥)</sup>، والحال أن «فشل النظرية في التفسير»، كما يقول عبد الفضيل، يعني أنها سوف تفشل قطعاً في التغيير. فالأزمة إذن، من وجهة نظر الباحث، ترجع إلى عدم ملائمة «النموذج التحليلي»، المستتر إلى واقع التطور الرأسمالي في أوروبا القرن التاسع عشر، أساساً لفهم واقع التطور الاقتصادي والاجتماعي الراهن.

ويُزَيّد الأستاذ حلمي شعراوي سبباً آخر من مسببات أزمة الحركة الماركسية المصرية، هو «تردد الماركسيين بين الاجتماعي والوطني». فقد كان الماركسيون المصريون «اجتماعيين يهتمون عن صراع الطبقات يوم كانت القضية المركزية هي الهجمة الصهيونية الإمبريالية بعد الحرب العالمية الثانية. وكانوا وطنيين معادين للإمبريالية في الستينيات. وهذا ضروري قطعاً - بينما المطلوب كان تعميق القضية الطبقية ثم عادوا اجتماعيين أو اقتصاديين منذ السبعينيات. وحتى الآن تقريباً - في حين أن الهجمة الإمبريالية والصهيونية تتغير لبتلاخ مصدر والوطن العربي»<sup>(٦)</sup>.

أما الدكتور مراد وهبه فأرجّح الأساس العضوي لأزمة الحركة الماركسية المصرية (والعربية) إلى عوامل عدة، أبرزها عنصر «موضوعي» كامن في التراث المصري «من حيث هو تراث متخلف، محكوم بالفكر الأسطوري منذ الحضارة الفرعونية، لم تُعمل فيه العقل الناقد، الذي من وظيفته الكشف عن جنود الوهم فيما نعتقد». وقد أدّى ذلك إلى عرقلة مرحلة «التغيير الضرورية لإفراز الليبرالية والماركسية، والتي يتم خلالها إخضاع كل شيء للفرد وحكام العقل. هذه الوضعية أُلْغيت النقطّة الشرطية الضرورية لخلق طبقة برجوازية حقيقية، إذ إن البرجوازية لا تتكوّن إلا في مناخ علماني» في حين أن العلمانية

١ - ٢ - محمود أمين العالم، «اليسار يولج أزمة حركية»، مجلة الطلوع (القاهرة)، العدد ٢ يناير ١٩٨٥، ص ٢١ - ٢٢

٣ - ٤ - سيد الجبرائي، «غيب المعالية»، جريدة الحياة، لندن، ٩ يناير ١٩٩٤

٥ - د. محمود عبد الفضيل، «اليسار وأزمة فهم الواقع»، بعض الملاحظات الأولية، مجلة الهدف (دمشق)، ١٢ مايو ١٩٩٦، ص ٢٨.

٦ - حلمي شعراوي، «أزمة الماركسي الراوغ»، جريدة الحياة، مصدر سبق ذكره



## الحركة الشيوعية العربية: الواقع والمرتجى (٤)

### أفكار أولية من أجل إعادة البناء

بلغت الحركة الماركسية المصرية أوج ضعفها مع استفحال الأزمة المجتعية الشاملة، وانتهيار الأمل لدى عشرات الملايين الذين غُفرت بهم وبمصلاتهم سياسات الطبقة الرأسمالية الحاكمة: حيث تصاعدت نسب البطالة بصورة قياسية، وارتفعت أسعار السلع والخدمات الضرورية بشكل جنوني، وتدهأت مستويات المعيشة إلى ما تحت خط الفقر المحدد دولياً، وتراجع التفوق المادي والمعنوي للبلاد إلى درجة شنيعة ومهددة للامن الوطني والقومي. وفي اللحظة التي تبيّنت فيها أوهام الخلاص البرجوازي، تفلّخت الجماهير حولها تبحث عن قيادة لأحلامها وآمالها في التغيير، فلم تجدها!

إنّ الحاجة الموضوعية ماسّة إلى حركة سياسية ماركسية مصرية جديدة، قادرة على التواصل المصميم مع الناس واحتياجاتهم. ومن الضروري، لكي تنجح هذه المهمة الشاقة، توفرّ العناصر التالية:

١ - إجراء عملية فحص نقدي صارم لجماع التجربة الماركسية، العمالية والمحلية، من أجل وضع اليد على أسباب الضعف والإخفاق بمعالجتها، والتعرّف على مكان القوة والنجاح، وللوقوف على الجوهري والباقي في «الجدلية الماركسية» وتخليصها من الأوشاب التي علقت بها، بهدف بناء منظومة معرفية ماركسية جديدة تتجاوز عناصر الخلل في المنظومة المعرفية البيروقراطية التي سادت على امتداد العقود الماضية، وعلى ذلك أن يترافق مع الاستمرار في نقد الوعود اللوهمية الليبرالية والنيوليبرالية، وكلّ الأفكار الرأسمالية والرأسمالية المحسّنة، من نوع نظرية الطريق الثالث، وغيرها، التي لا تعدو أن تكون تجميلاً للوجه الرأسمالي القبيح.

٢ - صياغة برنامج واقعي للنضال، يتأسس على إدراك الأولويات للعمل الممكن، وفق برنامج زمني دقيق، يحدّد مفهوم «الاشتراكية الجديدة» التي ناضل من أجل تحقيقها، ويعيّن ملامحها ذات الطابع الإنساني المنفتح الرافض للقصر، ويضع مجمل الظروف الدولية والدخلية المحيطة في الاعتبار. وهذا البرنامج يجب أن يستهدف إحداث قطيعة معرفية وهرمية مع النظم الرأسمالية والبرجوازية الصغيرة التابعة، وإعادة بناء الجسور مع الحركة الجماهيرية (على مستوى اللجان

هي من المحرّبات الثقافية في بلادهم وفي بلادهم مثلاً لبلادهم، وغياب الطبقة البرجوازية يعني غياب نقضها، لأنّه إذا انتفت البرجوازية انتفت الطبقة العاملة، والأخطر من ذلك هو أنّ غياب «ثقافة التنوير» جعل تفكير الماركسيين المصريين «تفكيراً دوجماتيقياً»، يُلقط العوامل الموضوعية ولا يرى سواها من عوامل ذاتية لها من الفاعلية ما لدى العوامل الموضوعية: فيدعو إلى التأميم من غير وجود كوابر اشتراكية، ويدافع عن القطاع العامّ بغضّ النظر عن الخسائر المالية الناجمة عن السلب والنهب، ويتوهم وجود صراع طبقي في مجتمع يتخلو من الطبقة بالمفهوم العلمي»<sup>(١)</sup>

وهناك سبب آخر كان له أبلغ الأثر في عرق الماركسية المصرية عن الدخول إلى عرق الوجدان المصري. ذلك هو الدور الذي لعبته بعض القيادات الشيوعية المصرية اليهودية في الأربعينيات، وتلازمها الوجوديون حتى الآن في العمل السياسي للماركسي، في الدفع نحو سيطرة المفهوم الستاليني للقومية بالتياسات العرفية ونتائج السلبية على بلادنا، وبلذات في ما يخصّ الموقف من إنشاء الكيان الصهيوني ومن العلاقة مع «قوى السلام الإسرائيلية». وقد ضاعف ذلك كلّ من أسباب عزلة الحركة الماركسية المصرية، وتلويث مبادئها، لغياب الأوضوح في الالتزام بالموقف (الماركسي) الوحيد الصحيح في مواجهة المشروع الصهيوني، والمتمثّل في الرفض القاطع لدوافعه ومبرراته، والمواجهة الصارمة المستمرة لعدوانه. ويذكر المناضل الماركسي فوزي حبشي أنّ هنري كوريل، مؤسّس «حدث»، كان خلال النقاش معه يحاول إقناعي بأهمية وجود إسرائيل في المنطقة، لأنّها، حسب زعمه، ستصبح واحدة للديموقراطية وسط البلاد العربية التي لا تُعرّف للديموقراطية. وكنت أرى عليه دائماً يرفض للنازم تلك الفكرة، ويقول إنّ تحول البلاد العربية إلى الديموقراطية لا يُمكن إلّا أن يتمّ بنضال شعبيها، وليس بزعزعة كيان من الخارج<sup>(٢)</sup>، وعلى كل الأحوال يمكن التأكيد أنّ الحركة الماركسية المصرية الجديدة وكنت مرةً من هذه الخطيئة: فقد كان لها الشرف في تقديم صفوف للقوى الوطنية والقومية التي طالبت بشخص الزبارة الوطنية في مواجهة المشروع الصهيوني/الإمبريالي بعد هزيمة ١٩٦٧، وفي مقاومة «التطبيع» ولناصرة الشعب الفلسطيني، ودعم الشعب العراقي في مواجهة العدوان والاحتلال الأميركيين في الفترة الأخيرة.

١ - د. مراد وهبة، «أزمة اليسار المصري»، مجلة إبداع (القاهرة)، سبتمبر ١٩٩٥، ص ٢٢.

٢ - م. فوزي حبشي، معتقل كل العصور: حياتي في الوطن (القاهرة: ميريت للنشر، ٢٠٠٤)، ص ٦٩.



القاعدة) من أجل تأسيس علاقة عضوية جديدة مع الطبقات الشعبية تعمق الارتباط بها وتتخذ في الاعتبار اتساع الفئات الاجتماعية المتضررة من السياسات الرسمية للنظام.

٣ - ابتداءً على آلية تنظيمية مرنة ومتطورة تتناسب على مبدأ الانضباط الواعي، وترتكز على قواعد الديمقراطية والشفافية، وتتجنب العيوب البيروقراطية التي قادت الشكل التقليدي للحزب الشيوعي إلى الانكسار.

٤ - التركيز على نشر الوعي النضالي وسط المرأة التي يتعرض وجودها ودورها للانتهاك المستمر، وبين الأجيال الجديدة من شباب العمال والطلاب والمثقفين والكادحين عمومًا، والهدف من ذلك هو تجديد الدماء في الشرايين المتجمدة، ومد الحركة الاشتراكية في مصر بصفوف متجددة من المؤمنين بقيمتها وأفكارها، وتعويض الفقد الكبير في كوادرها بفعل عوامل التآكل البيولوجي أو الإحباط واليأس، وإبتكار آليات عمل جديدة تتواءم مع معتبرات العصر وتتسجم مع حاجات الشباب وطرق تفكيره. ويُتحدث الأستاذ عبد الغفار شكر، في هذا السياق، على جيل الأبناء المؤسسين، الذين كانوا في العشرينات من عمرهم عندما تصدوا لإعادة تأسيس حركة اليسار المصري بعد الحرب العالمية الثانية، التنحي وتحصيل المسؤولية للأجيال الجديدة.<sup>(١)</sup>

٥ - العمل على إعادة الاعتبار إلى الدور المحوري لقضية «الوعي» في النضال الماركسي. وهذا يعني الاهتمام العميق بالثقافة وبروحية الانفتاح الفكري، والاهتمام بالتاريخ الوطني والإنساني، والتوجه إلى ترقية الحس النقدي، وتأكيد مبدأ النقد والنقد الذاتي من أجل محاربة التكنس والجمود ولقطع الطريق على الانتهازية والوصولية.

٦ - إعادة النظر في الموقف الماركسي التقليدي في بلدنا من مسألة الدين. انطلاقًا من الاعتراف بأهميته - كموروث عقدي وثقافي للامة لا يمكن إساءة التعامل معه - خاصة في ظل الهجمة الإمبريالية الصهيونية العنصرية عليه، وفي ظل الظروف التي بلغت المزيد من الجماهير إلى الانصاف به كحائط صد ضد محاولات الاجتثاث التي تتعرض لها. وينبغي في هذا الصدد بحث أشكال التواصل مع القوى الإسلامية المنفتحة

التي تُقبل بشروط التعددية الفكرية والسياسية، وتؤمن بالعمل المشترك ضد العدو المشترك.

٧ - التمسك بمفهوم «المواطنة» باعتباره الركيزة الرئيسية للبناء الوطني المستهدف، حيث الجميع متساوون في الحقوق والواجبات، وحيث لا يتم تمييز مواطن عن آخر بسبب اللون أو الجنس أو الدين أو العقيدة الفكرية.

٨ - إحياء الفهم الجدلي لقضية الجبهة الوطنية الديمقراطية وقوانينها الأساسية، التي تُطلق من الوعي بأن اتساع حجم مشكلات المجتمع وتجزؤ أزمته الهيكلية يوسعان من حجم الفئات الاجتماعية الراضية في التغيير، ويسيران من أمر تكوين ائتلاف وطني واسع يلتقي حول برنامج من التعاون

٩ - الارتباط الحيوي بالحركة النضالية العربية التقدمية الجديدة التي تسعى إلى تأسيس مفهوم حديث وديمقراطي لمسألة «الوحدة العربية» الشعبية. انطلاقًا من الإدراك الواعي بالترابط العضوي بين النضالين المحلي والعربي، وبوحدة النضال القومي والعالمي في مواجهة الصهيونية والإمبريالية.

١٠ - التواصل النشط مع المنظمات والهيئات والأحزاب التقدمية في العالم، ومع الحركة العالمية المناهضة للعولمة المتوحشة والمقاومة لخطط الهيمنة والمحلف الامبريكي الصهيوني، باعتبار هذه الحركة حليفًا أساسيًا لا يمكن هزيمة مشاريع العنوان الموجهة ضد أوطاننا بمعزل عن دعمها.



هذه بعض الأفكار والاقتراحات التي قد تساعد في تشخيص حالة الأزمة الممتدة للحركة الماركسية المصرية الراحنة، كتبتُها بالقدر الواجب من النزاهة والموضوعية، واستهدفُ من خلالها وضع اليد على مكانة القلة فيها، أملاً في العلاج، ودفعا للخروج من حالة التفسخ والتري الذي تحياها.

التحدي صعب! لكن الأمل قائم، والحاجة الموضوعية توفر الآن ظروفًا مواتية من أجل الإقدام على الخطوات الضرورية لعملية إعادة البناء. المهم أن نَحْذَر عزميتنا لإنجاز هذه المهمة الصعبة والنييلة، ولا نَضَيِّع الفرصة مرةً أخرى، لأن الزمن لا يَرُحِم.

هذا .. أو الطوفان!

القاهرة

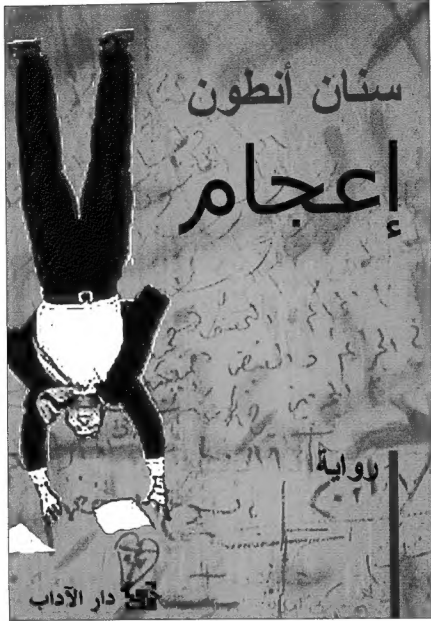
١ - عبد الغفار شكر، جريدة الاهالي، ١٥/١١/١٩٩٧.

## من مواد العدد القادم (حزيران ٢٠٠٥):

- أبحاث فكرية/سياسية : منير شفيق، فيصل القاسم، يسام أبو غزالة، محمود النوادي، علي العبد الله.
- دراسة أدبية : فاروق مواسي.
- يوميات : أحمد أهلي.
- قصص : مارك حداد، أياد البرغوثي.
- قصائد : ميلود لقمان، صالح الرحال.
- مناقشات : رجاء الناصي شريف يحيى الأمين.

## ملفات الأعداد القادمة:

- هشام شرابي : عام على رحيله.
- الشباب والسياسة.
- التجربة المرة : المثقفون والسياسة.
- مصر تريد التغيير!
- الملكية في الوطن العربي.



عُثر على مخطوطة كتبها أحد السجناء خالية تماماً من النقاط. وقد طُلب من أحد «الرفاق» تنقيطها وطبعها على الآلة الكاتبة. ووجد أن النص عبارة عن خواطر غير متسلسلة واستذكارات غير منطقية وبذاءات واستخفاف بمقولات الأرب القائلد وبقلم الحزب والثورة...

سنان أنطون شاعر وروائي عراقي، ولد في بغداد عام ١٩٦٧. عمل مترجماً ومدرّساً في الولايات المتحدة وكتب حالياً أطروحة الدكتوراه في الأدب العربي في جامعة هارفرد. له مجموعة شعرية بعنوان موشور مبلل بالحروب ونشر العديد من النصوص السردية والمقالات في الصحف العربية والأجنبية.

رواية



ربيع جابر

## بيريتوس: مدينة تحت الأرض

دار الآداب - بيروت

المركز الثقافي العربي

حارس سينما سيني بالاس المهجورة ينزل ذات ليلة ماطرة إلى مدينة تحت بيروت تسمى بيروت أيضاً. ماذا يجد بطرس «تحت»؟ نساء فانات الجمال وعائلات كاملة تحيا في نور الشموع، طعامها السمك الأغصى وخبز السمك والجدور البرية... من أين أتى هؤلاء؟ ومن هم العميان في «حي العميان»؟ هل نزلوا من «فوق» أيام الحرب اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠) التي قُلت أكثر من مئة ألف إنسان، وأخفت في الظلمات ١٧ ألف محطوف؟ أم أنهم وُلدوا تحت؟

رواية عن عالمين، عن النهجر والقتل والبقاء على قيد الحياة... وشهادة خيالية نادرة على دمار حقيقي انتهى ولم ينته تماماً بعد.



AL ADAB

Arabic Cultural Review Since 1953  
P.O.Box 11- 4123  
Beirut - Lebanon  
Post Code 1107 2150  
Tel/Fax: (01) 795135 - 861633  
(03) 381349  
d\_adab@cyberia.net.lb  
www.adabmag.com

الرداب

مجلة ثقافية عربية منذ ١٩٥٣  
ص.ب.: ٤١٢٣ - ١١  
بيروت - لبنان  
الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٥٠  
هاتف: (٠١) ٧٩٥١٣٥ - (٠٣) ٣٨١٣٤٩  
فاكس: (٠١) ٨٦١٦٣٣ - ٩٠٩٦١

پ: ٩٦/١٦٨  
P: 168/96